



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة عباس لغرور خنشلة

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

الجـــــزائر في أدب الرحلـــــة الفرنسي

غي دي موباسان وإيزابيل إيبرهارت نموذجا

Guy de Maupassant –Isabelle Eberhardt

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي

تخصص: الأدب العالمي

إعـداد الطالب:

عزوز نواصري

إشراف الأستاذ:

أ.د.عمر عيلان

لجنة المناقشة :

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة	الصفة
يوسف لطرش	أستاذ التعليم العالي	جامعة خنشلة	رئيسا
عمر عيلان	أستاذ التعليم العالي	جامعة خنشلة	مشرفا
رشيد رايس	أستاذ التعليم العالي	جامعة تبسة	مناقشا
ميلود رقيق	أستاذ محاضر	جامعة خنشلة	مناقشا

السنة الجامعية:2015/2014

إهداء

لأنه في البدء كانت الكلمة.

لا أجد، وأنا أحيي أهلي وأحبتي، من هدية أقدمها لهم أجمل من هذه الكلمات.

- إلى روح الوالد، الذي غيب في الثرى، وأنا بعد طفل صغير يحاول فك الأبجدية، وتعلم الهجاء.
- إلى الوالدة خير سند لي في الحياة،
- إلى رفيقة الدرب، وعمود البيت، ومصباحه.
- إلى أبنائي، وأبناء إخوتي، خاصة الفراشات: هناء، فاطمة، آية، رحمة.
- إلى روحي الصديقين الغاليين: ميلود، والسعيد
- إلى أخوي " أحمد"،" سعيد"، وكل أهلي، أصدقائي، وأحبتي ... بقريتي " لمصارة ".
- إلى أصدقائي، وزملاء مهنة الشرف والمتاعب ببوحمامة: محمد، كمال، هشام، بوبكر، عبد الله، علي، نورالدين، نورالدين، محمد البشير...
- إلى تلاميذي بمتوسطة "عيشاوي بوزيد بوحمامة " ، وليسامحوني على ما قصرت في حقهم طيلة سنوات أربع .
- إلى زملاء الدراسة خلال مرحلة الماجستير: الوازنة، بوبكر، عبد الكريم، علاء الدين، بثينة، دارين، آمال .

شكر

لكل من قدم يد العون والمساعدة لتصطبغ هذه الأوراق بالأسود شكري الجزيل:

- جميع أعضاء هيئة التدريس والإدارة بقسم اللغة العربية بجامعة عباس لغرور ـ خنشلة، طيلة ست سنوات، مرحلة الليسانس، ومرحلة الماجستير، لا أستثني منهم أحدا.
- أستاذي المشرف الذي رافق البحث، وجنبه الكثير من المزالق، حتى استوى على سوقه، الأستاذ " عمر عيلان "
- أستاذي يوسف الأطرش، الذي لم يبخل علينا ـ طلبة الماجستير ـ بالعناية والرعاية والتوجيه.
- الأستاذ رشيد رايس الذي أمدني شخصيا بالوثائق المفيدة للبحث.
- أستاذي فيصل حصيد، الذي أحضر لي، يدا ليد، إحدى مدونتي البحث من لدن مترجمها.
- الأستاذ حبيب بوزوادة من جامعة معسكر الذي وفر لي، بعد أن أعياني البحث، إحدى مدونتي البحث.
- أساتذتي بجامعة " عباس لغرور ـ خنشلة " قسم اللغة والأدب العربي، خاصة: ميلود رقيق، حورية رواق، سعيدة بن بوزة، رشيد بلعيفة، عبد الحميد ختالة، حسان بوجلال.

مقدمة

أضحت السنوات الأولى من هذا القرن(21)، بما تخللها من اهتمام جزائري بالكتابات الكولونيالية، دليلا واضحا على الوعي اللافت عند المثقف الجزائري بأهمية تناول تلك الكتابات بالدراسة والنقد، قصد استجلاء صورة الجزائر في الكتابات الكولونيالية. ويتضح ذلك الوعي اللافت في الجهود الكبيرة التي، رغم تشتتها، تحاول تفكيك المدونات الكثيرة التي ظلت الأقلام الكولونيالية تسطرها طيلة قرنين، أو أكثر، عن الجزائر، شعبا وتاريخا وجغرافيا، مدونات أنتجتها المؤسسة الاستعمارية تمهيدا للغزو، أو مرافقة لعملية الاحتلال، مبررة له، مدافعة عنه، مكرسة إياه واقعا، مصورة له حقيقة لا تقبل النقاش.

لقد كانت تلك الكتابات الاستعمارية، في أكثرها، متحيزة، عنصرية، مستعلية؛ إذ بقدر ما قدمت المستوطن /المستعمر الوافد عنصرا إيجابيا، بقدر ما عملت على تغييب ابن الأرض، وتجريده من مواطنته، واصفة إياه بـ"الأهلي"،"العربي"،"المسلم"... وهي تسميات إثنية نابعة من إرث قرون من التعصب .

إن كثيرا من الكتابات الكولونيالية الأدبية، خاصة ما كان منها سردا، عملت على تفصيل صورة " الأهالي" بشكل استعلائي، فرسمت مظهرهم، وأخلاقهم، وأعراقهم، ونفسياتهم، وكذلك علاقاتهم، لكنها أظهرتهم كائنات خاملة، خارج مسار الحركية والتطور الذي تعرفه البشرية، لا هم لهم سوى الفراغ، واللهو، والجنس؛ مما يبيح التعامل معهم وكأنهم غنيمة من الغنائم المستولى عليها، والتصرف بهم تصرف الغالب بالمغلوب.

غير أن ذلك لا يعني أن جميع الكتابات الكولونيالية كانت على تلك الشاكلة، فالمطلع على ما كتب الأدباء الفرنسيون عن الجزائر رحلة، ورواية، ومسرحيات، وأشعارا ...لا يعدم وجود كتابات، على قلتها، أنصفت ذلك " الأهلي" المعذب في الأرض، ووقفت معه في ساعة عسرته. ولعل ذلك ما دفع بأديب السنغال ورئيسها الأسبق" ليوبولد **سينغور**" إلى إطلاق مقولته الشهيرة:

'' La colonisation a été une aventure humaine. Comme toute aventure humaine, elle a charrié de la boue et de l'or. Pourquoi ne faudrait-il prendre que la boue et ne pas retenir les pépites ? ''

"لقد كان الاستعمار مغامرة إنسانية، وككل المغامرات الإنسانية، فقد حمل معه بمجيئه الوحل والذهب. فلماذا لا نرى فيما ترك غير الوحـــــــل؟ ألا يمكن أن نرى بجانبه شذرات الذهب؟ " [1]

ما أكثر الوحل الذي خلفته تلك الأقدام التي وسمت بـ "السوداء"، لكن، ما أحوجنا إلى البحث في تلك الأوحال عن شذرات الذهب الخالص.

انطلاقا من ذلك يأتي هذا البحث الذي اخترت له عنوان" **الجزائر في أدب الرحلة الفرنسي غي دي موباسان وإيزابيل إيبرهارت نموذجا**"، والذي يحاول الإسهام في الكشف عن المدونات الاستعمارية التي تناولت الجزائر طيلة ما يقارب قرنين من الزمن، خاصة تلك التي توصف بالأدبية، أملا مني في الوقوف على الصورة التي رسمها الأدب الفرنسي للجزائر، وهل طابقت كتاباته الأدبية شعار الثورة الفرنسية الذي ادعى المدنية والإنسانية بكلماته الثلاث**" حرية، أخوة، مساواة ".**

وكان سبب اختياري للنصين الرحليين، دون سواهما من النصوص الرحلية الفرنسية التي صورت الجزائر، ما ينفردان به من خصوصية عن بقية النصوص. فبالإضافة إلى كونهما من النصوص المترجمة إلى العربية، مما يتيح المجال واسعا للقراءة والفهم والدراسة، لباحث ليس بيده لغة غير لغته، بالإضافة إلى ذلك فالنصان الرحليان لأديبين نـــالا شهرة كبيرة ؛ فالأول "**دي موباسان** " له قصب السبق في السرد والحكي، ونص رحلته عده البعض من عيون الأدب العالمي، أما الثانية " **إيزابيل إيبرهارت** " فقد نالت مكانتها في تاريخ الاستعمار الفرنسي نظير وقوفها في صف " الأهالي "، حتى بلغ بها الأمر اعتناق دينهم. شيء آخر وقف وراء هذا الاختيار، وهو وجود دافع مشترك للرحلتين، أعني به البحث عن " بوعمامة".

هذه الخصائص مجتمعة، كانت سبب اختياري لهذين النصين، ولهذا البحث الذي يحاول أن يرصد قضايا ثقافية قد لا يتعرض لها التاريخ، تتمثل أساسا في كيفية نظر المستعمر للجزائر أرضا وإنسانا .

([1]) ترجمة صاحب البحث.

ولمتابعة هذا البحث، مهدت دراستي المتواضعة هـــذه بمدخل مقتضب تنـــــاول صورة العرب " المسلمين " في كتابات الغرب عموما والفرنسيين خصوصا، ومن ثم كتابات الفرنسيين الأدبية عن الجزائر طيلة القرن التاسع عشر، تركيزا على الأعلام منهم، مشيرا إلى بعض خصائص تلك الكتابات.

ليأتي، بعد ذلك، الفصل الأول الذي خصصته للرحلة: مفهوما لغويا، واصطلاحيا، متابعا تطور هذا الفن الأدبي عند العرب، وعند الأوروبيين، مذكرا بطائفة من أعلامها عند الفريقين، مبينا دوافعها وأهميتها.

أما الفصل الثاني، فقد خصصته لقضايا نظرية تتعلق بالصوراتية ،حيث ركزت على المصطلح مفهوما ونشأة، ولم أغفل الحديث عن كيفية تكون صورة شعب في أدب شعب آخر، وكذا ما له علاقة بالصوراتية من قبيل: الغيرية، والصورة النمطية، والغرائبية.

أما الفصلان الثالث والرابع، فهما فصلان تطبيقيان، وهما غاية البحث ومنتهاه؛ خصصتهمـــا لصورة الجزائر والجزائري في أدب الرحلة الفرنسي.

إذ أفردت الثالث لرحلة " **غي دي موباسان** " الذي وصل الجزائر في فترة التهبت فيها رمال الجنوب الوهراني حقيقة ومجـــازا ؛ بفعل الصيف الحـــار، وبفعل لهيب ثورة الشيخ " **بوعمامة** ". وتبين لي بعد الدراسة، وأرجو أن أكون على صواب، أن "موباسان"، رغم كشفه عن عيوب الاستعمار، إلا أنه لم يقل ذلك صراحة. إضافة إلى أنه كان، وهو يقدم صورا غاية في القتامة عن "العربي"، كان يقدم تلك الصور، كما يبدو لي، في تهكم وازدراء.

وكان الفصل الرابع لرحلة **" إيزابيل إيبرهارت "** إلى " القنادسة "، حيث طالعتني صور غاية في الحلم والصوفية، مما جعلني أصاب بانقباض نفسي لدى فراغي من تتبع الرحلة؛ فلم أشأ مغادرة أولئك الجزائريين في تلك البقعة المنزوية بالقرب من المغرب. لقد بدا أولئك الجزائريون، وكأنهم لا يعيشون استعمارا ولا فاقة ولا بؤسا. وهي في الحقيقة مما أعده من السلبية بمكان.

لا يدعي هذا البحث أنه وفى كل الجوانب حقها، فهو مجهودٌ مبتدئ، وعملٌ بشري، شابته، ولا شك، شوائب نقص كثيرة. سواء في ذلك ما تعلق بالخطة، أم بالمنهج الذي كان فيه تضافر مناهج من قبيل: المنهج التاريخي، والوصفي، والتحليلي.

ولو أني استقبلت من أمر البحث ما استدبرت، لكانت الخطة غير هذه، ولكان المنهج غير هذا. أما وقد انتهيت به إلى غايته، فلا يفوتني أمران: أولهما أن أشير إلى ما اعترضني من صعاب ؛ فالمراجع بالعربية نادرة، والفرنسية دونها الترجمة مما لم يتسن لي إلا لماما. أما ثاني ما أنا حريص على تسجيله، فتوجهي بالشكر لكل من مد يد العون، وساعدني على بلوغ غايتي ولو بالتشجيع، وأخص بالذكر هنا، أستاذي المشرف، الذي أفادني بتوجيهاته القيمة، وجنبني المزالق البحثية. كما لا يفوتني التنويه بكل من أمدني بالوثائق التي كانت روافد لهذا البحث. هذا دون أن أنسى جميع أعضاء هيئة التدريس بكلية الآداب واللغات بـ" جامعة عباس لغرور ـ خنشلة "

في الأخير، لا يفوتني أن أشكر، مسبقا، السادة الأساتذة الأفاضل أعضاء اللجنة الذين أرجو أن يجدوا في عملي هذا ما تحصل به الفائدة، واعدا إياهم بحرصي على الأخذ بتوجيهاتهم وملاحظاتهم. والله أسأل التوفيق، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

مدخل

يشكل القرن التاسع عشر19 قرن الرحلات بلا منازع. غير أن القرنين اللذين تلياه لا يمكن القفز عليهما؛ فالقرن السابع عشر 17 يظل ذا أهمية كبرى بالنسبة للعلاقة بين الشرق والغرب، فهو القرن الذي قنطر الهوة الفاصلة بينهما، مما أسهم في إنتاج ثقافي ضخم في الثقافة الغربية سمي " الاستشراق " .

وجاء القرن الثامن عشر 18 حـاملا معه " الرسائل الفارسية " (Lettres persanes) لـ(**Montesquieu**)، و" صديق"(Zadig) لـ (Voltaire)، وقبلهما دخلت " ألف ليلة وليلة " على يد (**Antoine Galland**) الثقافة الغربية. غير أن الشرق الذي ظهر في هذا القرن، لم يكن شرقا حقيقيا، إنه شرق " **لتصعيد الخيال الغربي عبر القرون المختلفة، ووسيلة لتفجير صورة ثابتة منمطة، والتعامل معها** " [1] .لقد كان ذلك الشرق ملجأ للكائنات الغريبة والشبحية، " **وهو صورة ثابتة خلقها المخيال الثقافي السياسي الغربي**"[2]. إنه شرق لا وجود له إلا في الخيال الغربي.

ثم جاء القرن التاسع عشر 19 الذي عده البعض قرن اختبار المخزون التصوري عن الشرق، وذلك عن طريق الرحلة الفعلية إلى الشرق. ذلك القرن الذي سيطرت في بدايته الكتابات الرومانتيكية عن الشرق الذي لم يهبط على الغرب عن طريقها مثل إلهام مفاجئ، لقد كان الشرق قبلهم معروفا للغرب، غير أنهم أضافوا معرفة جديدة جمعت بين الاكتشاف والتخييل .

إن ذلك الشرق العربي غير الشرق الأفريقي والشرق الآسيوي، فالأخيران مسالمان، لا يشكلان أي تهديد للغرب، أما الشرق المسلم فهو القريب جغرافيا، وهو المصادم حضاريا منذ قرون عديدة، لذلك كانت الكتابات الأدبية التي حاولت اكتشاف هذا الشرق القريب متلونة بتلك العنصرية النابعة من موروثها المسيحي، حتى صرنا نقرأ فيها (الكتابات الأدبية) " **صلفا عنصريا واضحا في الرحلات المكتوبة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، لأن هذين القرنين هما قرنا التصادم الثقافي والحضاري بامتياز. هما قرنا الزحف الكولونيالي**

---

(1)جوردا بيير: **الرحلة إلى الشرق**، ترجمة وتحقيق: مي عبد الكريم، وعلي بدر، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2000، ص 12

(2) نفسه، ص 12

على الشرق " [1]. هذا بالنسبة إلى العالم العربي الإسلامي بشكل عام، أما بالنسبة للجزائر التي هي جزء مهم من هذا الشرق فالأمر يحتاج وقفة مفصلة.

فإلى غاية 1830، لم تكن صورة الجزائر في الأدب الفرنسي حاضرة إلا بقدر ضئيل جدا، فباستثناء ما يعرف بـ " أدب الأسر والإنقاذ " (littérature de captifs et de rachats)، الذي كان يتحدث عن يوميات أسرى القرصنة الممارسة من قبل البحارة الجزائريين، باستثناء ذلك اللون من الأدب، لم تكن الجزائر حاضرة في أدب الفرنسيين .

لكن، ومع بداية الغزو الفرنسي، تحولت أقلام الأدباء الفرنسيين، وفلاسفتهم، وفنانيهم إلى تلك البلاد من الشرق والتي ظلت بالنسبة لهم في زاوية مظلمة. وكانت البداية بالعسكريين الذين دونوا مراسلاتهم، ويومياتهم، وهم يقودون حملاتهم العسكرية في شتى أنحاء الجزائر ؛ مما سلط بعض الضوء على هذه البلاد، وبدأ الفرنسيون يكتشفونها شيئا فشيئا .

أما والأمر قد بدأ يستتب للفرنسيين، والكثيرون منهم قد تحولوا إلى الجزائر، إما للسياحة أو للإقامة الدائمة، أما والأمر قد صار إلى تلك الحال ؛ فالكتابات أصبحت كثيرة، إما في شكل نصوص رحلية، أو قصص قصيرة وروايات، أو مسرحيات ... وأصبحت الصورة التي تقدمها هذه الكتابات عن الجزائر، **" صورة تعكس قبل كل شيء استيهامات المحتل وإرادة القوة ونزعة القتل وروح الإبادة. عمد المستعمر إلى رسم صورة فولكلورية ومقيتة عن الجزائري بصفته إنسانا بدائيا متوحشا تحكمه الغرائز والنزوات والذهنية الأسطورية، إنها صورة تعكس قبل كل شيء رغبات المحتل الدفينة ومكبوتاته العنصرية"** [2] .

ظهرت، في هذه الفترة، أعمال أدبية كثيرة لأدباء مشاهير، منها على سبيل المثال (Voyage pittoresque en Algérie) للكاتب (Théophile Gautier) سنة 1845، وكذلك (Un été dans le Sahara) و(Une année dans le Sahel) للكاتب والرسام (Fromentin) ...وغير هؤلاء كثير.

([1]) جوردا بيير، ص 13

(1) بودربالة الطيب: **صورة الجزائر في الرواية الفرنسية**، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، جامعة الواديع 2 ـ 3 مارس 2010، ص 08

ومن الجدير بالملاحظة، أن جل هذه الكتابات قد سيطر عليها المنظور الإثنوغرافي، فاحتفت أساسا بما هو خارجي من مظاهر الثقافة: كالمسكن، والملبس، والأشغال اليومية، وكذا الرقص والموسيقى، والعادات، وسائر الطقوس .

هذه النظرة من الكتاب الفرنسيين **" حنطت الإنسان الجزائري وأفرغته من ديناميكيته وفاعليته وإنسانيته وكينونته التاريخية، بحيث لا نلمس فرقا بينه وبين الأحجار والأشجار والحيوانات. توحي هذه الصورة بأننا أمام جماعة بشرية بدائية معزولة في الزمان والمكان ومرشحة للانقراض لتدخل متحف التاريخ** " [1]. ولعل ما ساعد بروز هذا النوع من الكتابات، مــا كان عليه الجزائري حينها من انطواء وانزواء، مخفيا خصوصياته رغبة منه في الحفاظ عليها ؛ مما أوهم المستعمر بأن هذه " الكائنات " آيلة إلى الانقراض، على غرار ما حدث لهنود أمريكا .

تزامنت هذه الكتابات مع قدوم بعض الفنانين الرومانسيين، رسامين وكتابا، حملوا معهم رغبتهم في الهروب من العالم الصناعي المتوحش، وراحوا يبحثون في هذه البلاد: صحرائها، وواحاتها، وسهولها، ومدنها العريقة ... راحوا يبحثون في كل ذلك عن عجائبية " ألف ليلة وليلة " ؛ مما صرف أنظارهم وأقلامهم عن معاناة هذا " المتوحش الطيب "، وأصبحت كتاباتهم لا هم لها سوى الوصف على حساب السرد الذي ربمــا، لو اعتمد، لتنبه إلى حقيقة وواقع هذا " الأهلي ".

لكن، ومع قرب نهاية القرن 19، تراجع المد الرومانسي، مفسحا المجال للواقعية، التي مثلها في الجزائر من وافدي فرنسا ثلاثة من كبار أدبائها: " فلوبير " (Gustave Flauber) الذي قدم إلى الجزائر، ورغم أنه لم يقض في رحلته إليها سوى مدة قصيرة، فإنه دون مشاهداته حول الجزائر ضمن كتابه " ملاحظات "، كما تجدر الإشارة هنا إلى أن زيارته إلى تونس كانت وراء روايته الشهيرة (Salammbô).

هـذا، دون نسيان الرواية الشهيرة (Tartarin de Tarascon) سنة 1872 للكاتب (Alphonse Daudet) الـــــذي ضمن كتــابيه الشهيرين: (Lettres de mon moulin) و(Contes du lundi) قصصا استوحاها من خلال إقامته بنواحي " مليانة "،

---

(1) بودربالة الطيب، مرجع سابق، ص8

بل إن بعضا من هذه القصص المنشورة في " رسائل طاحونتي " تحمل هذه العناوين: " في مليانة " (A Milianah)، و" الجراد " (Les sauterelles)، أما القصة الثالثة " موسوم 15 أوت " التي ترجمها أحمد منور بعنوان " وسام الآغا " (Un décoré du 15 Aout)، فهي منشورة ضمن مجموعته القصصية (حكايات الاثنين). **"عمـــــد الكاتب إلى الإطاحة بالقيم الرومـــــــانسية ومقدساتها وأساطيرها التي روجت في الجزائر كما تناول الموضوعات الاستشراقية بكثير من السخرية. وبفضل روحه النقدية اللاذعة تمكن من فضح المنطلقات والمرتكزات التي تقوم عليها الإيديولوجيا الاستعمارية "** [1]

ثم جاءت رحلة " غي دو موباسان " تلميذ " فلوبير " إلى الجزائر، التي حاول من خلالها أن يفهم ما يدور في رؤوس أولئك العرب على حد تعبير " فلوبير " :" **بوسعنا أن نتخيل الصحراء والأهرامات وأبا الهول قبل رؤيتها، غير أن ما ليس بوسعنا تصوره هو ما يدور في رأس حلاق تركي جالس على عتبة باب بيته** " [2]. ترى هل سيتمكن " دي موباسان " من معرفة ما يدور في هذه الرؤوس العربية المعممة ؟؟ ذلك ما ستحاول ورقات هذا البحث الإجابة عنه.

بعد رحلة " دي موباسان "، وبالضبط بعد حوالي 20 سنة، كانت هناك رحالة أخرى تجوب الآفاق الجزائرية، متنقلة بين عنابة، قسنطينة، باتنة، الوادي، الجزائر، عين الصفراء، بشار، القنادسة ... بحثا عن السكينة الروحية وسط الزوايا، وبين مريدي الطرق الصوفية، واصفة ما ترى وما تسمع.

العامل المشترك بين هاتين الرحلتين موضوع البحث، هو المكان والزمان، أما المكان فالجنوب الوهراني، ولو أن الرحلة الموباسانية كانت لمناطق أخرى غير الجنوب الوهراني، أما الفترة الزمنية فهي مرتبطة بثورة الشيخ " بوعمامة " التي كانت بدايتها بوصول " موباسان " إلى الجزائر ،وكانت نهايتها، تقريبا، بوصول " إيزابيل إيبرهارت " إلى زاوية " القنادسة " .

إن إبراز صورة الجزائر أرضا وإنسانا، في هاتين الرحلتين، هو موضوع البحث .

---

(1) بودربالة الطيب، مرجع سابق، ص 10

(2) دي موباسان غي: **رحلة إلى الجزائر إلى بلاد الشمس**، تر: نادية عمر صبري،، ورد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2007، ص 9

الفصل الأول

في الرحلة

مـــا في المقــامِ لذي عقـــــلٍ وذي أدبِ

مِـــنْ رَاحَة ٍ فَــــدعِ الأَوْطَـــانَ واغْتَرِبِ

ســـــافر تجد عوضـــــــــاً عمَّن تفارقهُ

وَانْصَبْ، فَـــإنَّ لَذِيذَ الْعَيْشِ فِي النَّصَبِ

الإمام الشافعي

للاقتراب من مفهوم الرحلة، يجب العودة إلى نخبة من المعاجم العربية، قصد حصر أصول المعاني الواردة، وهي خطوة ضرورية للوصول إلى كيفية انتقال الكلمة من دلالتها اللغوية إلى الدلالة الاصطلاحية.

1ـ مفهوم الرحلة لغة واصطلاحا:

1.1ـ المفهوم اللغوي للرحلة:

تستعمل اللغة العربية لفظتين للتعبير عن مفهوم الرحلة وهما: الرحلة، والسفر. ورغم الفروق اللغوية الكائنة بينهما إلا أنهما تؤديان الدلالة نفسها، مع بعض الفروق الناتجة من اختلاف اللفظ.

فقد ذكرت أغلب المعاجم اللغوية أن **الرحلة** تعني: حركة انتقال الشخص أو الأشخاص من مكان إلى مكان آخر، وهذا هو المعنى اللغوي للكلمة.

ففي معجم مقاييس اللغة لابن فارس (ت 1004م) **"رحل: الراء والحاء واللام أصل واحد يدل على مُضي في سفر. يقال: رحل يرحل رحلة .[...] والرحلة: الارتحال [...]. ورَحَّله، إذا أَظْعَنَه من مكانه"** [1]

وعند ابن منظور(ت1311م): **"رحل الرجل؛ إذا سار، ورجل رَحول، وقوم رُحّل؛ أي يرتحلون كثيرا. ورجل رحَّال: عالم بذلك ومجيد له... والترحل والارتحال: الانتقال . والرّحلة: اسم للارتحال. وقال بعضهم: الرِّحلة: الارتحال، والرُّحلة بالضم: الوجه الذي تأخذ فيه وتريده"** .[2]

وفي القاموس المحيط للفيروز آبادي(ت 1414م): **" ارتحل البعير: سار ومضى، والقوم عن المكان: انتقلوا، والاسم: الرِّحلة والرُّحلة بالضم والكسر: الارتحال، وبالضم: الوجه الذي تقصد، والسفرة الواحدة"**. [3]

([1]) ابن فارس: **مقاييس اللغة** ، تح :عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ط؟، 1987، ج2 ،ص 497.

([2])ابن منظور: **لسان العرب،** دار صادر بيروت، ط1، 2000، م 6، مادة: ر ح ل، ص 121 ،122،123

([3])الفيروز آبادي: **القاموس المحيط،** مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 8، 2005، ص

أما في المعجم الوسيط: " **رحل عن المكان :سار ومضى... والمصدر رحل، ورحيل، وترحال، ورحلة ... والرحـــــال (بضم الراء وفتح الحاء المشددة): الذين لا يستقرون في مكـــان ...والرحالة: الكثير الرحلة...والرحلة: كتاب يصف فيه الرحالة ما رأى** " (1)

والملاحظة التي لا يمكن إغفالها أن هناك علاقة وطيدة بين الرحلة التي تعني السير والمضي والتنقل من جهة، والراحلة التي تعني بالخصوص البعير والناقة، لما هنالك من علاقة بين السفر والمطية التي كانت ـ أساسا ـ بالنسبة للعربي هي البعير والناقة.

أما اللفظة الأخرى **السفر**، فهي تعود للجذر اللغوي (س.ف.ر) الذي تورده المعاجم السابقة.

ففي مقاييس اللغة: " **السين، والفاء، والراء أصل واحد يدل على الانكشاف والجلاء. ومن ذلك السفر، سمي بذلك لأن الناس ينكشفون عن أماكنهم** " (2)

أما في اللسان :" **السفر: قطع المسافة ...وسمي السفر سفرا لأنه يسفر عن وجوه المسافرين وأخلاقهم، فيظهر ما كان خافيا منها** " (3)

وفي القاموس المحيط:" **سافر إلى بلد كذا سفارا ومسافرة: مضى ... وسافر فلان: مات**" (4)

وجاء في المعجم الوسيط:" **سفر الرجل: خرج للارتحال... وسافر: خرج للارتحال... والسافر: المسافر.. وسافر: مات** " (5)

بالعودة إلى ما أوردته المعاجم المختلفة حول **(السفر)** نجد أن المعنى لا يخرج عن الارتحال، والانكشاف، والموت. والعلاقة بين كل ذلك تبدو مترابطة، فالسفر فرصة للكشف والسفور، والسفر مضي إلى عالم وارتحال عن آخر . فهذه المادة اللغوية إذن تسبح في فلك الانتقال والظعن والمسير والضرب في الأرض والانتشار، مما قد يكشف عن تعاظم نشاط

---

(1) **المعجم الوسيط** ، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة ط 4، 2004، ص 334 .335 .

(2) ابن فارس: **مقاييس اللغة**، ج3، ص 82

(3) ابن منظور: **لسان العرب**، م 7، مادة: س ف ر، ص 195، 196، 197

(4) الفيروز آبادي: **القاموس المحيط**، ص 408

(5) **المعجم الوسيط** ، ص 432 . 433

السفر والارتحال عند العرب. ذلك بأن الوحدات اللغوية والمعجمية في حقل معين غالباً ما تصحبها زيادة في السيرورة والتداول . " فالأمم تشتق من الوحدات اللغوية عادة على قدر ما تستهلك".

هذا ما أمكن الوقوف عليه من خلال نخبة من المعاجم العربية، أما في اللغات الأجنبية فاللفظة المقابلة للرحلة والسفر هي(voyage) في اللغة الفرنسية، والأمر يستدعي الوقوف عند التطور الدلالي للكلمة، وذلك ما تشير إليه بعض الدراسات، لكن قبل متابعة التطور الدلالي، فإنه يتوجب الاستنجاد بالقواميس .

ففي قاموس **la rousse** نجد أن أصل الكلمة اللاتيني(***viaticum***) يعني: زاد الطريق **(provisions de route)**. يورد هـذا القاموس مختلف المعاني التي تدل عليها الكلمة، وهي جميعها لا تخرج عن معنى الرحلة والسفر، أي التنقل.

" Action de voyager, de se rendre ou d'être transporté en un autre lieu ; trajet ainsi fait: Le voyage se fera par bateau. Action de se rendre dans un lieu relativement lointain ou étranger "(1)

لم يستقر مدلول الكلمة على المعنى الذي يؤديه حاليا إلا بعد تطورات دلالية استمرت قرونا، ومبعث ذلك ما حصل من تطور في الحياة الاجتماعية، الثقافية والاقتصادية، وهذا ما يحيل إليه حمدي عبد العظيم عبد المقصود:

"Dans la langue française, le terme « voyage» provient du latin *viaticum.* Au début, il s'agit de «viatique» qui est « employé dans l'acceptation de "cheminement" au VIe siècle par Venantius Fortunatus,[et] désigne tout d'abord l'argent prévu pour l'accomplissement du voyage ». Puis, le sens de ce terme « s'est déplacé des "provisions" au chemin à parcourir», et finalement, il signifie "tourisme" au XIX^{e} siècle" (2)

---

(1) **la rousse,** dictionnaire encyclopédique illustré **,** librairie la rousse, Paris, 1997

(2) HAMDI ABDELAZIM ABDELMAKSOUD ABDELKADER, **L'ÉGYPTE DANS *VOYAGE EN ORIENT* DE GÉRARD DE NERVAL ET LA FRANCE DANS *L'OR DE PARIS* DE RIFÀ'A AL TAHTÂWÎ,** thèses de doctorat, UNIVERSITÉ DU QUÉBEC À MONTRÉAL, avril 2008, p22

" يبدو من خلال التعريف السابق أن اللفظة الدالة على السفر (**voyage**) في أصلها اللاتيني دلت في البداية على زاد الطريق، ثم كان لها مدلول ديني ارتبط بالمال الذي يوفره المسافر لإنجاز الرحلة، ثم أصبحت دالة على الطريق التي سيسلكها المسافر، لتنتهي في القرن التاسع عشر إلى الدلالة على السياحة." [1]

وقد كانت وسيلة السفر الأوروبية عاملا حاسما في تطور مدلول الكلمة الدالة على السفر والرحلة، فقد انتقلت من (voyage) حينما كانت الوسيلة مطية تسلك بها الطريق، ثم صارت (périple) حينما أصبح ظهر السفينة وسيلة السفر، ولما امتدت الأسفار شرقا وغربا لكل العالم صارت الرحلة (grand tour) [2]. ويمكن التفريق بين مدلول الرحلة في الفرنسية عن مقابله في العربية من خلال ما يلي :

" En somme, on constate que la signification du terme « voyage» est différente dans les langues française et arabe: en français, le sens du voyage est lié au cheminement, à la route à parcourir, au pèlerinage, à l'expédition militaire, aux grandes découvertes et finalement au tourisme tandis qu'en arabe le premier terme, *safar*, est lié au dévoilement des connaissances et à l'acquisition des expériences; autrement dit à des objectifs scientifiques; quant au second terme, *rihla*, il signifie au départ le fait d'effectuer un voyage à dos de chameau pour des objectifs commerciaux et religieux." [3]

" يمكن، إجمالا، أن نلاحظ أن دلالة (الرحلة) لغويا في الفرنسية يختلف عن مقابله بالعربية: فقد ارتبط معنى الرحلة، في اللغة الفرنسية، بالمسار، وبالطريق التي سيسلكها الرحالة، وبالحج(طبعا لدى المسيحيين إلى الفاتيكان أو القدس)، ثم ارتبط معنى الرحلة بالحملات العسكرية، والاكتشافات (الجغرافية) الكبرى، وأخيرا ارتبط بالسياحة. أما بالنسبة للغة العربية، فاللفظة الأولى (سفر) ارتبطت بالكشف عن المعارف، واكتساب التجارب،

([1]) ترجمة صاحب البحث

([2]) المرجع السابق، ص 23

([3]) نفسه، ص 26

بمعنى آخر: لغايات علمية. أما اللفظة الأخرى (الرحلة) فدلت في البداية على فعل (الترحل) على ظهر الراحلة (الجمل) لغايات تجارية ودينية (الحج)." [1]

2.1. المفهوم الاصطلاحي للرحلة:

" الرحلة مصطلح أدبي وجغرافي، يقصد به غالباً ذلك المنتوج الفني الذي يروم التنظير لأدبيات السفر والمسير، ذلك الخطاب الذي يتبع نشاط الرحالة وهو يجوب البلاد ويقطع المسافات إما عبرة واستبصاراً، أو حجاً واعتماراً، وربما نزهة واستطلاعاً، أو طلباً للمعارف والعلوم، أو سعياً لاكتساب التجارة والعروض، وذلك ما يسمى أدب الرحلات. " [2]

إن معاجم اللغة تجمع على أن الرحلة هي انتقال من مكان إلى آخر. وبهذا المعنى يكون معظم البشر، قديما وحديثا، قد أنجزوا رحلات ورحلات لا تعد ولا تحصى، لأن الحركة والتنقل من مقتضيات الحياة، وطبيعة البشر، ولأن "**الثواء هو الثوى**" [3] .إلا أننا لا نعرف أي شيء عن كل تلك الرحلات، لأنه ليس كل من ارتحل قد دوّن رحلته.

وهذا المعنى الأول ـ أي الذي وضحته المعاجم اللغوية، والذي انتهى إلى أن الرحلة هي التنقل ـ هذا المعنى لا يهمنا إلا بالقدر الذي يتأسس عليه المعنى الثاني، وهو أن الرحلة كتابة يحكي فيها الرحالة أحداث سفره وما شاهده وعاشه من أحداث، مازجا ذلك بانطباعاته الذاتية حول المرتحل إليهم.

وإنجاز الرحلة بالمعنى الثاني يتطلب –عكس الأول– أن يكون الرحالة ذا مستوى ثقافي معين يؤهله لنقل أحداث سفره إلى كتابة.

" إن التفريق بين المستويين ضروري لتحديد مجال الاهتمام والبحث، فالرحلة بالمعنى الأول؛ أي بما هي انتقال في المكان، لا تهمنا رغم أن القائمين بها كثر. بينما الرحلة بالمعنى الثاني؛ أي بما هي كتابة وخطاب، هي التي تهم الباحثين، ويشتغلون بها.

([1]) ترجمة صاحب البحث

([2]) حاتمي، محمد: في الخطاب الرحلي www.aljabriabed.net

([3]) البيت لابن دارج القسطلي (958م ـ1030م) : ألم تعلمي أن الثواء هو الثوى وأن بيوت العاجزين قبور؟

ولا ينبغي أن يتبادر إلى الذهن، ونحن نفرق بين المعنيين، أن لا علاقة بينهما، بل إن بينهما علاقة، لأن كتابة الرحلة تستلزم القيام بسفر، ولا يمكن تصور كتابة رحلية دون رحلة إلا في الرحلات الخيالية، كـ"رسالة الغفران" لأبي العلاء المعري، و"رسالة التوابع والزوابع" لابن شهيد، و"التوهم" للحارث المحاسبي." [1]

لا يوجد تعريف حاسم للرحلة، وإنما هي مجموعة من التعاريف المتعددة والمختلفة. وهو أمر يرجع إلى كون القواميس العربية لم تخصص لهذا المفهوم حيزا في صفحاتها، ولم تعتبره مفهوما ينهض إلى جانب المفاهيم الأخرى الدارجة في حقل الأدب والمعرفة عموما.

وكل ما يمكن الوقوف عليه إشارات ونعوت اهتمت بالوظيفة والغاية من الرحلة مغيبة المفهوم في ذاته، فحتى المعاجم شبه المتخصصة اكتفت بتعريف أدب الرحلات بشكل عام. لذلك فلا غرابة أن تتعدد الأسماء والمقصود واحد: الرحلة، وأدب الرحلة، والأدب الجغرافي، والجغرافيا الوصفية .

ومما يلاحظ لمتتبع الدراسات التي تناولت أدب الرحلات ـ خاصة الدراسات العربية القديمة ـ أن معظمها لم يعر إشكالية التجنيس والتصنيف أهمية كبرى، فهي لم تحدد بدقة الخصائص التي تتميز بها الرحلة كخطاب أدبي عن بقية الخطابات، فتكتفي ـ في مجملها ـ بعرض المضامين الأدبية، وغير الأدبية للرحلة، وتذكر أشهر أعلامها، وذلك ما نجده عند شوقي ضيف، وعثمان موافي، ومحمد حسين فهيم، وجورج غريب، وفؤاد قنديل...لذلك التصقت تسميات الرحلة بشوائب أخرى كالأدب الجغرافي، والأدب السياحي ...

أما الدراسات الحديثة فقد ركزت على أدبية الرحلة، كما فعل عبد الرحيم مودن في مؤلفه (أدبية الرحلة)، وإسماعيل زردومي في دراسته (فن الرحلة في الأدب المغربي القديم)، حيث فرق تفريقا واضحا بين التسميات العديدة التي تَسمى بها أدب الرحلة، واعتبر كل مصطلح منها يستقل لوحده، وأفرد لهذه الإشكالية متسعا من بحثه، فأشار إلى أن أدب الرحلة غير الأدب الجغرافي، وغير الجغرافيا الوصفية [2]

---

(1) حاتمي، محمد: المرجع السابق.

(2) ينظر: زردومي إسماعيل: **فن الرحلة في الأدب المغربي القديم**، مخطوط أطروحة دكتوراه، جامعة الحاج لخضر، باتنة 2005/2004

ومثل أي جنس أدبي آخر، سيكون من الصعب تعريف الرحلة، بسبب تعدد مضامينها وأساليبها، وتداخلها مع خطابات أخرى، فهي أشبه ما تكون بفناء بيت تنفتح عليه غرف عديدة: من أدب، وجغرافيا، وتاريخ، وسيرة ذاتية، ورسائل، وحكايات، وشعر...

هذه الصعوبة جعلت عديد المعاجم المتخصصة في المصطلحات الأدبية تحجم عن تعريفها، وتكتفي ـ في كثير منها ـ بالإشارة المقتضبة.

فمعجم المتقن للمصطلحات اللغوية والأدبية الحديثة لسمير حجازي، والذي يحوي أكثر من 1000 مصطلح لغوي وأدبي حديث، لا نجد فيه أية إشارة إلى هذا المصطلح.

و شوقي ضيف، بدوره، لا يقدم تعريفا واضحا، بل كل ما قام به إنما هو اعتبار هذا النوع الأدبي ردا على الذين يتهمون الأدب العربي بأنه لم يعرف القصة بمفهومـــها الفني، فيقول: **" لا نبالغ إذا قلنا إن الرحلات من أهم فنون الأدب العربي، لسبب بسيط، وهو أنها(أي الرحلات) خير رد على التهمة التي طالما اتهم بها هذا الأدب، ونقصد تهمة قصوره في فن القصة."** [1]

و هذا معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب يقدم تعريفا لأدب الرحلة (travel literature) بأنه:**" مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، ولتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية الي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته... أو يجمع بين كل هذا في آن واحد... ويعتبر مصدرا هاما للدراسات المقارنة ... كما أن علماء الأدب المقارن اعتبروه قسما من أقسام هذا الأدب "** [2]

أما قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية: عربي-إنكليزي- فرنسي، فيقدم هـــذا التعريف: **" أدب الرحلات هو نوع أدبي يقوم على وصف الأديب لما شاهده في رحلاته، من عمران، وأحداث، وأشخاص، وعادات، وتقاليد، وغيرها"** [3]

([1]) : ـ ضيف شوقي **الرحلات**، دار المعارف، القاهرة، ط 4 ،د ت، ص6

(2)ـ وهبة مجدي وكامل المهندس: **معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب**، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984، ص 17

(3) يعقوب إيميل: **المصطلحات اللغوية والأدبية: عربي-إنكليزي-فرنسي**،، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة 1، 1997، ص. 25.

وكذلك " المعجم الأدبي"الذي يسهب في الحديث عن مكانة هذا اللون الأدبي بين فنون الأدب دون أن يقدم تعريفا كافيا، فيكتفي بأن يورد ما يلي: **" نزلت الرحلة في الأدب الحديث منزلة رفيعة، وأصبحت فنا من الفنون الشائعة في معظم بلدان العالم... يقتضي التأليف فيها ثقافة واسعة، ودقة في الملاحظة، والتقاط الملامح المعبرة، ومشاركة في عدد كبير من المعارف... إن الإثارة في الرحلة متأتية من الوصف الطريف للواقع، والسرد الفني للمغامرة... ونابعة أيضا من أنواع الشخصيات التي توردها... "** (1)

أما معجم " المصطلحات الأدبية المعاصرة"، فيبين أن أدب الرحلات: **" هو أدب يدخل في درس الصورولوجية، أي دراسة صورة شعب لدى شعب آخر... ويتتبع عادات وتقاليد وتأثيرات إقليمية..."** (2)

ربما كان هذا التعريف أحسنها جميعا، وأدقهـــا، وأشملها، يقول إسمــاعيل زردومي: **" الرحلة مادة حكائية قائمة على السفر والانتقال تجري في زمن مسجل بدقة، تحكى كأحداث وقعت في أمكنة متعددة، وفي زمن مضى "** (3)

أما بالنسبة للغات الأجنبية ـ وأقصد الأوروبية ـ فالمصطلح لا يكاد يبعد معناه عن نظيره في اللغة العربية:

"Un récit de voyage, ou relation de voyage, est un genre littéraire dans lequel l'auteur rend compte d'un ou des voyages, des peuples rencontrés, des émotions ressenties, des choses vues et entendues. Contrairement au roman, le récit de voyage privilégie le réel à la fiction. Pour mériter le titre de « récit » et avoir rang de littérature, la narration doit être structurée et aller au-delà de la simple énumération des dates et des lieux (comme un journal intime ou un livre de bord d'un navire). Cette littérature doit rendre compte d'impressions, d'aventures, de l'exploration ou de la conquête de pays lointains."(4)

---

(1) عبد النور جبور: **المعجم الأدبي**، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1984، ص 122

(2)علوش سعيد: **معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1985، 1، ص98

(3) زردومي إسماعيل: **تقنيات السرد في رحلة فيض العباب**، دراسة، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة بسكرة، العدد 8، جوان 2005، ص:2

(4)www. wikipedia.org

يشير التعريف السابق إلى أن " هذا النوع الأدبي يقدم فيه المؤلف عرضا عن رحلة أو رحلات قام بها، وعن شعوب صادفها، وأشياء رآها وسمعها. وهو على نقيض الرواية، يفضل الواقع على الخيال. وحتى يستحق صفة قصة، ويصنف ضمن الأدب، لا بد على أدب الرحلة أن يمتلك بنية، متجاوزا مجرد سرد التواريخ والأماكن(مثلما نجد في اليوميات)... وعلى هذا النوع الأدبي أن يقدم عرضا للانطباعات، والمغامرات، وغزو البلدان البعيدة واستكشافها".[1]

بعد استعراض هذه التعاريف، يمكن تلخيصها في تعريف يحاول الإمساك بالمصطلح وهو أن: الرحلة خطاب ينشئه الرحالة، يحكي فيه أحداث سفر عاشها، واصفا الأماكن التي زارها، والأشخاص الذين لقيهم، وما جرى معهم من حديث، لغاية إمتاع القارئ وإفادته.

2.1ـ نظرة على تاريخ الرحلة:

1.2.1: تاريخ الرحلة عند العرب:

يعد الترحل عند العرب منذ القدم سلوكا وعادة فرضتها الصحراء وإكراهاتها، والشاعر العربي ـ باعتباره اللسان الناطق باسم القبيلة ـ صور الرحلة ومراحلها، وأولاها العناية الفائقة. غير أن العربي لم يتجاوز حدود صحرائه إلا نادرا، حيث كانت للعرب اتصالات بالشعوب التي على أطراف الصحراء قصد التبادل التجاري يقول الله تعالى: ﴿ **لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿1﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿2﴾** ﴾ قريش، 21 . لكن وبمجيء الإسلام أصبح ذلك البدوي الباحث عن الكلأ والماء ذا مهمة جديدة سامية دعا إليها الدين الجديد، الذي دعا إلى السير في ملكوت الله. والكثير من آيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول (ص) تحث، بل وتوجب الترحل والتنقل، يقول الله تعالى: ﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿11﴾** ﴾ الأنعام ، 11. وهذه الدعوة إلى السير في الأرض تكررت في عديد السور، وهي، وإن كان يفهم منها حين نزولها أنها تدعو إلى اكتشاف مجاهل الأرض قصد القدرة على نشر الرسالة، والسير بها في جنبات الأرض، فإنها لا تزال قائمة، داعية للسفر

---

[1] ترجمة صاحب البحث

والترحل والاكتشاف، لكنها الرحلة الواعية، والسفر الذي يقف على الحقائق، ويستلهم العبر. وما أكثر ما تكون الرحلة ملجأ ومهربا لمن خاف الأذية، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿97﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿98﴾﴾ النساء، 97 -98

أما في السنة النبوية، فإن الرحلة كانت ملاذ المسلمين الأول، إلى بلاد الأحباش، ثم إلى المدينة المنورة. وفي أحاديث الرسول (ص) دعوات كثيرة إلى الرحلة والسفر، فعن عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله (ص): **" من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع"**. رواه الترمذي.

إن هذه المبادئ شجعت على الرحلة والسفر، وأعدت لها البيئة الصالحة، فخرج المسلم حاجا أو معتمرا، وفي طريق رحلته، التي قد تستغرق أشهرا أو أعواما، رأى وسمع ما لم يعهده في بلده، وعند قومه. وخرج غازيا فمر بأقاليم كثيرة ولاقى الأهوال، وترك بلاده طالبا للعلم ... وفي كل ذلك كان يرتحل، روى بعض ما رأى، وربما دونه وأودعه الأسفار .

تطورت الرحلة العربية، بتطور حياة العربي، التي رفعها الإسلام، من البحث عن الكلأ وبيع التمر، إلى استكشاف مجاهل آسيا حتى جزائر الهند، وأدغال أفريقيا، وجبال أوروبا، بل والمضي في لجج البحار والمحيطات.

وابتداء من القرن التاسع الميلادي، وبسبب اتساع رقعة الدولة الإسلامية، نشطت حركة التنقل للاتجار، والحج، والفتح(الغزو)، والاستكشاف، فظهر رحالة عديدون رووا ما عاشوا من أحداث أثناء رحلهم، لكن لم يصلنا من رحلاتهم تلك عدا ما سجلته كتب الأدب .

والحديث عن تطور فن الرحلة لدى العرب سيتشعب ويطول إن حاولنا الإلمام بكل أعلامه لأنهم بالعشرات، إن لم يكونوا بالمئات، فلقد أحصى فؤاد قنديل في مؤلفه(أدب الرحلة في التراث العربي) ما يزيد عن ثلاثين رحالة بين القرنين الثالث والثامن الهجريين، وقدم لكل منهم ترجمة وافية، وما دام المقام لا يتسع لهذه الكثرة فسنحاول التركيز على أشهرهم، وهم الذين لا يجهلهم إلا قلة من الناس. وحتى تكون هنالك صورة متكاملة، واضحة، سنختار من

كل قرن من القرون التي ازدهر فيها فن الرحلة أشهرهم. مما يعني أننا سنكون أمام خمسة أو أكثر، من أشهر رحالة العرب.

1. **سلام الترجمان** (ت842م): وسمي الترجمــان لأنه ـ كما تروي الكتب ـ كان يعرف ثلاثين لسانا، وهو من الأعلام الذين تفوق عليهم عملهم فاشتهر العمل، وخمل ذكر صاحبه. فالكتب والمراجع ـ حتى شبكة الأنترنت ـ التي عــدت إليها لم تمدني بشيء حــول حياة الرجل. يقول عنه فؤاد قنديل: " اشتهر بين أهل سر من رأى(سامراء) بإجادته التحدث بعديد من اللغات، حتى سمي الترجمان، ولا نعرف شيئا عن أخباره، ولم يرد له ذكر في أي من معاجم الأعلام.. " [1].

أما رحلته فهي من الغرابة بمكان، حتى إن بعض الدارسين قد شكك في صحتها، وعدها ضربا من الأساطير، بينما رأى كثيرون أنها رحلة حقيقية، بل من المعاصرين، من حاول أن يستدل على صحة الرحلة مستعينا بمهارة الجغرافيين. وملخص الرحلة: أن أحد ملوك العرب (الخليفة العباسي الواثق باللّه) (ت 722م) رأى في المنام حلماً تراءى له فيه أن السد الذي بناه ذو القرنين ليحول دون تسرب يأجوج ومأجوج قد انفتح، فـأفـزعه ذلك، فكلف سلام الترجمان بالقيام برحلة، ليستكشف له مكان سد ذي القرنين . وتروى الرحلة في كتاب (المسالك والممالك) لابن خرداذبه (912م) وفي كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) للإدريسي (ت 1161م) وفي كتب أخرى كثيرة. والرحلة وصف، أو بالأحرى عرض حال للمهمة التي كلف بها الرحالة من قبل الخليفة، لكن المنقول إلينا عنها لم يكن للترجمان، بل لابن خرداذبه، الذي يستهل الحديث عنها بقوله: " **حدثني سلام الترجمان،قال: إن الواثق لما رأى في المنام أن السد الذي سده ذو القرنين قد انفتح وجهني فقال: عاينه وائتني بخبره** " [2] يقول ابن خرداذبه مذكرا أن الرحلة أمليت عليه: " **فحدثني سلام الترجمان بجملة هذا الخبر، ثم أملاه علي من كتاب كان كتبه للواثق بالله** " [3]

---

[1] قنديل فؤاد: **أدب الرحلة في التراث العربي** ، ص 91، الدار العربية للكتاب، القاهرة ،ط 2، 2002

[2] قنديل فؤاد: **أدب الرحلة في التراث العربي** ، ص 93

[3] نفسه، ص 96

2. **ابن فضلان** (ت921 م): هو أحمد بن العباس بن راشد بن حماد البغدادي، عالم إسلامي من القرن العاشر الميلادي. ورسالته التي تصف هذه الرحلة هي عرض حال قدمه الرحالة للخليفة المسلم المقتدر بالله، الذي أمر بخـــروج بعثة إلى بلاد الصقالبة (بلغار الفولجا) [1] استجابة لدعوة ملكهم الذي أسلم، ورغب في من يعلمه الإسلام ويساعده في بناء مسجد ...

احتلت هذه الرحلة التي تصف بلاد البلغار، والترك، والسلاف، والخزر* مكانة مرموقة بين رحلات العرب، وحظي ابن فضلان بكبير الاحترام لدى الدارسين، خاصة الروس، بسبب ما تحويه من معلومات إثنولوجية عن الشعوب الموصوفة وتاريخ ملوكهم، وتؤكد الرحلة " **موهبته القصصية، وتكشف براعة قلمه، وحسن بيانه، وسلامة أسلوبه، ودقته في التعبير والوصف، وحرصه على نقل مشاعره ...وهو ما يجعل منها نموذجا رائدا ورائعا من نماذج الكتابة في أدب الرحلات** " [2] .

تكمن قيمة هذه الرحلة " **ليس فقط في معلوماتها ووصفها الدقيق، إنما في سردها التحليلي للسمات الإثنوجرافية، والأنثروبولوجية ... كما أنها لا تخلو من قيمة أدبية فنية، حيث تتدفق العبارات، وتنثال الجمل في سهولة ويسر، دون ثرثرة أو تكلف ... واستطاع ابن فضلان أن يخلف لنا صياغة جديدة محكمة لكل ما حصل عليه من معلومات، وأن يبلور هذا الكم في نص مترابط أشبه ما يكون بقصة متماسكة مهما تعددت فصولها وأحداثها** " [3]

لم يتوقف تأثير الرحلة على من عاصر ابن فضلان، أو جاء بعده، بل امتد تأثيرها حتى قرننا هذا، وتحديدا في عالم السينما

" l'écrivain américain de science-fiction, scénariste et producteur de films, John Michael Crichton, né en 1942 à Chicago, s'est inspiré de

---

([1]) الفولجا Volga، منطقة من المناطق الفدرالية المشكلة لروسيا، تقع في الجنوب الشرقي لروسيا الأوروبية

* الخزر: شعوب تتارية قديمة استقرت في منطقة الفولغا ، وبحر قزوين ظهرت في شمال القوقاز

([2]) المرجع السابق ص 164

([3]) نفسه، ص 165

ce récit d'Ibn Fadlân, pour écrire son roman *Eaters ofthe Dead*, adapté au cinéma sous le nom *The 13th Warrior*." [1]

امتد تأثير الرحلة إلى عالم السينما في الغرب، مما حدا بكاتب الخيال العلمي، والسيناريست، والمنتج جون ميتشل كريشتون(John Michael Crichton) إلى التأثر بالرحلة التي استوحى منها روايته أكلة الموتى(*Eaters of the Dead*)، والتي اقتبست سنة 1999 فيلما رائعا بعنوان المحارب الثالث عشر(*The 13th Warrior*)، حيث قام بدور ابن فضلان الممثل الشهير (Antonio Banderas).

3. **ابن جبير** (1154م - 1229م): أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني المعروف باسم ابن جبير الأندلسي ولد في بلنسية (فالنسيا*Valencia*) بالأندلس .

جغرافي، رحالة، كاتب وشاعر أندلسي عربي. صاحب كتاب (**تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار**)، المعروف ب(رحلة ابن جبير). والكتاب وصف للرحلات الثلاث التي كانت للبقاع المقدسة، مرورا بالبحر المتوسط، ومصر، ثم بالبقاع المقدسة، فالعراق، وبلاد الشام، عودة إلى الأندلس. صحيح أن الرحلة كانت للبقاع المقدسة، لكن دافعا آخر كان وراءها، وهو الرغبة في تقصي أخبار صلاح الدين الأيوبي، الذي توالت انتصاراته على الصليبيين في تلك الفترة .

أما كتابته الرحلية فهي عبارة عن يوميات سفر. عني فيها **" بالنواحي الدينية، متمثلة في مناسك الحج وكيفية أدائها، كما عني فيها بالمظاهر الجغرافية، وأجناس الناس، وأشغالهم، وصناعاتهم، وزراعاتهم ... كما لم يغفل تصوير العلاقات التجارية بين المسلمين والمسيحيين في إبان الحروب الصليبية ... ويلفت نظرنا (في كتاباته) عنايته بالمدارس والمارستانات(المستشفيات)"** [2]

---

(1)HAMDI ABDELAZIM ABDELMAKSOUD ABDELKADER,op.cit,p30

(2) كردي إبراهيم علي، **الرحل في بلاد المغرب والأندلس**، مكتبة الأسد، دمشق ،د ط، 2013، ص 34

تميزت كتاباته " **باللغة البسيطة السهلة التي لا ثرثرة في عباراتها، ولا استطراد أو تكرار. سرده محبب إلى النفوس، يتسم بجمال التركيب وحلاوة البيان** " [1]، كما تميزت كتاباته " **بدقة الملاحظة، وسهولة العبارة ... لا يلتفت إلى الصنعة إلا نادرا** " [2]

4. **ابن بطوطة** (1304م ـ 1375م): محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي، المعروف بابن بَطُّوطَة. رحالة، ومؤرخ، وقاض، وفقيه مغربي، لقب بأمير الرحالين المسلمين.أما لقب (ابن بطوطة) فلم أجد مرجعا يشير إلى سبب إطلاقه.

يعد ـ على الإطلاق ـ أشهر رحالة العرب، حتى إنه إذا ذكرت الرحلة تبادر إلى الأذهان اسمه قبل غيره، إن لم يكن دون غيره. طاف في رحلته ـ التي استغرقت قرابة 29 عاما ـ معظم البلاد المسكونة المعروفة آنذاك، عدا بعض بلدان أوروبا .

أما عن رحلته، فهي في الحقيقة ثلاث رحلات، أشهرها رحلته الأولى التي أودع تفاصيلها كتابه المشهور (**تُحفة النُّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**) هذه الرحلة العجيبة الغريبة هي التي استغرقت كل تلك السنوات، وما يزيد عن 100.000 كيلومتر [3] . بدأت الرحلة من طنجة بالمغرب سنة 1324م وكان خط سيرها كما يلي: شمال أفريقيا ـ مصر ـ الشام ـ مكة (للحج) ـ العراق ـ إيران ـ مكة (للحج) ـ اليمن ـ الصومال ـ عمان ـ مكة (للحج) ـ مصر ـ الشام ـ العراق ـ القسطنطينية ـ بلاد البلغار ـ القرم (Crimée) ـ خوارزم ـ بخارى ـ أفغانستان ـ الهند ـ المالديف ـ سيلان (سريلانكا) ـ البنغال ـ جاوه ـ سومطرة ـ الصين (كآخر نقطة). أما العودة فأخذت خط السير: سومطرة ـ عمان ـ بغداد ـ الشام ـ مصر ـ مكة (للحج) ـ مصر ـ الجزائر ـ فاس .

يصف الكتاب ـ الذي لم يكتبه ابن بطوطة، إنما أملاه على كاتب السلطان أبي عنان المريني المدعو ابن جزي الكلبي ـ يصف الكتاب رحلة ابن بطوطة، ويتحدث عن الشعوب،

---

(1) قنديل فؤاد: **أدب الرحلة في التراث العربي** ، ص 398

(2) المرجع السابق، ص 34

(3) ينظر :كردي إبراهيم علي، **الرحل في بلاد المغرب والأندلس**، الفصل المتعلق بابن بطوطة

وحكامها وعلمائها، ويصف الألبسة بألوانها وأشكالها وحيويتها ودلالتها، ولا ينسى الأطعمة وأنواعها وطريقة صناعتها [1]

أما الرحلة الثانية فكانت لبلاد الأندلس، وكانت الثالثة نحو الجنوب: النيجر، السودان، ثم أسوان (جنوب مصر)، ثم العودة إلى فاس. ولا يذكر أن هاتين الرحلتين نالتا أي حظ من التدوين، مثلما نالته أولاهما.

" ورحلة ابن بطوطة أقرب ما تكون إلى المذكرات التي دون فيها كل ما مر به من أحداث وأحوال، واهتم صاحبها بالجانب السياحي والجغرافي، ولم يغفل ذكر العلماء الذين صادفهم في طريقه، ومجالس العلم التي كان يحضرها ". [2]

تحّقق لابن بطوطة في رحلته الجانب السياحي، والروحي والعلمي، وكان يولي اهتمامه بالجانب العجائبي، والاجتماعي، فكان شديد الاهتمام بالنَّاس وعاداتهم وتقاليدهم ولاسيما العلماء والأولياء، في حين كان قليل الاهتمام بوصف المدن والأرض.

أما عن أسلوبها (وليس أسلوب ابن بطوطة، فهو لم يكتب، إنما أملى على الكاتب)، فقد كان عموماً حريصاً على تأدية المعاني، فابتعد عن الاعتناء بزخرفة الأسلوب وتنميقه على حساب الفكرة، إلا أنه كان يلجأ أحياناً إلى تحسين الكلام باختيار عباراته، وتزيينها ببعض الأسجاع التي تأتيه عفو الخاطر دون قصد. وكثيرا ما كان يستعمل الألفاظ الأعجمية، من تركية وفارسية وهندية، ثم يترجمها إلى العربية .

أشار المستشرق كراتشوفسكي(Ignati Kratchkovski) * إلى أن ابن بطوطة يعد آخر جغرافي عالمي من الناحية العملية، قطع رحلاته في 175000 ميل، وهو منافس الرحالة الإيطالي ماركو بولو، بل ربما تفوق عليه. ومن عجائب الصدف أن تاريخ بدء رحلة ابن بطوطة هو نفسه تاريخ وفاة ماركو بولو(1324م)

([1]) ويكيبيديا ، ابن بطوطة

([2]) كردي إبراهيم علي، **الرحل في بلاد المغرب والأندلس**، ص 68

* **إغناطيوس كراتشوفسكي** (Ignati Kratchkovski): **مستشرق روسي (1883 ـ1951)**

5. **حسن الوزان** (حوالي 1490م ـ بعد 1550م): الحسن بن محمد الوزان والمشهور بليون الأفريقي أو يوحنا ليون الأفريقي (Jean-Léon l'Africain)، هذا المغربي ذي الأصول الزناتية، المنحدر من غرناطة بعد سقوطها، يصبح واحدا من مشاهير الرحالة الأوروبيين. ذلك أنه وقع أسير بحارة صقليين سنة 1518، بعد عودته من الحج. أخذ إلى البابا ليون العاشر، فسر به وتبناه، وعمده. لكنه ـ كما يبدو ـ أعلن التمسح وأسر الإسلام. تعلم الإيطالية واللاتينية، وهناك في إيطاليا وبلغتها وضع كتابه "وصف أفريقيا"(Cosmographia de Affrica).

" هذا الكتاب (وصف أفريقيا) هو القسم الثالث والوحيد المتبقي من كتاب ضخم باللغة العربية، ترجمه الحسن الوزان نفسه إلى اللغة الإيطالية، أو اعتمد عليه في إنشاء وصف أفريقيا بالإيطالية إنشاء، وقد قسمه الوزان إلى تسعة أقسام، في القسم الأول تدقيقات تتعلق بجغرافية أفريقيا العامة، ومناخها، وخصائص شعوبها، وأخلاقهم، وقد جزأ فيها أفريقيا تجزيئاً عمودياً باعتبار مميزاتها النباتية والاقتصادية أربعة أجزاء، أما الأقسام السبعة التالية من كتاب وصف أفريقيا، فقد تناول بالتفصيل الأجزاء الأربعة الأصلية لإفريقيا وأقاليمها الفرعية، ليعود في القسم التاسع إلى ذكر الظواهر الجغرافية العامة لإفريقيا، مبيناً أنهارها وحيوانها ونباتها." [1]

يعد الوزان رحالة عربيا، وغربيا في آن معا، غير أن شهرته كانت في أوروبا، ولم يعرف لدى العرب إلا في منتصف القرن 20، بعد أن عرف به المستشرقون، ومن ثم ترجم كتابه إلى العربية. وقد استلهم أمين معلوف من هذا الكتاب سيرة ذاتية للوزان وضعها في كتابه المعروف (ليون الأفريقي).

وبانتهاء القرن 16 م داهمت العالم الإسلامي مرحلة أدخلت ذلك المد والإشعاع في مفازة؛ مما جعل كل شيء يخبو، فقلت الرحلة، أو قل من يكتب فيها. وسننتظر قرنين ليظهر كتاب رحل اشتهروا ـ رغم قلتهم ـ فكان منهم ناصر الداري(1646م ـ 1717م) صاحب الرحلة

(1) الوزان حسن: **وصف أفريقيا**، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1983،2،ج1،ص 14

الناصرية، والورثلاني (1713م ـ 1780م)[1]، صاحب " **نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار**" الذي وصف رحلته في شمال أفريقيا في طريقه إلى الحجاز .

وقد اشتهر في تلك الفترة لون من الرحلات عرف بالرحلة الحجازية، حيث يصف الرحالة ما صادفه في طريقه إلى البقاع المقدسة، ذهابا وإيابا، وهو لون من الرحلة اشتهر أكثر لدى المغاربة.

وباتصال المسلمين بالغرب، حين بداية ما سمي النهضة الإسلامية، اتجهت أنظار من ضاق به المكان، وأزمع السفر إلى بلاد الجن والملائكة. فشدت الرحال إلى حواضر أوروبا وكثرت الرحل، وزادت في كَمِّها وتنوَّعت في كَيْفها أكثر من رحلات القدماء. " **وقد أورد لنا محقِّقُ أقوم المسالك قائمةً برحلات المشارقة والمغاربة خلال القرن التاسع عشر الميلادي، فكان ما ذكره من رحلات أهل المشرق إلى الغرب: رحلة رفاعة الطهطاوي سنة 1834 (تخليص الإبريز إلى تلخيص باريز)، رحلة أحمد فارس الشدياق إلى باريس سنة 1855 (الساق على الساق في ماهو الفارياق)، رحلة أحمد فارس الشدياق سنة 1863 (كشف المخبَّا عن فنون أوروبا ـ الواسطة في أحوال مالطة)، رحلة سليم بطرس سنة 1856 (النزهة الشهيَّة في الرحلة السليميَّة) فرنسيس مراش 1867 (رحلة إلى أوروبا) لويس صابونجى 1874 (الرحلة النحليَّة) نخلة صالح 1876 (الكنز المخبَّا للسياحة في أوروبا) محمد شريف سالم 1888 (رحلة إلى أوروبا) دمتري خيلاط 1891 (سفر السفر إلى معرض الحضر) حسن توفيق 1891 (رسائل البشرى في السياحة بألمانيا وسويسرا) أمين فكرى 1892 (إرشاد الألبَّا إلى محاسن أوروبا) أحمد زكى 1893 (السفر إلى المؤتمر) أحمد زكى 1900 (الدنيا في باريس) على أبو الفتوح 1900 (سياحة مصري في أوروبا)**" [2].

والخلاصة، أن الرحالة المسلمين كانت لهم الشجاعة، وحب المغامرة لركوب المخاطر والأهوال، ضاربين في أقاصي الدنيا وأدانيها، ليس لغرض العبـادة فحسب، بل لأغراض أخرى: ديبلوماسية، معرفية، سياحية ...فتعرفوا على الشعوب البعيدة جدا، وتنوعت رحلهم

---

[1] تشير بعض المراجع منها ويكيبيديا إلى أن وفاته كانت سنة 1153م، وهو غير صحيح

[2] حليفي شعيب: الرحلة في الأدب العربي، منتديات ياهو مكتوب Maktoob.forums.yahoo.com

إلى حد جعل منها موسوعات لا تضاهى، يقول بلاشير Regis blachère)[1] 1900 - 1973):

"Un voyageur arabe pour le Moyen Âge, était à la fois cosmographe, géographe, minéralogiste, botaniste, zoologiste, annaliste, historien des mœurs, historien des religions, économiste, parfois même juriste, théologien ou philosophe" [2]

" لقد كان الرحالة العربي، في فترة القرون الوسطى، في آن واحد فلكيا، جغرافيا، عالم معادن، وعالم نبات، وعالم حيوانات، مؤرخا متخصصا في الأديان، اقتصاديا، وأحيانا فقيها وقاضيا، وعالم دين، وفيلسوفا." [3]

2.2.1. تاريخ الرحلة عند الأوروبيين :

ليست هنالك شواهد كثيرة على معـرفة الأوروبيين في تاريخهم القديم لهذا اللون من الأدب، أي أدب الرحلة، عدا ما ورد في كتابات بعض كتاب الإغريق وشعرائهم، ونعني بذلك الشاعر الإغريقي **هوميروس** (Homère)، صاحب الملحمتين الشهيرتين. غير أن **هيرودوت**(Hérodote)، الذي لقب أبا التاريخ، يعد في ذلك استثناء. فقد حرص في كتابه "التواريخ " (Histoires)على تقديم معلومات وافية عن كثير من شعوب ضفاف المتوسط ،وذلك من خلال رحلاته الكثيرة، وقراءاته المتعددة كما سجل أخبارا مفصلة عن الحروب الفارسية اليونانية في عصره.

وظل هذا اللون الأدبي المعرفي خاملا في أوروبا حتى جاءت فترة القرون الوسطى، حيث قام بعض الرحالة الأوروبيين برحلات لأغراض اقتصادية بحتة، أو لأغراض دينية (تمثلت في الحج إلى الفاتيكان، أو إلى القدس). أو كانوا جنودا في جيوش الغزو .

---

(1) Regis Blachère: مستشرق فرنسي، اشتهر باطلاعه الواسع على لغة وآداب العرب، وتاريخهم.

(2)HAMDI ABDELAZIM ABDELMAKSOUD ABDELKADER,op.cit.p34

(3) ترجمة صاحب البحث

ولعل أشهر من يتبادر إلى الذهن الرحالة الإيطالي **ماركو بولو**(Marco Polo 1254م ـ 1324م)، هذا الشاب، ابن مدينة البندقية، سليل عائلة غنية احترفت التجارة، قام ـ رفقة والده، وعمه ـ برحلتين إلى الصين، عبر ما أصبح يعرف بطريق الحرير .

كانت الرحلة لأغراض نفعية تجارية بحتة، استغرقت زهاء 25 عاما، حيث تنقل في آسيا، قبل أن يودع مشاهداته كتابه الشهير " كتاب العجائب " *(Le Livre des merveilles)* الذي قدم فيه وصفا حقيقيا عن العالم الذي شاهده، إذ كانت المعرفة بالآخر قبل ذلك في أكثرها جاءت عن طريق السماع، أو الخيال، **" فقد أعد الأسقف إيزيدور** [1] **(560م ـ 636م) موسوعة عن المعرفة أشار فيها إلى بعض الشعوب المجاورة وعاداتها، لكن بطريقة سطحية ومتحيزة؛ فقد زعم، مثلا، أن قرب الشعوب أو بعدها عن أوروبا هو الذي يحدد درجة تقدمها"** [2] .لقد ظهر كتاب ماركو بولو ذاك، وحمل إلى أوروبا أول توثيق عن بلدان آسيا وشعوبها، وكان ذا تأثير كبير على المفاهيم الجغرافية، والإثنولوجية، خلال القرون الوسطى، لغاية عصر النهضة.

اتخذت الرحلة الثانية التي قام بها ماركو بولو إلى الصين انطلاقا من البندقية المسار التالي :

الذهاب: البندقية ـ عكا (بفلسطين) ـ طرابزون (بتركيا) ـ بغداد ـ إربيل (بالعراق) ـ هرمز (مضيق هرمز بالخليج الفارسي / العربي) ـ بلخ (بأفغانستان) ـ كاشغر (تركستان الشرقية المعروفة بشينجيانغ الصينية) ـ لانزهو(بالصين) ـ بيكين ـ شانغدو (بالصين) ـ باغان (بورما).

الإياب: باغان (بورما) ـ شانغدو (بالصين) ـ بيكين ـ هانغشو (بالصين) ـ ثم ركوب البحر، عبر بحر الصين، مرورا بخليج البنغال، فبحر العرب، هرمز ـ إربيل ـ طرابزون ـ القسطنطينية ـ البندقية.

---

[1] إيزيدور الإشبيلي **Isidore de Séville رجل دين ومؤرخ إسباني عد في ذلك الوقت أعلم أهل زمانه.**

[2] محمد فهيم حسين: **أدب الرحلات**، عالم المعرفة، الكويت، 1989، ص 20

علاوة على هذه الرحلة التي طبقت شهرتها الآفاق، كانت هناك رحلات كثيرة للمبشرين المسيحيين صوب روما والقدس، مخاطرين بحياتهم رغم الصعاب التي يلاقون، من طول الرحلة، وغوائل السفر، وصعوبة التضاريس ...

ويشير بعض الدارسين إلى أن الرحلة لم تكن معروفة في فرنسا خلال هذه الفترة من الزمن، أي القرون الوسطى ،عدا تلك الرحلات الدينية، حتى حدث ذلك الانقلاب الثقافي المعرفي، والاجتماعي الذي حصل إبان النهضة ؛ مما حدا بالأوروبيين عامة إلى الرغبة في الترحال، والسفر، لاكتشاف العالم الذي يحيط بهم. وهذا ما حصل فعلا سنة 1492 باكتشاف العالم الجديد (أمريكا).

وبنهاية القرن الـ15م، وبداية القرن الـ16 م، حدث تطـور كبير في الرحـلات الاستكشافية، وذلك بفضل ما توافر من معارف جغرافية عن السواحل الأفريقية، وعن رأس الرجاء الصالح، وبرزت في ذلك أسماء كثيرة: فاسكو دا غاما (1469م ـ1526م *Vasco da Gama*)، فرناندو ماجلان(Fernão de Magalhães 1480م ـ1521م)، كريستوف كولومب(Christophorus Columbus 1451م ـ 1506م) ...

إن هذا التطور الهائل في الرحلة الأوروبية كانت وراءه دوافع اقتصادية، ودوافع معرفية جعلت الرحالة في كثير من الأحيان يعتمد على نفسه في تمويل الرحلة التي قد تستهلك كل ثروته.

وخلال القرنين 17 و18 م تطورت الاتصالات الدبلوماسية بين أوروبا وبلدان أفريقيا وأمريكا وآسيا، مما زاد في تحفيز العلاقات الاقتصادية والعلمية بين هذه القارات. وهذا ما جعل الأوروبيين يكثفون من رحلاتهم خاصة إلى مصر وسوريا والهند...وهنا تجدر الإشارة إلى أن أوروبا قد عرفت خلال ما عرف بعصر الأنوار [1] (Siècle des Lumières) ذروة وقمة البعثات العلمية الكبرى .

"À cette époque, les voyageurs européens, qui sont des géographes, des botanistes, des mathématiciens et des ethnographes, effectuent des périples

---

([1]) **عصر الأنوار أو عصر التنوير مصطلح يشير إلى التطور العقلاني الحاصل خلال ق 18**

lointains. Ils ont pour objectif de compléter les infonnations recueillies sur le monde. Leurs périples ont un aspect scientifique "[1]

"في تلك الفترة قام الرحـالة الأوروبيون ـ الذين هم جغرافيون، وعلماء نبات، ورياضيون، وإثنوغرافيون ـ برحلات إلى البلدان القصية، لغرض استكمال وتطوير المعارف المتحصل عليها. لقد كانت رحلات هؤلاء ذات طابع علمي، ويمكن التمثيل بعدد لا يستهان به من هؤلاء الرحالة العلماء." [2]

أنطوان فرانسوا بريفو(Antoine François Prévost 1697 – 1763): روائي، مؤرخ، صحفي، ومترجم، ورجل دين فرنسي .صاحب كتاب " التاريخ العام للرحلات" (*Histoire générale des voyages*) .

جيمس كوك أو القبطان كوك (James Cook 1728م – 1779م): ملاح ومستكشف إنجليزي، قام بثلاث رحلات استكشافية في المحيط الهادي، ووصل حتى سواحل ألاسكا شمال أمريكا، ووضع كتابه الرحلي " رحلة نحو القطب " (*Le voyage vers le pôle*) .

لوي أنطوان دو بوغنْڤيل (**Louis-Antoine de Bougainville** 1729م -1811م): ملاح، ومستكشف فرنسي، طاف حول العالم، ووضع على إثر تلك الرحلة كتابه " رحلة حول العالم " (*Voyage autour du monde*)، ذلك الكتاب الذي لاقى نجاحا كبيرا .

أثناء تلك الفترة، شاع في فرنسا لون من الرحلة، هو الرحلة إلى الشرق ؛ فقد قام مجموعة من الرحالة الفرنسيين برحلات عديدة إلى الشرق، واكتسبوا بذلك صفة " الرحالة المستشرقون". قام هؤلاء برحلات إلى الشرق الأوسط، وتحديدا إلى مصر وبلاد الشام. ويمكن ذكر بعضهم أمثال :

كلود إتيان سافاري (Claude-Étienne Savary 1750 ـ 1788): مستشرق فرنسي، تخصص في علم المصريات (l'égyptologie)، له كتاب " رسائل عن مصر " (*Lettres sur l'Égypte*).

([1])HAMDI ABDELAZIM ABDELMAKSOUD ABDELKADER,op.cit .p 38

([2]) ترجمة صاحب البحث.

كونستنتان فرانسوا دو فولني (Constantin-François de Volney 1757 ـ 1820): فيلسوف، مؤرخ، ورحالة، ومستشرق فرنسي .زار المشرق، وكتب عن رحلاته كتابه " رحلة إلى مصر وسوريا " (*Voyage en Égypte et en Syrie*) الذي وصف فيه أحوال البلاد والعباد في كل من مصر وسوريا.

وبالرغم من كون الرحلة مشيا، أو على ظهر الحيوان، أكثر فائدة ؛ لأنها تمكننا من الاندماج الكلي مع العوالم المحيطة بنا، رغم ذلك فإن الرحلة خلال القرن الـ19 عرفت تطورا واتساعا، بفضل قوة البخار، فاكتشفت مجاهل لم يكن الإنسان يعتقد بوجودها، وأصبح في مقدرو أي كان أن يسافر أنى شاء، لأن السفر غدا أسهل وآمن.

كثرت الرحلات نحو المشرق العربي، خاصة نحو مصر الأهرامات، وشام القدس، وألقى الشرق بتعاويذه على الفنان الأوروبي؛ فسحره. إنه شرق " ألف ليلة وليلة"، شرق الصحراء وأسرارها، شرق الأنبياء ؛ مشت عليه أقدامهم، وعاشوا على رماله، وفي جباله حياتهم، وأدوا فيه رسالاتهم. رحل الأوروبي ـ إذن ـ إلى الشرق وأهله بحثا عن تلك الغرائبية، وعن ذلك العالم الآخر الذي سحرهم، وهربا من عالم يجرفه توحش الآلة، ولغرض ديني هو ببساطة الحج إلى تلك البقاع المقدسة عند المسيحيين، إنه الشرق التوراتي، والشرق الإنجيلي.

وبتنامي الأبحاث الأثرية (الأركيولوجية)، كانت هناك أكثر من 200 رحلة مدونة عن الشرق وشعوبه . ويمكن التمثيل لهذه الرحلات بذكر بعض روادها :

فرانسوا روني دو شاتوبريان(François-René de Chateaubriand 1768– 1848): الذي قام برحلة إلى القدس بين سنتي 1805 ـ 1806، والتي أسماها *(Itinéraire de Paris à Jérusalem)*.هذه الرحلة كان لها كبير التأثير على الرحلات التي جاءت بعدها.

ألفونس دو لامارتين (Alphonse de *Lamartine* 1790 –1869): الذي بدأ رحلته نحو الشرق سنة 1833، حيث زار القدس، وكتب " رحلة إلى الشرق " (*V*oyage en Orient).

جيرار دو نرفال (Gérard de Nerval 1808 – 1854): زار الشرق بين سنتي 1842-1843 ووضع كتابا يصف فيه رحلته التي قادته إلى الشرق " رحلة إلى الشرق " (voyage en orient)، فبعد حديثه عن سويسرا وألمانيا، واليونان، يأتي الأهم في هذه

الرحلة، وهو: نساء القاهرة ("Les Femmes du Caire")، الدروز والمارونيون ("Druses et Maronites")، ليالي رمضان ("Les Nuits du Ramazan") [1]

غوستاف فلوبير (Gustave Flaubert 1821 –1880): الذي شد الرحال إلى الشرق بين سنتي 1849 - 1850، وكتب " رسائل من الشرق " (lettres d'orient)، وروايته المشهورة " صالامبو" (Salammbô) مستوحاة من رحلة له إلى شمال أفريقيا .

في البداية كانت الرحلة إلى الشرق حلم الجميع، يقول فكتور هيجو (Victor Hugo):

" On s'occupe aujourd'hui beaucoup plus de l'Orient qu'on ne l'a jamais fait. Les études orientales n'ont jamais été poussées si avant. Au siècle de Louis XIV on était Helléniste, maintenant on est orientaliste " [2]

" صرنا نهتم اليوم - يقول هيجو - أكثر بالشرق، بشكل لم نفعله من قبل. إن الدراسات الشرقية لم تكن بهذا الدفع فيما سبق. لقد كنا في عهد لويس 14 هيلينيين (إغريقيين)، والآن صرنا مستشرقين." [3]

يقول **إدغار كيني** (Edgar Quinet 1803 – 1875): (الذي سميت باسمه مدينة قايس بالجزائر)

L'Orient ! L'Orient. Le monde des tempêtes,

La terre aux vastes cieux, la terre des prophètes,

Sous les pas d'un seul homme, ainsi qu'un souvenir,

Au loin a tressailli. Sinaï se réveille [4]

" الشرق.. الشرق.. عالم العواصف

أرض السماوات الرحبة، أرض الأنبياء

([1]) wikipedia: **Voyage en Orient (Nerval)**

([2])Naim rachid: **L'Arabe aux yeux de l'orientalisme littéraire.**

([3]) ترجمة صاحب البحث.

([4])Naim rachid: **opt cit.**

تحت أقدام رجل واحد، فضلا عن الذكرى، تقفز بعيدا

تستيقظ سيناء." [1]

لكن، بعد أن كان الشرق حلما، أصيب الرحالة بخيبة أمل ؛ فذلك الشرق الذي كان الحلم، بقي مجرد حلم، وكذبه الواقع البائس الذي رأته العين، بعد أن رسمته المخيلة فردوسا .

فهذا لامارتين، يصف في بداية وصوله جمال القدس :

" C'était elle ! Elle se détachait en jaune sombre et mat, sur le fond bleu du firmament et sur le fond noir du mont des Oliviers. Nous arrêtâmes nos chevaux pour la contempler dans cette mystérieuse et éblouissante apparition " [2]

يقول لامارتين، واصفا وصوله الأول إلى القدس: " لقد كانت هي، واقفة في تلك الصفرة الحائلة، على خلفية زرقة سماوية، وسواد جبل الزيتون. أوقفنا خيولنا لنتملاها في هذا المنظر الساحر المبهر. " [3]

لكن فلوبير، وبعد انقشاع سكرة وغشاوة الوصول إلى القدس، ها هو ذا يعبر عن قرفه، لقد خاب أمله، وخابت خيالاته:

" Jérusalem est un charnier entouré de murailles. Tout y pourrit, les chiens morts dans les rues, les religions dans les églises. Il y a quantité de merdes et de ruines…" [4]

يصف فلوبير المدينة التي كانت جميلة في البداية ،" بأنها مقبرة محـــــاطة بالأسوار، كل شيء عفن، الكلاب مرمية في الأزقة، والأديان في الكنائس. هناك كمية من الحمـــاقة والخراب ". [5]

([1]) ترجمة صاحب البحث

([2])Naim rachid: opt cit.

([3]) ترجمة صاحب البحث

([4])Naim rachid. ibid.

([5]) ترجمة صاحب البحث

لقد حزن الرحالة الأوروبي لهذه الحال البائسة التي وجد عليها الفردوس الذي قطع لجله الفيافي. فتمنى لو كانت له القدرة لإصلاح ما فسد، أو دعا إلى تمدين هذه البلاد، داعيا القوة العسكرية إلى التدخل لحماية تلك الكنوز من أن تسرع إليها يد البلى.

لقد سكت لا مارتين الشاعر، ليفسح المجال للامارتين السياسي الذي يقول :

'' il est temps, selon moi, de lancer une colonie européenne dans ce cœur de l'Asie, de reporter la civilisation moderne aux lieux d'où la civilisation antique est sortie, et de former un empire immense de ces grands lambeaux de l'empire turc qui s'écroule sous sa propre masse et qui n'a d'héritier que le désert et la poudre des ruines sur lesquelles il s'est abîmé.'' [1]

" لقد حان الوقت، في اعتقادي، لتثبيت مستعمرة في هذا القلب من آسيا، ولجلب مدنية عصرية لهذه الأماكن التي انبثقت منها الحضارة القديمة، ولتكوين إمبراطورية كبيرة باستعمال هذه القطع الكبيرة التي تركتها الإمبراطورية التركية المتهاوية بسبب ثقلها، والتي لا وريث لها سوى الصحراء، وغبار الآثار المتحطمة" [2]. هكذا أصبح صاحب البحيرة، من شاعر تسوقه خيالات ألف ليلة وليلة، ويحدوه أمل العثور على جارية سمراء، تحول إلى سياسي حانق، ومحرض على استعمار تركة الرجل المريض.

يمكن، إذن، اختصار تطور الرحلة الأوروبية في أنها تطورت، خاصة بعد اللقاء الذي حصل بين الشرق والغرب، وصارت استشراقا، يبحث عن شرق رسمته مخيلة الأوروبي، ولما لم تجده كما أرادت، دعا الأوروبي إلى استعمار هذه البلاد، زعما منه أنها في حاجة إلى الحماية والتمدين.

3.1. دوافع الرحلة، أنواعها، وأهميتها:

1.3.1. دوافع الرحلة :

([1]) Naim rachid:opt cit

([2]) ترجمة صاحب البحث

تباينت الدراسات حول دوافع الرحلة إلى حد التداخل، رغم أن الدوافع بقيت نفسها، مع بعض الفوارق التي فرضها اختلاف الثقافات، وتباين البيئة.

ففي دراسته " فن الرحلة في الأدب المغربي القديم " [1] يبين الباحث إسماعيل زردومي أن الرحلة مبعثها دوافع مباشرة، وأخرى غير مباشرة.

فأما الدوافع المباشرة، أو الذاتية، فهي كل ما ارتبط بذات الرحالة، وميولاته. وهي لذلك إما روحية كرحلات الحجاج والمريدين، أو علمية كما في رحلات الكثير من العلماء صوب الحواضر العلمية طلبا للعلم والمعرفة، أو هي سياسية كرحلات الخلفاء، وعمال الأقاليم، وجباة الضرائب، وعاملي الزكاة، والسفراء، وقادة الجيوش وجنودهم.

أما الدوافع غير المباشرة، فهي ما ارتبط بالمنظومة الثقافية، وبالبيئة التي ينتمي إليها الرحالة. وقد توفرت في المنظومة الثقافية للمسلمين دوافع قبول الرحلة والإقبال عليها، بما فرضه الإسلام وحث عليه من عبادات تستدعي السفر، ودعوة للسير في الأرض، وتأمل الكون المحيط، والنأي بالنفس عن الظلم والبطش. وقد ساعد اتساع النطاق الجغرافي لبلاد المسلمين وتجانس البيئة الثقافية، وتوفر الأمن، وتسهيلات التنقل على الرحلة والسفر.

أما الباحث حميد عبد العظيم في دراسته

" L'ÉGYPTE DANS *VOYAGE EN ORIENT* DE GÉRARD DE NERVAL ET LA FRANCE DANS *L'OR DE PARIS* DE RIFÀ'A AL TAHTÂWÎ "

هذا الباحث وفي معرض حديثه عن دوافع الرحلة لدى الأوروبي إلى الشرق، والشرقي إلى أوروبا، خاصة خلال القرن الـ 19، أشار إلى خمسة دوافع هي: الدافع السياسي، ذلك أن الأوروبي، خاصة بعد الثورة الفرنسية، تطلع إلى السيطرة على بلاد كثيرة في القارات الأخرى، ثم هنالك الدافع الثقافي الذي ألقى بظلاله على أدباء القرن الـ 19 مدفوعين بتأثير التيار الرومانسي، ثم هنالك الدافع الشخصي كرغبة الرحالة في الترفيه عن النفس، وهنالك أيضا الدافع المعرفي، وهو رغبة الرحالة في التعلم والتعرف على الآخرين، ثم هنالك الدافع المادي التقني، ووضحه الباحث على أنه تطور وسائل المواصلات باختراع محرك البخار،

---

(1) ينظر: زردومي إسماعيل مرجع سابق

وفي اعتقادي أن هذا لا يعد باعثا بقدر ما يعد عاملا مساعدا على انتشار الرحلات والأسفار خلال القرن الـ 19.

2.3.1. أنواع الرحلة:

الرحلة أنواع، تتعدد بتعدد دوافعها، إذ يقسم الباحث لمبروك أعمر في دراسته " الفضاء المديني ودوره في التشكيل السردي " الرحلة إلى أربعة أنواع: فهنالك الرحلة السياسية، التي تدخل في إطارها الرحلة الإدارية، والأمنية(التي سميت الحركة)، والسفارية (من السفراء). وكذلك الرحلة التجارية الاقتصادية لغرض التجارة، ثم هنالك الرحلة الدينية والعلمية والتي عرفت بالرحلة الحجازية لدى المسلمين، وبرحلات حجاج الفاتيكان والقدس لدى المسيحيين. كما نجد الرحلة المغامراتية، والمقصود بها رحلات الاستطلاع [1]

أما الباحث إسماعيل زردومي [2]، فقد قدم تفسيرا آخر لأنواع الرحلة، حيث بين أنها إما واقعية، وإما خيالية من حيث ارتباطها بالواقع، أو انفصالها عنه. أما من حيث اشتمالها على عناصر فنية جمالية، فهي إما رحلات تقارير، أو رحلات جغرافية، أو رحلات أدبية .

بينما قسم حميد عبد العظيم الرحلة خمسة أنواع: رحلة استكشاف بحثا عن المجهول، لاستكشاف الطرق، والسواحل، والجزر، والأراضي الجديدة، والشعوب المجهولة. ورحلة الابتعاد والهروب(voyage *d'éloignement*) بما في ذلك الابتعاد القسري متمثلا في النفي واللجوء، أو الابتعاد الإرادي بحثا عن الهدوء والمتعة، وهربا من ضجيج الآلة وصخب حياة المدنية الحديثة. ثم هنـالك رحلة المعرفة طلبا للعلم والمعرفة. كما هنالك رحلة السياحة. ورحلة التسلية والترفيه.

3.3.1.فوائد الرحلة:

لا أحد ينكر ما للرحلة من قيمة علمية تعليمية، نظرا لما تحويه من معارف جمة في مختلف العلوم والفنون، وما أكثر المعـــارف التي لم يكن للإنسان ليطلع عليها ويضيفها

(1) ينظر أعمر لمبروك: **الفضاء المديني ودوره في التشكيل السردي، رحلة العبدري نموذجا**، رسالة ماجستير، جامعة مولود معمري تيزي وزو، الجزائر، 2013

(2) زردومي إسماعيل، مرجع سابق

إلى تراثه، لولا الرحالة وأخبارهم التي حملوها معهم، وهم يجوبون الآفاق البعيدة، ويجوبون الصحارى والقفار، ويقتحمون المجاهل، ويركبون لجة البحار والمحيطات " **لقد كان للرحالة العرب في العصور الوسطى فضل كبير قدموه للإنسانية كجغرافيين** " [1]. وإذا كان الإنسان قد اهتدى إلى نظم تعليمية متعددة، فبنى المدارس، وطور طرق التعليم ليكتسب المعارف، ويكسبها للأجيال اللاحقة، وينقل إليها تراث الإنسانية جمعاء، إذا كانت المدرسة كذلك؛ فإن الرحلة " **أكثر المدارس تثقيفا للإنسان** " [2] يقول حسين محمد فهيم .

إن الرحلة باعتبارها حركة، ومخالطة للناس، تعد مصدرا ذا قيمة كبيرة لوصف الثقافات الإنسانية، وتصوير بعض ملامح حضارة العصر الذي عاش فيه الرحالة. إضافة إلى ذلك فإنها تمكن الشعوب من التواصل والتعارف، سيما وأن سنة الله قضت أن تكون الشعوب مختلفة، متنوعة الثقافة واللغة، والسلالة والدين، ولا شيء كان ليقرب بينها، لولا تلك الرحلات بمختلف ضروبها، وتنوع دوافعها. فهل كان للأوربيين أن يعرفوا أن في أقاصي الأرض شعوبا بلغت من التمدن ما لم تبلغه أوروبا؟ وهل كان للعرب أن يعرفوا عن الخزر، وعن الهنود، وعن الملغاشيين شيئا ذا بال ؟ وهل كان للعالم أن يعرف أن في أقصى الغرب، وراء بحر الظلمات شعوبا وقارة كبرى ؟؟ أكاد أجزم أنه لولا الرحالة وأسفارهم لما كان ليحدث شيء من تلك المعرفة بالآخر المختلف.

لقد كشفت الرحلة النقاب عن الإنسان في فكره وسلوكه وتنظيمه الاجتماعي، وأحدثت اتساعا في المنظور المكاني للإنسان؛ الأمر الذي أثر في توليد نظريات حديثة عن العالم والإنسان. وباختصار، فإن الرحالة كانوا إثنوغرافيين استطاعوا تقديم وصف مفصل عن حياة الإنسان في شتى بقاع العالم.

تلك فائدة أولى للرحلة، تقف إلى جانبها فائدة أخرى، لا تقل عنها أهمية، وأعني بها القيمة الجمالية ؛ فالرحلة بما تحويه من عناصر أدبية سامية، وبالرغم من اتصافها بالتنوع في الأسلوب الذي يمزج بين السرد القصصي، والوصف، والحوار، بالرغم من كل ذلك فإن الخاصية الهامة والميزة الأساس هي ذلك السرد المشوق الذي يقدم للمتلقي (قارئا أو

---

(1) حسني حسين محمود: **أدب الرحلة عند العرب**، دار الأندلس، بيروت، ط2، 1983، ص 8

(2) فهيم حسين محمد، **أدب الرحلات**، مرجع سابق، ص 17

مستمعا)متعة ذهنية كبرى، مما جعل شوقي ضيف يعد هذه الميزة، في أدب الرحلة العربي خصوصا، خير برهان وخير رد على من أنكر معرفة العرب لفن القصة .

إن تنوع أسلوب أدب الرحلة، وغنى مادته، أثار اهتمام الدارسين، فهو علمي تارة، وشعبي تارة أخرى، واقعي حينا، وأسطوري عجيب أحيانا.

وقبل الانتقال إلى نماذج للرحلة قصد دراستها وتحليلها، فإنه من الجدير الإشارة إلى بعض المفاتيح التي تمكننا من الولوج إلى تلك النصوص الرحلية، مفاتيح لا يمكن إغفالها ؛ لأن لها علاقة وطيدة، وروابط أكيدة بالرحلة، وأعني بذلك مجموعة من المصطلحات من قبيل: الصوراتية، والاستشراق، والإكزوتيزم، والأدب الكولونيالي ... هي مصطلحات لا غنى عنها لمن يتصدى لدراسة صورة بلد وشعب في أدب الرحلة لدى شعب آخر، خصوصا إذا كانت الرحلة لمستعمر(بكسر الميم) والصورة لمستعمر (بفتح الميم). تلك المفاتيح / المفاهيم ما سيحاول المبحث التالي توضيحها، ولو بشيء من الابتسار والاقتضاب .

الفصل الثاني

الصوراتية

" إن رؤيتنا لشعب ما تشبه رؤيتنا لامرأة نحبها "

أندري مالرو

إن الحديث عن الصورة في المجال الأدبي، يحيلنا إلى ارتباطها، أي الصورة، لمدة معتبرة من الزمن بالخطاب الشعري ،إلى غاية ظهور الدراسات المتمثلة في الأدب المقارن. تلك الدراسات التي تجاوزت الاستعارات، والمجازات، بل تجاوزت الشعر، الذي ظل هو الأدب، خاصة عند العرب، لتصل أساسا إلى النصوص النثرية، وبالأخص الرواية، ومحكيات الأسفار، فظهر ما يسمى " علم دراسة الصورة ". وسوف نتجاوز في هذا المبحث كثيرا من العناصر، التي تدور في فلك " الصوراتية "، من قبيل التعريف اللغوي، وتباين التعاريف المختلفة لهذا المصطلح، وذلك للوصول إلى ما نعتقده الأهم، ونعني بذلك: مفهوم الصوراتية، وموضوعها، ومهمتها، وكل ما يمكنه أن يلقي بالضوء على هذا المصطلح الزئبقي المائع، المرتبط بالأدب المقارن.

1. مفهوم الصورة:

الصورة عند عبد المجيد حنون، تعني في مفهومها العادي :**" تمثيلا معقولا أو أمينا، لكن الذين تحدثوا عن صور الشعوب يحددون بأنهم يقصدون بذلك كل ما في الذهن حول ذلك الشعب "** [1] يشترط حنون الأمانة أو المعقولية ـ على الأقل ـ في تمثيل الآخر، ويتم التمثيل بنقل كل ما في الذهن عن المتحدث عنه.

أما دانيال هنري باجو(*Daniel-Henri Pageaux*) فيتحدث عن الصورة الأدبية قائلا: **" كل صورة تنبثق من وعي ـ ولو ضئيل ـ بأنا مقابل الآخر، وبهنا مقابل هناك، فالصورة هي ـ إذن ـ تعبير، أدبيا كان أم لا، عن تباعد معتبر من نظامي واقع ثقافي، ومن هذا المنظور، فإن الصورة الأدبية هي مجموعة من الأفكار والأحاسيس تجاه الأجنبي في إطار سيرورة ما هو أدبي واجتماعي "** [2] يرى باجو أن الصورة عن الآخر تستدعي الوعي، وهو ما عبر عنه حنون بالأمانة والمعقولية، الوعي بالأنا الناظرة مقابل الآخر المنظور إليه، والوعي ب(هنا) مقابل الـ(هناك).هذا الوعي يتم بالتعبير الأدبي أو غير الأدبي (كالسينما مثلا). الصورة باختصار، عند باجو، مجموعة أفكار وأحاسيس تجاه الآخر .

([1]) حنون عبد المجيد: **صورة الفرنسي في الرواية المغربية**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1986،ص

(1) سوف خليدة: **ترجمة الآخر أو تلقي الهوية المسترجعة**،رسالة ماجستير في الترجمة، جامعة قسنطينة 1، 2011 ،2012. ص 28.

أما نادر كاظم، فيرى " **أن الصورة تمثيل للواقع يميز بين الحقيقة، وتمثيل الحقيقة، بين ما هو جوهري في المعرفة، وما هو مجرد تمثيل لا أكثر، تمثيل يزدحم فيه الخيال بالحقيقة، ليجسد من ثم وعي الذات بالآخر أكثر مما يجسد هذا الآخر، ويصوره على هيئته في الواقع... إنه تعبير عن رغبات صاحب التمثيل، أكثر مما يعبر عن حقيقة الآخر** " [1]. إن الصورة، حسب رأي نادر كاظم، لا تصور الآخر بقدر ما تصور الأنا المصورة، وذلك ما يشير إليه باجو بقوله: " **تريد الأنا الحديث إلى الآخر لأسباب ضرورية ومعقدة غالبا، لكن في حديثها إلى الآخر تصل إلى نفيه، وتحادث نفسها** " [2] .

ويطيل محمد أنقار في تعريف الصورة فيرى أنها "**نقل لغوي لمعطيات الواقع، وهي تقليد وتشكيل وتركيب وتنظيم في وحدة، وهي هيئة وشكل ونوع وصفة، وهي ذات مظهر عقلي، ووظيفة تمثيلية. ثرية في قوالبها ثراء فنون الرسم والحفر والتصوير الشمسي، موغلة في امتدادها إيغال الرموز والصور النفسية الاجتماعية والإثنية، جمـالية في وظائفها مثلما هي سائر صور البلاغة ومحسناتها، ثم هي حسية، وقبل كل شيء هي إفراز خيالي** " [3]

يمكن مما سبق من تعريفات الوصول إلى اختصار يحاول جمعها في جملة بسيطة تبين أن الصورة تمثيل لواقع ثقافي أجنبي يكشف عبره الناظر (الأنا)عن فضائه الثقافي الذي يتموضع داخله، في الوقت الذي يحاول فيه الكشف عن ثقافة المنظور إليه (الآخر)، شرط أن يرتبط هذا التمثيل بالوعي .

الصورة، إذن، كما يضيف حنون **" تصور، والتصور لا يطابق موضوعه، بل يطابق مصدره. ولذلك فأصدق تعبير هو " تصور شعب بعينه لشعب آخر بذاته " تصور روائيين معينين لشعب آخر معين. لذلك فكلمـة " تصور " هي أدق في الدلالة على ما أردنا من كلمة " صورة " "** [4]

([1]) المرجع السابق، ص 30

(2)هنري باجو دانييل: **الأدب العام والمقارن**، تر غسان السيد، مطبوعات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1997، ص 93.

([3]) سوف خليدة: **ترجمة الآخر أو تلقي الهوية المسترجعة**، ص 32.

([4]) حنون عبد المجيد، مصدر سابق، ص 83.

2. نشأة الصوراتية :

الصوراتية، الصورية، الصورولوجيا، علم دراسة الصورة. تعددت المسميات، والمسمى واحد، والتي تعني جميعها ما يصوره الأدب في نتاجه عن الثقافات والمجتمعات في لحظة اتصالية ما.

الصوراتية، إذن، هي دراسة تمثلات الأجنبي في ثقافة ما. وتهتم بمجال مهم من مجالات الأدب المقارن ؛ وهو العلاقات الكائنة بين الكتاب والبلدان الأجنبية كما تتمثل في أعمالهم الأدبية. سماها البعض الصوراتية، وسماها آخرون الصورولوجيا نسبة إلى (L'imagologie)، وسماها بعض آخر علم دراسة الصورة.

وتعد الصوراتية من أحدث ميادين البحث في الأدب المقارن، ومن أهمها، إذ بها تعرف مكانة كل أمة لدى غيرها من الأمم، وبها ترى صورتها في مرآة آداب الشعوب الأخرى .

وتعود الإرهاصات الأولى لهـذا النوع من الدراسات إلى النصف الأول من القرن الـ 19، ويرجع الفضل في هذا المجـال إلى الأديبة الفرنسية مـدام دوستال **Madame de)** **Staël)**في كتابها(**de l'allemagne**)، ذلك الكتاب الذي حاولت فيه تصحيح الصورة المشوهة الموجودة في أذهان الفرنسيين عن الألمان وثقافتهم، فكان الكتاب طليعة وبداية لما أصبح يعرف بـ " الصورولوجيا ".

يشير هنري باجو في كتابه " الأدب العام والمقارن " [1] إلى أن دراسة الصورة بدأت مع ماري كاري (**Jean Marie Carré**) في كتابه "الكتاب الفرنسيون والسراب الألمانـي" (**Les écrivains français et le mirage allemand**)، ثم أخذها ماريو فرانسوا غويار (**M François Guyard**)، ودافع عنها في كتيبه " الأجنبي مثلما نراه "(**L'étranger tel qu'on le voit**)، غير أن روني ويليك (**René Wellek**) أبدى معارضة شديدة لهذه الدراسات التي عدها أقرب إلى التاريخ أو تاريخ الأفكار منها إلى الأدب، وبعده ندد رونـي إتيامبل (*René Étiemble*)في كتابه " المقارنة ليست صوابا " (**comparaison**

([1]) ينظر: دانييل هنري باجو: **الأدب العام والمقارن**، مرجع سابق، وكذلك سوف خليدة: مرجع سابق

n'est pas raison)، ندد بالأعمال التي عدها من صميم عمل المؤرخ وعالم الاجتماع أو رجل الدولة. ذلك ما جعل الدراسات اللاحقة تعود بالصورة ودراستها إلى حقل الأدب، بعد أن ابتعدت عنه، أو كادت.

والملاحظ في جميع هذه الدراسات أن موطنها ـ شأنها في ذلك شأن الكثير من العلوم الإنسانية ـ كان أوروبا، وتحديدا فرنسا. لكن ذلك لا يعني أنها بقيت سجينة فرنسا، بل كانت هناك دراسات في غير فرنسا منها . كما يورد حنون . كتاب " صورة اليهودي في الرواية الأمريكية المعاصرة " (le juif dans le roman américain contemporain) لصاحبته (jeanette laillou savona).

يتضح من خلال هذه النظرة الخاطفة إلى نشأة هذا اللون من الدراسات المقارنة، أنه حديث جدا مقارنة مع ألوان أخرى. فهل ذلك دليل على أن الشعوب لم تكن من قبل عن بعضها البعض صورا ؟ الجواب بالنفي طبعا، فالشعوب منذ القدم كونت لنفسها هذه الصور. والسؤال الآخر الذي يتبع هذا الأول: لماذا تكون شعوب صورا لشعوب دون أخرى ؟ يجيب الباحث حنون: **" مثلما يهتم شخص بآخر دون غيره من الأشخاص لضرورة ما، كذلك الشعوب، فهي لا تهتم إلا بالشعوب التي تجاورها أو التي تشترك معها في مسالة، أو أن يكون لها معها مصالح اقتصادية، أو تريد كسب ودها، أو تخشى بأسها "** [1] أي لا بد أن تكون هناك نسبة من الاهتمام بين شعبين ليكون أحدهما عن الآخر صورة.

3. مهام الصوراتية :

يلخص الباحث رشيد رايس هذه المهام في أن الصوراتية تفيد في دراسة الأجنبي كموضوع أساسي في مؤلف ما، وذلك ما يدخل في نطاق تاريخ الأدب. وتفيد في البحث في صورة الآخر كعلامات وإشارات تعبر عن تطور مهم للحياة الفكرية لبلد ما، وهنا تلتقي مع دراسات التلقي. وتعتبر الصوراتية مجالا مهما لدراسة تاريخ الأفكار [2] .

([1]) حنون عبد المجيد، مرجع سابق، ص 68.

(1) ينظر رشيد رايس: **صورة الجزائر في الكتابات النثرية الفرنسية خلال القرن التاسع عشر**، أطروحة دكتوراه، جامعة منتوري قسنطينة، 2003/ 2004، ص 23

4. كيف تتكون صورة شعب في أدب شعب آخر؟:

نتيجة الاهتمام المتبادل تكون الشعوب عن بعضا البعض صورا، أيا يكن ذلك الاهتمام. ويساعدها في ذلك وسائل كثيرة، منها: الرحلة، وقد رأينا في مبحث سابق كيف أن الرحالة، بعد أن يستغرقوا من المسافة والزمن الكثير، يعودون ومعهم الأخبار والمعلومات، فيصفون ذلك ويروونه، وقد يدونونه، مما يسهم في تكوين صورة عن تلك الشعب الموصوفة، والتي قد تكون بعيدة جدا، أو قريبة مجاورة. ثم هنالك القراءة والاطلاع، فما أكثر ما رسمت شعوب لأخرى صورا عن طريق القراءة عنها، دون أن تكون لها فرصة الانتقال والمعايشة لها. ثم هنالك العامل الأكبر والوسيلة المثلى في رسم صور الشعوب، وهو ما سماه حنون " وضع اليد " أي الاستعمار في شتى أشكاله ومسمياته، في هذه الحالة يكون الرائي قريبا من المرئي، بل ومجاورا له في السكن، مختلطا معه في مواقع كثيرة، مما يسهل عليه أن يعرف عنه دقائق وتفاصيل حياته، مما يجعل صورته حين رسمه واضحة دقيقة .

5. أنواع صور الشعوب عن بعضها البعض :

يقسم عبد المجيد حنون أنواع صور الشعوب عن بعضها البعض ثلاثة أقسام:

1. صورة شعب في أدب شعب: مثل صورة الجزائر في الأدب الفرنسي.
2. صورة شعب في أدب أديب من شعب آخر: مثل صورة الجزائر في أدب ألبير كامو.
3. صورة شعب في شكل أدبي معين لدى شعب آخر: مثل صورة الجزائر في أدب الرحلة الفرنسي.

ويضيف حنون أنه **" من الممكن تقسيم صور الشعوب لدى بعضها البعض حسب اتجاه عملية التأثير والتأثر "** [1]، ويبين أن هنالك ثلاثة اتجاهات لعملية التأثير والتأثر :

1. الاتجاه الأفقي :حيث تكون عملية التأثير والتأثر بين شعبين في مستوى واحد من التحضر، أو متقاربين على الأقل، مثل: صورة الشعب الفرنسي في الأدب الألمـاني، أو صورة الإنجليز في الأدب الفرنسي...
2. الاتجاه الرأسي أو النظرة الرأسية: حيث يكون الشعب الناظر في مستوى حضاري متفوق، ويكون المنظور إليه متخلفا، كصورة الشعب المستعمر (بفتح الميم)في أدب المستعمر (بكسر الميم)، مثل: صورة الجزائر في الأدب الفرنسي.

---

[1] حنون عبد المجيد، ص 69

3. الاتجاه العكسي أو النظرة العكسية: حيث يكون الناظر شعبا متخلفا، والمنظور إليه متفوقا، كصورة المستعمر (بكسر الميم) في أدب المستعمر (بفتح الميم)، مثل: صورة الفرنسي في الأدب الجزائري.

وينتمي موضوع هذا البحث (الرسالة) وفق التقسيم الأول إلى القسم الثالث، وهو صورة الجزائر في شكل أدبي معين، وهو الرحلة. أما وفق التقسيم الثاني فينتمي إلى القسم الثاني، وهو صورة المستعمر (بفتح الميم) في أدب المستعمر (بكسر الميم).

6. تباين صورة الأنا عن صورة الآخر:

تختلف صورة شعب من الشعوب عن نفسه أي في أدبه (صورة الأنا)، عن صورة الشعب نفسه في أدب شعوب أخرى (صورة الآخر)، ومرد ذلك الاختلاف والتباين يرجع أساسا إلى أن صورة الأنا تستند إلى غنى تجربة الأديب (الرائي) في المجتمع (المرئي)؛ فلقد ولد وسطه، ونشأ في كنفه، وعرف خباياه ودقائق أموره، ماضيها وحاضرها (وأهل مكة أدرى بشعابها). بخلاف صورة الآخر، البعيد، الأجنبي، تلك الصورة لا تستند غالبا على تجربة، ومعرفة، وإحاطة دقيقة. بل ربما كانت في كثير من الأحيان راجعة إلى مصادر لا تقدم الصورة الناصعة، فقد تكون نتاج رحلة، أو إقامة، وقد تكون ثمرة قراءات الأديب (الرائي)، أو سماعه.

" فقسم كبير من الأدباء الغربيين قدموا في أعمالهم صورة للشرق العربي الإسلامي دون أن تطأ أقدامهم ذلك الشرق الذي صوروه ! فالأديب الألماني غوته عرف الشرق العربي عبر كتاب" ألف ليلة وليلة"، والشعر العربي القديم (المعلقات)، والقرآن الكريم، وكتب التاريخ!" [1]

إن الصورة التي يرسمها أديب ما (الرائي) لمجتمع أجنبي(المرئي) لا تعبر عن مشكلات ذلك المجتمع وهمومه وقضاياه، ولا تنبع من التزام الأديب حيال المجتمع الأجنبي ومن رغبته في إصلاحه أو تغييره نحو الأفضل، وهي ليست وليدة توحد الأديب مع ذلك المجتمع الذي لا يرتبط به قوميا، فالصورة التي يرسمها الأديب لمجتمع أجنبي تنبع أولا وقبل كل شيء آخر من مشكلات الأديب نفسه ومشكلات قومه في مواجهة الآخر، لذلك تلبي الصورة

---

(1) حمود ماجده: **مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن**، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ،2000، ص112

الأدبية في الدرجة الأولى حاجات نفسية أو فنية أو اجتماعية للشعب الأجنبي (الأنا)، دون أن تلبي حاجات المجتمع المدروس في أغلب الأحيان(الآخر).

7. مدى صدق الصورة ومطابقتها للواقع:

يعنى بصدق الصورة أن تطابق الواقع، هذا ما يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى. لكن الحقيقة غير ذلك تماما، أولا باعتبار أن مطابقة الصورة للواقع أمر مستحيل، وضرب من العبث، لأن الصورة ثابتة بينما الواقع متغير دوما، فواقع الجزائريين في بداية الاحتلال الفرنسي ليس هو واقعهم نهاية القرن الـ 19، وهو غير واقعهم غداة الثورة ...هذا اعتبار أول، أما الاعتبار الآخر، فالأديب لا يطالب بأن ينقل الواقع كما هو، حتى تطابق صوره حقيقة الواقع.ولذلك فمن العبث البحث عن الحقيقة في صورة شعب لدى آخر، لأن تلك المهمة تخرج عن اختصاص الأديب، إنها مهمة المؤرخ، والأنثروبولوجي ... إن مهمة الأديب هي التعبير عن أحاسيسه، وتمثيله للواقع النفسي الذي انطلق منه، بشكل جميل .

يعنى بصدق الصورة الأدبية إذن صدق التعبير عن الأحاسيس، لا المطابقة للواقع الفج الذي يراه كل إنسان، دون أن يحتاج من يصوره له. بمعنى أنه لا توجد صورة أمينة حرفية، بل توجد الصورة المحرفة، لأن الحرفية تقتل الأدب، وتحيله إلى الموضوعية التي لا يتغياها. ومما يجب التنبه له أنه **" ينبغي ألا تنطلق دراسات الصورة من مبدأ البحث عن " الزيف التام " أو " الحقيقة التامة "، إن الذي يجب البحث عنه إنما هو دقة الصورة والنجاح في رسمها، وكيفية رسمها "** [1] .

8. الآخرية والصورة النمطية:

" Le terme « altérité» signifie tout ce qui s'attache à l'Autre, tout ce qui est différent du moi et qui s'oppose à l'identité.'' [2]

هكذا عرف حمدي عبد العظيم الآخرية altérité، وبين أنها تعني" كل ما تعلق بالآخر، وكل ما هو مختلف عن الـ أنا، ويضاد الهوية." [3]

([1]) حنون عبد المجيد: مرجع سابق، ص 81.

([2])HAMDI ABDELAZIM ,op.cit, p53

([3]) ترجمة صاحب النص.

جاء في موسوعة ويكيبيديا عن الغيرية:

" L'altérité est un concept philosophique forgé par le philosophe français Emmanuel Levinas. Il signifie « le caractère de ce qui est autre ou la reconnaissance de l'autre dans sa différence, aussi bien culturelle que religieuse " (1)

" الآخرية هي المفهوم الفلسفي الذي صاغه الفيلسوف الفرنسي إيمانويل ليفيناس .وهو ما يعني "شخصية ما أو بعضه "أو الاعتراف بالآخر في اختلافه، سواء الاختلاف الثقافي أو الديني. " (2)

والآخرية altérité، كما توضح مختلف القواميس اللغوية الفرنسية، مصطلح غربي محض، يعود للكلمة اللاتينية ALTERITAS من ALTER التي تعني AUTRE أي آخر.

في معرض حديثه عن الآخرية، يبين رشيد رايس أن هذا المصطلح، المرتبط أساسا بالأنثروبولوجيا والإثنولوجيا، له أهمية وحضور كبيران في الصوراتية، كون صورة الآخر يحددها اكتشاف الآخرية ؛ ذلك **" أن تمثيل الآخر هو قبل كل شيء إنتاج وتحديد للهوية حسب بارط "** (3) .

إن كل مجموعة بشرية تكون دائما بحاجة إلى الآخر كي تعرف نفسها. والغرب كمجموعة بشرية، تبدو متجانسة إلى حد بعيد لما لها من مشارب متقاربة، الغرب، ومنذ اليونانيين، اعتبروا أنفسهم المركز، وغيرهم الهامش. وكان الآخر، ولا يزال، دونهم شأنا، فهو في البداية كان الطبيعة، ثم أصبح يعني العالم الذي تجب معرفته للسيطرة عليه. ذلك ما يوضحه الجابري حين يبين، في معرض حديثه عن الـ /أنا والـ /آخر في الفكر الأوروبي، مفهوم الغيرية في فكر الغربيين، يقول: **" فالشبكة التي يرى "العقل الأوربي" العالم من خلالها وبواسطتها شبكة تهيمن فيها علاقة أساسية هي علاقة "الأنا" و"الآخر"، لا علاقة "آخر"**

---

(1)wikipedia, altérité

(2) ترجمة صاحب النص.

(3) رايس رشيد: مرجع سابق ص 25

"**بآخر.**" " [1] ثم يضيف في السياق نفسه، مبينا مفهوم الآخرية في الفكر الأوروبي، أن: " **مفهوم الآخرية في الفكر الأوروبي ينطوي على السلب والنفي. بعبارة أخرى يمكن القول: إن ما يؤسس مفهوم الآخرية في الفكر الأوروبي ليس مطلق الاختلاف، كما هو الحال في الفكر العربي، بل الآخرية في الفكر الأوروبي مقولة تؤسسها فكرة السلب أو النفي la négation، فـ الأنا لا يفهم إلا بوصفه سلبا أو نفيا لـ الآخر** " [2] .

لكن لماذا الحديث عن الآخرية، والبحث يتناول أدب الرحلة ؟؟ يجيب حمدي عبد القادر مبينا أن الآخرية وأدب الرحلة مرتبطان ارتباطا وثيقا فيقول:

'' L'altérité et le voyage sont étroitement liés puisque dans les deux cas on s'intéresse à la langue, aux valeurs et à la culture de l'Autre. En outre, l'écrivain-voyageur essaye d'avancer dans ses observations ainsi que dans l'interprétation des autres sociétés. Dans les différentes cultures et civilisations humaines, l'image de l'Autre est créée par le biais de la dissemblance: différence de coutumes, de traditions, de goûts, de langue et de religion [3] .''

" ترتبط الرحلة بالآخرية ارتباطا وثيقا؛ لأنه في كلتا الحالين (الرحلة والآخرية) يكون اهتمامنا منصبا على لغة وقيم وثقافة الآخر. من جهة أخرى، فإن الكاتب الرحالة يحاول المضي قدما في ملاحظاته، وتفسير المجتمعات الأخرى. في مختلف الثقافات والحضارات الإنسانية، فإن صورة الآخر تنشأ من خلال الاختلاف، اختلاف العادات، والتقاليد، والأذواق، واللغة، والدين." [4]

هذا المصطلح (الآخرية) يقود حتما إلى استعراض مصطلح قريب منه، هو مصطلح، الصورة النمطية (**stereotype**).

---

(1) الجابري محمد عابد: **الأنا مبدأ للسيطرة.. والآخر موضوع له**، منبر الدكتور محمد عابد الجابري، www.aljabriabed.net

(2) الجابري محمد عابد: المرجع نفسه.

(3)Hamdi Abdelazim, L'ÉGYPTE DANS *VOYAGE EN ORIENT* DE GÉRARD DE NERVAL ET LA FRANCE DANS *L'OR DE PARIS* DE RIFÀ'A AL TAHTÂWÎ, p 54

(4) ترجمة صاحب النص.

تعرف الصور النمطية عموما بأنها " **مجموعة من المعتقدات المشتركة اجتماعيا حول خصائص أعضاء مجموعة اجتماعية معينة، وهي بذلك تشمل العموميات الخاصة بمجموعة اجتماعية من أجل خلق مزيج مستقر لعناصر متعددة ووحدة نظامية مرتبطة بالمجموعة الاجتماعية ذاتها.**" [1] .

الصورة النمطية تعني " **الحكم الصادر لوجود فكرة مسبقة في شيوع فكرة معنية عن فئة معينة، فيقوم المدعي بإلباسها صفة العمومية أو فكرة مسبقة تلقي صفات معينة على كل أفراد طبقة أو مجموعة.**" [2]

ويرجع استخدام الـ "stereotype " إلى عالم الطباعة، إذ تعني الصفيحة المعدنية المطبوعة التي تصب في قالب أو آلة سباكة طباعية. ويتم استخدام القالب في إنتاج السطور المطبوعة التي يمكن استخدامها آلاف المرات من دون الحاجة إلى إعادتها. بمعنى بسيط فإن النمط المقولب هو الشيء الذي يتكرر بشكل ميكانيكي.

إن الأنا يعطي صورة للآخر وفقا لمقاييسه ومعاييره الخاصة به، وهذا يؤدي إلى انعدام الفهم الحقيقي للآخر واختزاله ضمن حكم خاطئ عن طريق تعميم التجربة الفردية الشخصية إلى تجربة عامة، فالرحالة " **ينزع في كل حالة إلى التعميم**".[3]و هنا تصبح هذه الصورة نمطية تقوم على اختزال الآخر والإجحاف في حقه وسجنه في حكم خاطئ، بالإضافة إلى التعميم الذي ينتقل من "الخاص إلى العام ومن المفرد إلى الجمع...من هنا جاءت الصيغة " **هـذا الشعب هو...، هـذا الشعب ليس...، هـــذا الشعب يعرف أن يعمل... أو لا يعرف...**"[4]. وتستند هذه الصورة إلى "تضخيم مقصود لنواقص الآخر وسلبياته، وإلى صمت مقصود أيضا عن فضائله وإيجابياته، كما أنها تهدف إلى اكتشاف الفروق بين الأنا والآخر، ودفع هذه الفروق إلى حدودها القصوى بحيث يظهر الاختلاف بين الأنا والآخر كما

---

(1) منظمة العفو الدولية: **دراسة حول الصور النمطية القائمة على أساس النوع الاجتماعي السائدة بالمغرب**، الرباط، ماي 2013

www.amnestymaroc.org

(2) ويكيبيديا: الصورة النمطية.

(3) دانيال هنري باجو،"**الأدب العام والمقارن**"،مرجع سابق، ص.95.

(4) نفسه ،ص.94.

لو كان اختلافا في النوع لا في الدرجة، فالأنا يركز على إظهار سلبيات الآخر وأخطائه، ويتغاضى عن كونه جزءا من الحضارة الإنسانية وعن دوره في تكوينها ؛ وما هذه الصورة إلا نتيجة من نتائج العلاقة التي تحكم الأنا والآخر وتخضع لمقولة (التفوق لصالح الأنا مقابل التخلف والدونية لصالح الآخر).

تتجسد الصورة النمطية من خلال التشكيل السطحي للآخر دون التعمق أو التنازل لفهمه فهما صحيحا وبالتالي "تقديم الصفة الفردية للآخر بطريقة غير محددة مما يجعلها صفة كلية تشمل الجميع وتكون بهذا صورة تنميطية للآخر. وتتشكل عبر الرحلات صورة نمطية ثابتة داخل الثقافة، وربما كان لهذه الصورة من الفعالية والسريان بحيث تصبح سلطة شرعية تقوم على أساسها أطروحات سياسية وتحليلات اجتماعية، ويكون لها القدرة على إبراز إنتاج ثقافي، أو أن يتأسس عليها إنتاج ثقافي آخر. وهذا ما حدث للصورة العربية(الآخر) لدى الأنا (الغرب)، حيث صورت الشعوب العربية على أنها **" شعوب خاملة وفاسقة، وصاحبة عنف، وليس لها قدرة ذاتية على أن تحكم نفسها"** [1]، وهذه الصورة نمطية بنيت على حكم خاطئ، وخضعت للتشويه الذي يجعل منها صورة مشوهة للآخر،الشيء الذي يمنع التعامل والتواصل مع الآخر، ويعزز التباعد والتعادي **" فمن ناحية تجعل الصورة المشوهة للآخر الالتقاء به مستحيلا، ومن ناحية أخرى لا تؤدي...إلا إلى تأكيد وتقوية التشويهات والمواقف السلبية "** [2]

ويبدو أن ثمة تقاربا بين مفهوم الصورة النمطية والأحكام المسبقة، فالأحكام المسبقة هي مواقف سلبية أو إيجابية تتخذ تجاه شخص أو جماعة، ويصعب تصحيحها بسبب الجمود والشحنات الانفعالية. أما الصورة النمطية فهي عبارة عن حكم قيمة، سلبي أو إيجابي، بالغ البساطة والتعميم، يقترن بفئة من الناس متجاهلا الفروق الفردية بين أعضاء تلك الجماعة، ويصعب تغييره في معظم الأحيان.

([1]) قباني رنا: "**أساطير أوروبا عن الشرق لفق تسد**"، تر: صباح قباني ،دار طلاس، دمشق، ط 3 ،1993، ص.20.

[2]عيد ثابت: **صورة الإسلام في التراث الغربي** دراسات ألمانية، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، د.ط، 1999. ص.36.

9. الإكزوتيزم(الغرائبية):

من بين المصطلحات التي ترافقت مع أدب الرحلة، والصوراتية ـ لأنه يعبر عن طريقة معينة، وعن نهج محدد للنظر إلى الآخرـ مصطلح الغرائبية **(l'exotisme)**.

ترجم هذا المصطلح إلى العربية مرة بـ " الغرائبية "، ومرة أخرى بـ " العجائبية "، لكن الكثيرين مـــن الباحثين يستعملون " الغرائبية " مقـــابل **(l'exotisme)**. في حيـــن يوظـفون " العجائبي " مقابل **(fantastique)** [1] .

وتشير القواميس الفرنسية إلى أن الكلمة تعود إلى أصل يوناني **(Exotikoss)**، والتي تعني: الأجنبي، الغريب **(L'ETRANGER)**، وترجعها أخرى إلى الأصل اللاتيني **(exoticus)**، والتي تعني الغريب أيضا. ويشير بعض تلك القواميس إلى أن" **الكلمة تعني خاصية ما هو exotique، أي ما يتعلق بالبلدان الغريبة أو ما يأتي منها**" [2] .

" À l'origine de 1'« exotisme» se trouve le désir de chercher un ailleurs plus beau que le réel. Ce tenue désigne aussi l'art de peindre l'étranger: il s'agit de présenter des hommes ainsi que des paysages différents de l'univers habituel. Étant donné que le voyage et l'exotisme sont étroitement liés "[3]

" تعلق مفهوم الغرائبية في البداية بالرغبة في البحث عن مكان آخر أكثر جمالا من الواقع. كما دل أيضا على فن رسم الغريب: إنه يعني تقديم أشخاص ومناظر تختلف عن العـالم المألوف. ويجب التنويه إلى أن هناك ارتباطا وثيقا بين الرحلة والغرائبية." [4]

إن الغرائبية منسوبة إلى الغرائب، والغرائب جمع غريب، وأن الغريب هو ما يبعث في النفس الغرابة. فنحن نشعر دائما بالغرابة أمام كل ما يخالف المألوف . ومألوف الناس

---

(1)علاوي الخامسة: **العجائبي في أدب الرحلات، رحلة ابن فضلان نموذجا**، رسالة ماجستير، جامعة منتوري قسنطينة، 2005، ص 38 . 39 . 40

(2) رايس رشيد: مرجع سابق، ص 100.

(3)Hamdi Abdelazim, L'ÉGYPTE DANS *VOYAGE EN ORIENT* DE GÉRARD DE NERVAL ET LA FRANCE DANS *L'OR DE PARIS* DE RIFÀ'A AL TAHTÂWÎ ,op.cit, p49

(4) ترجمة صاحب البحث.

يختلف، فكيف نحدد الغريب حينئذ ؟ إننا قد نشعر بالغرابة في مواجهة حيوان كبير لم تسبق لنا رؤيته، وأمام احتفال لجماعة دينية بعيدة عنا، وعند مشاهدة لوحة سريالية، فهل نحن هنا أمام نوع واحد من الغرابة. قد تكون الغرابة التي نشعر بها أمام الحيوان ممزوجة بالخوف، وأمام الاحتفال الديني ممزوجة بالاستغراب، وأمام اللوحة السريالية ممزوجة بالمتعة. ولكن هذه الحالات المختلفة تشترك في صفتين هما :الغموض والفضول، غموض المعطى، وفضول المشاهد.

وكثيرا ما ترافق الـ (إيكزوتيزم) بالسفر والرحلة، لأن الرحلة تعنى بالغريب / الأجنبي ؛ فتصفه، ولولا الرحلة ما كان هناك تعرف على ذلك الغريب .

وكثيرا ،أيضا، ما ارتبط هذا المصطلح (الغربي بامتياز) بالانتقاص من الآخر، الذي لا يوصف إلا للتسلية وإثارة الدهشة، مثله تماما مثل تلك التحف النادرة، والحيوانات التي لا توجد في تلك القارة الباردة. **" والصفة exotique، تنعت ما لا ينتمي إلى الحضارة الغربية، أو حتى الطبيعة الغربية؛ ومن ثم يبقى مصطلحا خاصا بالغرب "** [(1)] .

10. صورة الشرق في أدب الغرب:

تتسم صورة الشرق في أدب الغربيين بسمتين رئيستين :أولاهما، أن هذا الشرق الذي تمت رؤيته بأعين غربية، لم يكن شرقا شرقويا، بل كـان شرقا غربيا، إذ الأعين الناظرة كانت غربية، تحمل فكرا غربيا، وثقافة غربية، وإيديولوجيا غربية، ،أحاسيس ورغبات غربية، ومن العبث البحث عن شرق واقعي حقيقي في تلك الصورة المرسومة بأعين غربية. والأمر لا يبعد عن تلك الحال بالنسبة للشرقي الذي ينظر إلى الغرب، إنه ينظر إليه بمنظار شرقي. إن هذه السمة تقودنا آليا إلى الثانية، حيث يتبين لنا أن صورة الشرق أو كيفية تصويره، إنما كان لتلبية حاجات الغرب، الحاجات الثقافية أساسا، وتأكيد ذاته. فذات الغرب لا تتجلى إلا من خلال ذات أخرى قد تناقضها تماما (وبضدها تتميز الأشياء). إننا لا نكاد نقدم على تعريف أحد المتناقضين الشرق/ الغرب، لا نقدم على ذلك إلا باستحضار الآخر، والاستنجاد بحضوره **" إن الكيانين الجغرافيين يدعمان بعضهما البعض، كما أنهما، إلى حد ما،**

([1]) رايس رشيد، مرجع سابق، ص 103.

يعكسان صور بعضهما البعض " [1]، يقول تيري هنتش (**Thierry hentsch**)، كما يبين رشيد رايس:" **إننا نريد فهم ذواتنا من خلال النظرة التي نلقيها على الآخر، أي الذهاب إلى منابع المفكر (بفتح الكاف)فيه للتفكير في ذواتنا، وفي موقفنا السياسي تجاه الآخر"** [2] هذا كحاجة أولى، أما الثانية: فحاجة هذا الغربي إلى الهروب من عالم بدأت تشوهه الآلة، إلى عالم غرائبي، هذه الغرائبية التي وجدت في الشرق ضالتها، وهي **" ذات قيمة ترفيهية كبيرة، وذلك لما تنطوي عليه من إثارة، خاصة حين تترافق مع مغامرات في بلاد بعيدة "** [3]

ولعل صورة الشرق في أدب الغرب تعود إلى القــرون الوسطى، ففي "أنشودة رولان " (la chanson de Roland)، التي هي أنشودة تتغنى ببطولات الغربيين ضد المسلمين، ويبرز البطل " رولان " الذي يحارب الهمجيين / المسلمين، ويهزمهم، أولئك المسلمين الذين هم حفنة وثنيين وجهلة لا يعون حقيقة الإله والدين.

أما في عصر الأنوار فالصورة لم تتغير كثيرا بفضل تلك الأحكام المسبقة المخزنة في الذاكرة الجمعية لدى الغربيين، حيث " **يقدّم تيفينو صورة قاتمة عن الشرق ..على خلفية دينية وعرقية في نظرته تجاه المصري الأسمر والأسود .هذه النظرة كانت مقدمة لنظرية راحت تشق طريقها لتتبلور في القرن الثامن عشر، وهي ترى بأن وضع اليد على الشرق يُعتبر عملاً مشروعاً، كوْن هذه المنطقة محكومة بالتخلف والتردي الخلقي ولا سبيل لخلاصها إلا بدفعها عن طريق القوة نحو التقدم، وهذا ما اقتنع به بونابارت قبل القيام بحملته على مصر في نهاية القرن الثامن عشر"** [4]

---

(1) سعيد إدوارد: **الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق**، تر: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع ،القاهرة، ط1،2006، ص 48

(2)رايس رشيد: **صورة الجزائر والجزائري في الكتابات النثرية الفرنسية خلال القرن التاسع عشر**، مرجع سابق، ص71

(3) حمود ماجده ، **مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن**، مرجع سابق، ص 113

(4) ملخص كتاب: **النظرة إلى الآخر في الخطاب الغربي**، مجموعة الخدمات البحثية www.ipileb.com

ظل القرن الثامن عشر، رغم اعتماد مفكّريه على المنطق، أسير دائرة ضيقة ترى في الإسلام شعوذة قامت على العنف والتضليل، وهي صورة نمطية موروثة من القرون الوسطى لم تتمكن كل المحاولات من إزالتها.

" يكفي ألف وخمسمائة جندي لاحتلال هذا البلد (مصر)، إذا لم تعارض هذا المشروع أية حكومة أوروبية" [1]، فبالرغم من ابتعاد فلوبير عن السياسة وانصرافه الكلي إلى مغامراته النسائية فإنه كأبناء جيله راح يردد بصورة ببغائية بعض الأفكار النمطية حول احتلال الشرق، .. هكذا يبدو الشرق في منتصف القرن(الـ19) أرضاً مستباحة تصلح لتنفيس المكبوتات وتحقيق الأطماع.

يقول لوي برتران(*Louis Bertrand*) في "السراب الشرقي"(Le *Mirage oriental*): " "**هذا القطيع من البشر، هؤلاء الناس الذين يشكون من سوء المسكن وسوء التغذية، والمتدثرين بقطعة من قماش لا يكادون يتميزون –لولا شكل وجوههم –عن الحيوانات التي يعيشون بينها، فيتشابهون مع قطعان الحمير والكلاب الشاردة.**" [2]. ويضيف: **" إنكم لا تعلمون حقيقته! إنه القذارة، والسرقة، والانحطاط، والاحتيال، والقساوة، والتعصب، والحماقة! نعم، إني أكره الشرق! إني أكره الشرقيين ...أكره أولئك المعتمرين بالطرابيش، والمتلهين بالسبحات!"** [3] .

هكذا كانت صورة الشرق، بصفة عامة، في أدب الغرب. ترى كيف كانت صورة الجزائر، وهي القريبة جدا من أوروبا؟ ذلك ما سيحاول الفصلان اللاحقان توضيحه من خلال رحلتين لأديبين غربيين، رأيا الجزائر والجزائري رأي العين، وأتيحت لها فرصة التنقل في عديد من مناطقها، حيث كان لهما احتكاك بسكانها. هما رحلتان تقدمان نموذجا لصورة الجزائر في أدب الرحلة الفرنسي.

---

(1) المرجع السابق.

(2) الرفاعي عبد الجبار: **الإسلام في الوعي الغربي**، صحيفة الوسط البحرينية، ع2646،04/12/2009، www.alwasatnewws.com

(3) نفسه.

الفصل الثالث

" رحلة إلى الجزائر.. إلى بلاد الشمس "

غي دي موباسان(Guy de Maupassant)

" يعتبر السفر أحد الأبواب التي نخرج بها من الحقيقة المألوفة، كي ندخل حقيقة مجهولة، تبدو كما لو أنها حلم."

غي دي موباسان . رحلة إلى الجزائر.. إلى بلاد الشمس

صارت الجزائر بعد الاجتياح الفرنسي مقصدا للكثير من الفرنسيين، فبعد أن كانت بالنسبة إليهم تكاد تكون مجهولة، أصبحت خلال النصف الثاني من القرن العشرين وجهتهم المفضلة، خاصة بالنسبة لرجال الفن. ووجدوا فيها ذلك الشرق الذي ظل حلم الكثيرين منهم. وكان من بين هؤلاء رجال الأدب الذين استوحى معظمهم من الجزائر أعمالا خالدة، لعل أهمهم " أندري جيد" (André Gide)، وكاتب القصة " غي دي موباسان " الذي سجل رحلته في رائعته الخالدة (Au soleil). فمن هو هذا الذي تدين له القصة القصيرة بكثير من الفضل؟

1. بيوغرافيا الرحالة:

'' Il n’avait eu qu’à paraître et qu’à conter ses histoires, les tendresses du grand public étaient aussitôt allées vers lui." [1]

''كان عليه فقط أن يظهر ويروي قصصه؛ ليحبه على الفور كل إنسان.''

بهذه الكلمة المعبرة، أبن إميل زولا (**Émile Zola 1840 -1902**)، ورثى أعظم كاتب قصة قصيرة في القرن الـ 19، بل رائدها وموجدها "غي دي موباسان "، ذلك الفذ الذي انطفأت شمعته، وانتهت قصته ذات 06 جويلية من عام 1893.

1.1. النشأة :

ولد الطفل جي(Henry René Albert Guy de Maupassant) في قصر "ميرو مسنيل"(Miromesnil) بنورماندي(*Normandie*) الفرنسية، لأبيه (Gustave de Maupassant)وأمه (Laure de Poittevin)، وذلك مساء يوم 05 أوت 1850. **"وبعد بضعة أشهر من مولده استأنفت أمه لور هوايتها المفضلة، وهي حب التنقل"** [2]، فرحلت إلى مكان آخر في نورماندي، وعندما بلغ السادسة من عمره، انتقلت الأسرة مرة أخرى إلى قصر (château de Grainville-Ymauville).. وهو أول مكان وعته ذاكرته، وأشار إليه في كثير من قصصه، وفي هذه الفترة بدأت العلاقة الزوجية بين والديه تتزعزع بسبب

---

(1) **Biographie de Maupassant** www.studyrama.com

(2) **جريدة العدالة، ع 2179، 2011/06/11: غي دي موباسان جوهرة الإنتاج الخالد**

مغامرات الأب النسائية، وقد بدأ الصغير الذكي يلحظ ذلك، ولم يكن الأمر يخلو من تعليقاته السليطة التي ترضي والدته، ومن الأمثلة الطريفة على ذلك أنه بينما كانت الأسرة تقضي الشتاء في باريس، كتب الصبي إلى والدته يقول: "**كنت الأول في الإنشاء، ووعدتني المعلمة بأن تكافئني، ثم أخذتني إلى السيرك ومعنا والدي، ويبدو أنهـــا كانت تكافئه كذلك على شيء لا أعرفه!**". [1]

وعندما بلغ guy الثالثة عشرة من عمره، وقع له حادث غَيَّرَ نظرته للحياة، وقد وصفه بقوله: "**كان يومًا عاصفًا لا أنساه، يوم كنت ألعب في أحد المتنزهات فشاهدت والديَّ آتيين من بعيد، وتقدمت نحوهما أسترق الخطى كي أفاجئهما.. لكن الفزع سمَّرني في مكاني وأنا أسمع أبي يصيح بوالدتي: إنني في حاجة إلى نقود، وأريدكِ أن توقعي. فأجابته والدتي قائلة في حدة: لن أوقع.. فهذه نقود guy وسوف أحتفظ له بها، ولا أحب أن أراك تبعثرها على الخادمات ونسائك الأخريات بنفس الطريقة التي بعثرت بها أموالك. وكان أبي يرتعد بالغضب كقصبة في الهواء، فاستدار وأطبق على عنق والدتي، ثم أخذ يضربها على وجهها، وعبثا حاولت أن تدرأ ضرباته المتلاحقة المحمومة، وكأنه جُنَّ جنونه فصار يضرب ويضرب حتى هوت على الأرض وهي تخفي وجهها بين ذراعيها، وعندئذ لوى ذراعها وعاد يضربها مرة أخرى.. وخُيل إليَّ أن نهاية العالم قد حلَّتْ، وأن القوانين والشرائع الخالدة قد تبدلت وتغيرت، ومنذ ذلك اليوم اختلف كل شيء في عيني، ولمحت الجانب الآخر للأشياء.. الجانب السيئ، ولم أرَ منذ ذلك الحين للجانب الآخر أثرًا!**" [2]

2.1. دور والدته في نبوغه الأدبي:

كان أبوه أرستقراطيًّا بالنشأة.. فهو سليل أسرة أرستقراطية عريقة أفلست.. وأمه كانت من العامة، لكنها كانت تعيش على أمل أن يعيد ابنها تشكيل حياتها بعد أن فقدت أخاها الذي كانت تطمح لأن يكون أديبًا مشهورًا.. كان شقيقها يدعى ألفريد، وكان مغرمًا بدراسة الأدب والفلسفة، وقد تذوقت الآداب القديمة والحديثة على يديه وعلى يدي صديق له من كبار

---

(1) زكي أحمد كمال: **جي دي موباسان.. تاجر النشر العبقري يوم 11 /2013/09**
www.ahmedkamalzaki.blogspot.com

(2) نفسه.

الأدباء هو "جوستاف فلوبير"(Gustave Flauber).. وبعد رحيل أخيها المفاجئ، كانت تراسل **"فلوبير"** الذي حصل على سمعة سيئة، ومجدٍ أدبي خالدٍ بعد أن اُضطهدت [1] قصته "**مـــدام بوفاري**" (**Madame Bovary**) سنة 1857م. وقد كتبت له **"لور"** تصف ابنيها قائلة: "**لي طفلان أحبهما من كل قلبي وروحي، وآمل أن يمنحاني أيامًا أهنأ وأسعد، أصغرهما ليس أكثر من مزارع صغير بادي الغباء، وأكبرهما شاب جاد في الخامسة عشرة، رأى وأدرك أشياء كثيرة فنضج قبل سنه، وسوف يذكرك بخاله ألفريد الذي يشبهه في أمور كثيرة، حتى في حبه للأدب، ولذلك فأنا واثقة أنك سوف تحبه**". [2]

لقد كانت أمه تريد أن يعوضها ابنها عن أخيها الذي فقدته، خاصة أنه يشبهه في الشكل والاهتمام بالأدب، وكانت تريد لابنها أن يكون شيئا مذكورا؛ لذلك دفعته دفعًا إلى الدراسة، لكنه كثيرًا ما كان يهرب إلى متع الحياة العريضة، فكان يتسكع على شاطئ البحر مخالطًا الصيادين والبحارة، أو في السهول مشاركًا الفلاحين مباهجهم وحلقات سمرهم.

3.1. تمرده على التعليم الديني:

كانت أمه قد ألحقته بالكنيسة، وأخذت تقرأ له مسرحيات شكسبير، ولما بلغ الثالثة عشرة، وحان وقت تلقي المزيد من التعليم، أرسلته إلى معهد ديني؛ حيث كانت "الموضة" وقتها هي إرسال أبناء النبلاء والأرستقراطيين إلى مثل ذلك المعهد الذي تتميز نظمه بصرامة "**إسبرطة**"، ورقة "**أثينا**".. لكنguy طرد من المعهد لسوء سلوكه في نهاية السنة السابقة لتقدمه لامتحان البكالوريا سنة 1867، فقررت الأم إلحاقه بمدرسة في "**روان**"، وما إن حصل على البكالوريا وبدأ يتلقى دروسه في القانون حتى شبت الحرب بين فرنسا وبروسيا، فترك الدراسة والتحق بقسم الإمدادات بالجيش الفرنسي سنة 1870، وكان يقضي أوقات فراغه في القراءة وكتابة القصائد الغزلية، ثم انتقل إلى باريس والتحق بوظائف كتابية بسيطة في عدة إدارات، وعاش في باريس وحيدًا يقرأ ويكتب ويتسكع في الشوارع ليلاً، أو يذهب إلى نهر السين الذي يذكره بالبحر النورماندي، وكلما تقدمت به الأعوام، تضاعف شعوره بالهم والاكتئاب، وازدادت نظرته إلى حياته تجهمًا، ولعل أثقل ما كان يؤرقه أن يبقى في المكاتب

---

(1) حوكم فلوبير بعد صدور روايته بتهمة الإساءة للأخلاق .

(2) زكي أحمد كمال: مرجع سابق.

منحنيًا على الدفاتر والأوراق، وهو الذي اعتاد الهواء الطلق والفيافي الواسعة، وهذا ما جعله يتخذ من الكتابة الأدبية حرفة يتحرر بها من العمل في المصالح الحكومية ويكسب بها قوته، ولذلك فإنه كثيرًا ما أطلق على نفسه لقب "تاجر النثر".

4.1. تأثره بالأديبين فلوبير وزولا :

و جاءت اللحظة الفارقة، عندما تعرف **"موباسان"** إلى **"فلوبير"** بعد إلحاح كبير من والدته **"لور"**.. هذا الكاتب الذائع الصيت، الذي كان يُعرف بأنه أشد الرجال عزلة في أورُبَّا كلها، ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن الأقدار كانت تخطط لجمعهما معًا، فقد كان **"فلوبير"** يبحث عن حواري مخلص، وكان guy – الذي انحاز إلى الأدب تمامًا – يبحث هو الآخر عن معلمٍ محنك يقود خطاه في عالم الأدب المعقد، حتى إنه ظل سبع سنوات يذهب إليه أيام الأحد حاملاً قصائده وقصصه ومسرحياته. يقول **"موباسان"** عن فترة تلمذته هذه، في مقدمته لرواية "**بيير وجان**" (*Pierre et Jean*) الصادرة عام 1888م: "**كان فلوبير يبدي اهتمامًا بي، فوجدت الجرأة لأن أعرض عليه بعض المقالات، وبعد أن قرأها قال لي: لست أدري إن كانت لديك الموهبة أم لا! فما قدمته لي يعكس بعض ملامح الذكاء، ولكن لا تنسَ هذا يا فتى.. الموهبة – كما يقول بونون – ليست سوى الصبر الطويل. واظب.**" [1].

وبفضل **"فلوبير"** تعرف guy على كثير من كبار الأدباء (فرنسيين وأجانب)، فتعرف على **"تورغينييف"** (Tourgueniev) و"**ألفونس دودي"** (Alphonse Daudet)، كما تعرف على " **إدمون دو غونكور** " (Edmond de Goncourt)

بعد ذلك تعرَّف **"موباسان"** إلى الأديب الكبير **"إميل زولا"** (Emile Zola)، الذي كتب عنه يقول: "**عرفت موباسان في صالون فلوبير الأدبي حوالي سنة 1874 بعد تخرجه مباشرة في الكلية، وكان يتردد على أستاذه كل أسبوع مرة ليقرأ له ما كتب فيصحح له فلوبير عباراته ويسدد خطاه"** [2] .

---

(1) زكي أحمد كمال.

(2) نفسه.

استفاد **"موباسان"** من خبرة صديقه **"فلوبير"** ونصائحه، فبدأت أعماله الإبداعية تنثال تباعا، في البداية باسم مستعار (joseph le prunier) حيث نشر(*La Main d'écorché*)، ثم استهواه المسرح، فكتب (*La Trahison de la comtesse de Rhune*)ثم عاد للقصة فكتب (*Les Dimanches d'un bourgeois de Paris*)، ثم جاءت قصته القصيرة المشهورة " **كرة الشحم** " (Boule de suif) التي حققت نجاحا باهرا، مما جعل طبعها يعاد عدة مرات، **" وفي فترة لا تتجاوز الأسابيع أحرز موباسان شهرة كبيرة، مما جعل الصحافة الأكثر انتشارا تتخاطفه لكتابة المسلسلات أو الوقائع "** [1]

أرسل **"فلوبير"** إلى guy يهنئه على نجاحه، ويعتبر قصته جوهرة من الإنتاج الخالد. وفي 25 من أبريل 1880 ظهر ديوان الشعر الأول – والأخير– له، وقد أهداه إلى أستاذه وصديقه الروحي **"فلوبير"**، لكنه لم يهنأ به؛ إذ داهمته الأحزان بعد أحد عشر يوما من صدور الديوان؛ فقد مات **"جوستاف فلوبير"** بالسكتة القلبية.. لكن "**موباسان**" لم يستسلم لأحزانه، وانغمس أكثر في عالمه الإبداعي، وبعد ثلاث سنوات، وتحديدا في 27 من فبراير 1883 بدأت صحيفة (le gil blas) تنشر تباعا قصته الطويلة (une vie) لتنتهي حلقاتها في 6 من أبريل في السنة نفسها، أما سنة 1885 فتمتاز بزاد وفير من مؤلفات guy القصصية، ففيها كتب (bel–ami) ،**" التي أثارت ضجة الصحافة في باريس؛ إذ اعتبرتها تشهيرا بالصحفيين، الذين شبههم بالعاهرات ووصفهم بأنهم يترددون في الرذائل، ويبتزون المال بالتهديد، وينسبون لأنفسهم أحيانا ما يكتبه لهم الغير، ويفاخرون به سائر الكتاب والقراء! "** [2]

5.1. رائد القصة القصيرة :

لعل "**موباسان**" هو أول من كتب القصة القصيرة في شكلها الحديث المتكامل. كتبها قبله كثيرون بالطبع منهم "**مارك توين**"(Mark Twain) و"**إدجار آلان بو**" (Edgar Allan Poe)، لكنهما لم يهتديا إلى ما اهتدى إليه "**دي موباسان** " من أن القصة القصيرة لا تحتاج

([1]) رايس رشيد: مرجع سابق، ص 176.

([2]) زكي أحمد كمال، مرجع سابق.

إلى الوقائع الخطيرة والخيال الخارق.. بل يكفي الكاتب أن يتأمل في الأحداث العادية، والأفراد العاديين، لكي يفسر الحياة ويعبر عن خفاياها من خلال موقف أو لحظة من لحظاتها.

يقول د. رشاد رشدي عن قصصه: "**لقد جاءت قصص موباسان مختلفة عن كل ما سبقها من قصص حتى إن الناس رفضوا أن يعترفوا بها في بادئ الأمر كقصص قصيرة، ولكن الأيام ما لبثت أن غيرت هذا الرأي، حتى إن أحد كبار النقاد كتب بعد موت "موباسان" بأعوام قليلة: (إن القصة القصيرة هي موباسان، و"موباسان" هو القصة القصيرة!).. وهكذا سجل "جي دي موباسان" القصة القصيرة باسمه، كما يُسجل المخترعون اختراعاتهم، فسارت من بعده على الشكل الذي رسمه لها!**" [1] .

لقد أصبح "**دي موباسان**" من أشهر كتاب القصة، ليس في فرنسا وحدها، بل في العالم كله.. حتى إن الرسام الهولندي الشهير "**فان جوخ**"(*van Gogh*) كتب لأخيه يقول: "**إن خير ما أعمله هنا أن أرسم النساء والأطفال.. لكن لن يسعدني كل السعادة إلا أن يولد بين الرسامين من يضارع "جي دي موباسان" بين الكتاب**" [2] .

6.1. النهاية:

بدأت نهاية " **دي موباسان**" المأسوية في الثامن من ديسمبر 1891 عندما دخل في صراع مرير مع المرض القاسي، ويمكن أن ندرك إلى أي مدى كان يعاني، من خلال الرسالة التي كتبها إلى أحد أطبائه يقول فيها: "... **إن جسمي كله – لحمي وجلدي – قد نُقع في ملح، فلم يعد لي لعاب لأن الملح جففه تماما. أظن أن هذه هي بداية النهاية. إن رأسي يؤلمني ألما مبرحا يجعلني أضغطه بين يدي فأشعر بأنه رأس ميت!**". [3]

كان واضحا تماما أن إرهاصات موته قد تأكدت، واتضح للجميع ذلك بعد أن نُقل إلى باريس في قميص المجانين، ولم تقوَ أمه على زيارته خشية أن تنهار عندما تراه في هذه

([1]) زكي أحمد كمال. مرجع سابق

([2])نفسه.

([3]) زكي أحمد كمال.

الحال. وكل يوم يمر، كانت حاله تزداد سوءًا، إلى أن وافته المنية يوم السادس من يوليو 1893م.. ليرحل عن الدنيا كاتب فذ كان قد شغل مكانة كبيرة في قلوب الفرنسيين، وظلت الصحف ترثيه وتشيد بمؤلفاته. رحل إذن "**جي دي موباسان**" بشكل مؤثر – كقصصه – بعد أن قاسى من المرض الشرس الذي ألقاه في عالم الجنون، ثم سلمه ببرود إلى الموت.

وفي مشهد مشبَّع بالشجن، حمل الهواء الذي كان يتنفسه "**دي موباسان**" صوت مبدع عظيم آخر هو **"إميل زولا"**.. كان الصوت متهدجا، ينوء بالصدمة، ويختلط بالدموع الدافئة، وهو يقول: "**ما كان عليه إلا أن يظهر ويروي قصصه، فإذا به يحظى بحب الجميع، لقد تقبل القراء كل ما كتب؛ إذ أشبع كل الطاقات الفكرية، والأحاسيس الإنسانية، وتجسدت أمامنا الموهبة التي لم تتخلَّ أبدًا عن أقل قدر من سمـوها، ومع ذلك كانت تستحوذ على إعجاب وتعاطف جمهور القراء على الفور**". [1]، ثم ينهي رثاءه قائلا:

" ***Et, Messieurs, ce serait là la gloire de Maupassant, que ce serait encore la plus certaine et la plus solide des gloires. Qu'il dorme donc son bon sommeil, si chèrement acheté, confiant dans la santé triomphante de l'œuvre qu'il laisse ! Elle vivra et le fera vivre.*** " [2]

2. دوافع الرحلة وخط سيرها :

أ. دوافع الرحلة :

كمتعاون مع بعض الصحف، قام " **دي موباسان** " بين سنتي 1881 ـ 1890 بأربع رحلات إلى شمال أفريقيا، دامت كل رحلة بضعة أشهر، وكان نتاج تلك الرحلات ينشر في الصحف التي يتعاون معها.

([1]) نفسه.

([2]) **Biographie de Maupassant** www.studyrama.com

وكانت الرحلة الأولى هي التي أودع مشاهداته خلالها كتابه المعروف (Au soleil)، الذي اختلفت ترجماته بين " تحت الشمس " [1]، و" في الشمس " [2]، لتترجمه نادية عمر صبري تحت عنوان " **رحلة إلى الجزائر .. إلى بلاد الشمس** ".

لكل رحلة دافع ما يحرك الرحالة، ويدفعه إلى اكتشاف الآخر ومعرفته، قد يكون الدافع مصرحا به، أو ثاويا يمكن التعرف عليه من خلال نص الرحلة.

يقف وراء هذه الرحلة الموباسانية دافعان: الأول ما صرح به الكاتب في بداية الكتاب، حيث يقول: **" غادرت باريس في 06 جويلية 1881،كنت أتطلع لرؤية أرض الشمس والرمال في عز الصيف تحت لهيب القيظ** "[3] وقبل ذلك يقول ـ مبينا وقع الصحراء على أمثاله من أبناء الأرض التي تموت من البرد حيتانها ـ: " **كل منا يحلم ببلده المفضل، واحد بالسويد، وآخر بالهند،هذا باليونان، وذاك باليابان. أما أنا فكم كنت مشدودا برغبة ملحة إلى أفريقيا، وبي حنين ملح إلى الصحراء المجهولة** " [4]. إذن فالدافع المعلن عنه هو البحث عن الدفء والحرارة، هربا من صقيع فرنسا الذي لم يكن يناسب اعتلاله .

غير أن الدافع الآخر الذي قد يكون الأهم، والذي صرح به " **دي موباسان** "إنما هو الشيخ بوعمامة. **" في ذلك الوقت، كانت انتفاضة بوعمامة تعّم المناطق الغربية من البلاد، وكان موباسان يعرف ما يشاع في الأوساط الباريسية عن هذه الانتفاضة من حماقات وأقاويل أثارت فضوله ودفعته إلى المجيء إلى الجزائر"** [5]، يقول **"دي موباسان"**: **" أمر آخر أضفى على الجزائر سحرا إضافيا، إذ قاد بوعمامة الغريب الأطوار تلك الحملة العجيبة التي تفوهت ودونت واقترفت كثيرا من الحماقات ... لذا كان من المثير جدا رؤية العربي**

---

(1) بودربالة الطيب: **صورة الجزائر في الرواية الفرنسية**، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، ع 2 .3، 2010، جامعة، جامعة الوادي، ص 10.

(2) رايس رشيد: مرجع سابق، ص 178.

(3)دي موباسان غي: **رحلة إلى الجزائر إلى بلاد الشمس**، تر: نادية عمر صبري، ورد للطباعة والنشر والتوزيع دمشق، ط1، 2007، ص 8 ـ9.

(4) نفسه، ص 8

(5) بوباكير عبد العزيز: **موباسان .. بحثا عن بوعمامة**، جريدة الخبر، ع 7225، 19 نوفمبر 2010

في تلك الآونة لمحاولة فهـم روحه" [1] لكن، أليس من السهولة فهم تلك الروح ؟ ذلك ما يصرح به "**فلوبير**": " **بوسعنا أن نتخيل الصحراء والأهرامات وأبا الهول قبل رؤيتها، غير أن ما ليس بوسعنا تصوره هو ما يدور في رأس حلاق تركي جـــالس على عتبة باب بيته** " [2] إذن، فبوعمامة كان هو الدافع الرئيس لهذه الرحلة، والكاتب إنما جاء مبعوثا من قبل جريدته، واغتنم الفرصة للنقاهة، والاستجمام.

هل يا ترى سيفلح **"دي موباسان"** حيث خاب سعي أستاذه" **فلوبير**" في معرفة ما يدور في هذه الرؤوس المعممة ؟ هل استطاع أن ينفذ إلى ما يفكر فيه أبناء العالم الذي جاء ليكتشفه؟

ب. خط سير الرحلة :

يطغى حضور الصحراء على تفاصيل هذه الرحلة الموباسانية، وهو أمر يكاد يكون تقليدا لدى جميع الرحالة الذين زاروا الجزائر في الحقبة الاستعمارية، خاصة الفرنسيين منهم. والعنــوان، عنوان الرحلة، يدل على ذلك ويصرح به (Au soleil)، أو ليست الشمس مرادفا للصحراء؟ .

غير أن الرحلة هذه لم تكتف بوصف الصحراء وساكنتها، إنما التفتت إلى نواحي أخرى بالجزائر، الأمر الذي يستدعي تتبع مسارها، وخط سيرها .

انطلقت الرحلة من باريس كما يوضح الرحالة: " **غادرت باريس في 06 جويلية 1881**" [3]، ومنها إلى الميناء الذي عبر منه جل الرحالة الفرنسيين " مرسيليا " **(Marseille)**، " **كانت مرسيليا تحت شمس مشرقة في يوم صيفي تنبض بالحياة** " [4]، بعد يومين وصلت الباخرة التي تقل الرحالة إلى خليج الجزائر" **دقت الرابعة صباحا، قيام. يا لها من يقظة، ساحل طويل، وفي الجهة المقابلة نقطــة بيضاء تكبر: إنها مدينة**

(1) دي موباسان، ص 9

(2) نفسه، ص9

(3) نفسه، ص 8

(4) نفسه، ص 10

الجزائر." [1]، عبر الرحالة، في طريقه إلى الغرب، وادي الشلف :" **نتبع واد الشلف الكبير، أسير جبال مقفرة ملتهبة** " [2]، وصولا إلى" أورليونفيل "(**Orléansville**)(*): " **في أورليونفيل يشير مقياس حرارة القطار إلى ما يزيد عن 49 درجة مائوية** " [3]. ثم بعد يوم من السفر عبر القطار، وصل وهران: " **وصلنا مدينة وهران في موعد العشاء** " [4]. ومـن وهران، وبالقطار، اتجه إلى سعيدة: " **ابتعت تذكرة إلى** " **سعيدة** " **حيث طريق الخط الحديدي الصغير يتسلق الهضاب العالية** " [5]، ثم، رفقة بعض الجنود، يترك " **سعيدة** " ليذهب بعيدا في الصحراء، ليصل مكانا اسمه " **عين الحجار** " لكن ظروف الحرب الدائرة هناك لم تمكنه من المضي أكثر، فيعود إلى الجزائر.

قبل الحديث عن بقية محطات الرحلة، بودي أن أشير إلى أن المترجمة لم تحافظ على تسلسل خط سير الرحلة ؛ حيث أخرت الجزء الخاص بـ " **الزرعيز** " إلى ما بعد الجزء الخاص بمنطقة " القبائل "، والصواب، حسبما ورد في النص الأصلي، أن الجزء الخاص بالقبائل جاء بعد وصف منطقة الجلفة وبوسعادة، وقد آثرت الحفاظ على التسلسل الطبيعي لمحطات الرحلة.

بعد مدة، يترك الجزائر صوب الجنوب، إنها الصحراء مرة أخرى، مرورا بـ " وادي الشفة ": " **دلفنا شق الجبل، وتتبعنا النهر الرقيق " الشفة "، ثم توغلنا في الحلق الضيق، ينابيع في كل مكان** " [6]، ليصل إلى "المدية ": " **أمضينا الليل بالمدية، مدينة صغيرة تشبه كثيرا كثيرا مديرية فرنسية** " [7]، ومنها إلى " بوغـار " :" **رغم كل ذلك هاهي بعض الأشجار الهزيلة ؛ إنها "بوغار"** " [8]، ثم " قصر البخاري" :" **تعتبر قرية قصر بوقراري من أهم**

---

(1) دي موباسان، ص 12

(2) نفسه، ص 13

(*) كانت مدينة االشلف، الأصنام سابقا، تسمى أورليانفيل، نسبة إلى الدوق دورليان .

(3) المرجع نفسه، ص 14

(4) المرجع نفسه، ص 14

(5) المرجع نفسه، ص 15

(6) نفسه، ص 34

(7) نفسه، ص 35

(8) نفسه، ص 36

القرى العربية الجزائرية ... تعطيها مكانتها أهمية سياسية، خاصة لأنها حلقة وصل بين عرب الساحل وعرب الصحراء " [1]. ومن بوغار، كما يبين الرحالة، ينطلق في جولة خطيرة المسلك صوب " الزرعيز " (هضبة الزرهز، وهي سبخة في نواحي الجلفة) **:" فيما كنت أتناول فطوري في حصن " بوغار " عند قائد المكتب العربي ... تطرق الحديث إلى مهمة يقوم بتنفيذها ملازمان شابان، يتعلق الأمر بإقامة تحويلة طويلة** (un long crochet) **على الأراضي المحيطة ببوغار، جلفه وبوسعاده، وذلك لتحديد الينابيع** " [2] وبعد طول معاناة في السبخة، يصل الرحالة ومرافقوه العسكريون إلى " خنق المالح "(حجر الملح ببلدية مسعد ولاية الجلفة)**: " وصلنا في المساء صخرة " خنق المالح "، جبل رمادي وأزرق وأخضر بانعاكاسات معدنية وتقاطعات فريدة** " [3] .ليصل في اليوم الموالي " الجلفة ": **" في اليوم التالي نمنـا في جلفا، جلفا مدينة صغيرة بشعة على الطريقة الفرنسية، غير أن ضباطا لطيفين يقطنونها ؛ مما جعل الإقامة فيها مسلية** " [4]. وبعد استراحة قصيرة، يواصل الرحالة توغله في الصحراء باتجاه " بوسعادة ": **" تعد واحة بوسعادة رغم صغرها من أجمل واحات الجزائر، حيث يمكن للمرء أن يصطاد الغزلان الموجودة بكثرة في نواحيها** " [5]. لم يتوغل الرحالة أكثر، ولم يتجاوز " **بوسعادة** " رغم حديثه المقتضب عن " **بني مزاب** " واكتفائه بالنقل عن ضابط فرنسي في وصف المنطقة**: " توجد منطقة أهل مزاب على بعد 150كم تقريبا من الأغواط. في ما يلي الوصف الوارد في كراسة مفيدة جدا كتبها السيد القائد كوين، الذي يعرف جيدا كل جنوب الجزائر** " [6]

لا يذكر الرحالة كيف انتهت المرحلة السابقة من رحلته، لينتقل إلى جهة أخرى من الجزائر. وخلاف السابق، لم تكـن الوجهة صوب الصحراء، إنمـا كانت باتجـــاه منطقة " القبائل "(وهنـــا أيضا وقعت المترجمة في خطـأ، حيث ترجمـت "LA KABYLIE

(1) نفسه، ص 37

(2) نفسه، ص 60

(3) نفسه، ص 87

(4) نفسه، ص 88

(5) نفسه، ص 92

(6)دي موباسان، ص 95

" بـ " القبيلة " [1] فانطلاقا من (Aumale)(سور الغزلان)، يصل الرحالة إلى " **جرجرة** ": " **عند خروجنا من أومال وهبوطنا في اتجاه وادي الساحل الكبير، هناك ينتصب جبل ضخم** " **جرجرة**" **لون قممه العالية رمادية كأنها مغطاة بالرماد** " [2]، ثم واصل تقدمه ليلا، ليصل **"بجاية"**: " **عند طلوع الشمس بلغنا البحر، كان خليج بوجيه (بجاية) محصورا وسط حزام من الجبال العجيبة ذات القمم المسننة الغريبة** " [3]، ومنها إلى " **خراطة** ": " **في مدخل الجهة الثانية وصلنا إلى "خراطة** " " [4]

يعرج الرحالة، بعـد أن ترك منطقة القبائل، صوب شرق الجزائر، فيمـر بسطيف، بعد أن ترك (Chabet) التي قد تكون " شعبة لاخرة " بمضيق "خراطة": " **تعتبر سطيف من أبشع المدن التي يمكن أن نراها** " [5] ودون أن يذكر سبب بشاعتها، على الأقل كمـا تبدو له، يتركها مشرقا صوب " قسنطينة ": " **هاهي قسنطينة، المدينة الفريدة، الغريبة كما لو أنها محروسة بثعبان يلتف حـول سفوحها، إنه الرومل** (المقصود بذلك وادي الرمال) " [6] .

يغادر الرحالة الجزائر عائدا إلى فرنسا، لتأخذه جولة في عديد الأنحاء الأوروبية، ثم يعود ثانية عبر صقلية، وينزل بمدينة الجزائر التي تجول كثيرا في أنحائها، لكنه سرعان ما يتوجه نحو تونس هذه المرة.(لا تورد المترجمة تفاصيل هذا الجزء من الرحلة، اللهم إلا ما تعلق منها بتجواله في أحياء مدينة الجزائر، أو رحلته إلى تونس) .

4. صورة الجزائر والجزائري في الرحلة الموباسانية:

باستطاعة قارئ نص الرحلة أن يستصفي طائفة من الثيمات العامة، التي تشكل في مجموعها نظرة "**دي موباسان**" إلى هذا الجزء مـن الشرق الذي استتب فيه الأمن، ولو

(1) المرجع نفسه، ص 45
(2) المرجع نفسه، ص 45
(3) المرجع نفسه، ص 54
(4) المرجع نفسه، ص 56
(5) المرجع نفسه، ص 98
(6) المرجع نفسه، ص 98

بشكل غير تام، بعد مقاومات عنيفة، إلا ما كان في الجزء الجنوبي الغربي، أين استمرت مقاومة الشيخ **"بوعمامة"**. هذا كجانب من تلك النظرة، أما الجانب الآخر فيتمثل في رغبة الرحالة في التسلل إلى زوايا ظلت معتمة في تركيبة هؤلاء الأهالي الذين لا يدري أحد ما يدور في رؤوسهم.

انطلاقا من ذلك يمكن التركيز ـ قصد استخلاص الصورة الكاملة ـ على :

- الجزائر .. أرض الشمس (الطبيعة، والمكان)
- الإنسان: العربي، اليهودي، الإسباني، الفرنسي.
- المعتقدات، العبادات، والطقوس.
- المعاملات اليومية.

1.4. الجزائر ..أرض الشمس (صورة الطبيعة والمكان):

انعكست صورة الطبيعة والمكان بمستويات مختلفة في النص الرحلي، حجما وتعبيرا، سلبا وإيجابا؛ إذ على الرغم من أن الطبيعة كانت مبهجة، وكذلك الكثير من الأماكن، إلا أن الكثير من صورها جاءت سلبية .

ا ـ **صورة الطبيعة بين السلب والإيجاب:** تسيطر صور الطبيعة على مجمل نص الرحلة، ولا عجب، فالرحلة أساسا وصف للطبيعة، قبل أن تكون وصفا لغيره، والرحالة ذو مقدرة جد فائقة في الوصف، لا يجاريه في ذلك إلا قلة قليلة من الكتاب .

فمنذ البداية تبدو الصورة منفرة، فما إن يترك الرحالة مدينة الجزائر وراءه حتى **" تختفي الهضاب المحروثة، وتصبح الأرض حمراء عارية ... أفق عقيم ملتهب ...من مكان إلى آخر تنحدر قمم وتنفتح كما لو أنها تريد أن تظهر بؤس التربة التي نهشتها الشمس"**(1)، تلك الشمس التي سحرت الكاتب واجتذبته لهذه البلاد تصبح الآن منفرة مهمتها الوحيدة تتمثل في الحرق **" قضت الشمس، ملكة أفريقيا المفترسة والمخربة الكبيرة، على خصوبة هذه الوديان "** (2) .

---

(1) دي موباسان، ص 13

(2) نفسه، ص 16

يواصل الرحالة وصفه التهكمي :" **عبرنا الغابة، يا لها من غابة، محيط رملي تشبه فيه باقات العرعر القليلة غرسات الخس في بستان شاسع** " [1]، وحتى حين يصف الرحالة منظرا طبيعيا خلابا سرعان ما يستدعي صورا من الـ هناك، ففي مضائق الشفة الجميلة لا يجد الكاتب بدا من الانفعال مع الجمال الذي تجود به الطبيعة " **أمام الباب ينساب الماء في الخزان، باعثا لحنا يثب ويسقط ثانية فيملأ هذا المكان بالبرودة والنظارة** " [2] لا تكاد عيناه تقعان على هذا المنظر حتى تقفز صورة من الذاكرة " **إنه يذكرني بأودية سويسرا الهادئة** " [3] وإن لم تحضر صورة الـ هناك، يستغرب الرحالة وجود الجمال في هذه القفار " **بعد فندق جدول القرود ثمة ممر آخر بدأ يضيق ثانية، ثم فجأة يتدفق شلالان كبيران صافيان فضيان من قمة الجبل. من اللطيف فعلا وجود شلالات في هذه الأرض الأفريقية** " [4] .

في بعض الأحيان يجري الرحالة مقارنات وهو يقدم صورا للطبيعة، حيث يعمد إلى مقارنتها بالـ هناك " **الصمت أكثر ما يميز فجر الصحراء. من في بلدنا لا يعرف زقزقة العصفور الأولى قبل الفجر بمجرد أن تبدأ السماء بالاصفرار؟ ثم تليها الزقزقة الثانية مجيبة من الشجرة المجاورة ؛ وأخيرا ذلك الضجيج المستمر للصفير، من عبارة موسيقية متكررة، من العلامات الموسيقية القوية مع غناء الديوك البعيد والمتواصل ؛ كل هذه الضوضاء التي ترافق يقظة الحيوانات، كل بهجة الأصوات بين الأوراق** " [5] لا شك فضل الكاتب الـ هناك على الـ هنا، فهنا لا شيء من كل ذلك، لا يوجد أصيل لا في الصباح ولا في المساء، ولا نكاد نرى تلك الغيمات الجميلة التي تسير متثاقلة وقد شابتها حمرة، فبدت غريبة، وهي تزين الأفق في الشمال، وكأنها قطع دامية أو ملتهبة.

و" يحسن بنا في هذا المقام، أن نقر بقدرة الكاتب العجيبة على المخاتلة في تجاوز الحدود ما بين الأجناس، ثم التظاهر بالامتثال، وأن نقف في حيرة من استمرائه لعبة شد

---

(1) نفسه، ص21
(2) نفسه، ص 35
(3) نفسه، ص 35
(4) نفسه، ص 35
(5) دي موباسان، ص 62

القارئ وجذبه حتى يوقعه في شرك الإعجاب بالأرض، وما أن يحس أن هذا القارئ قد اطمأن إليه حتى يمطره بوابل من السخط على كل شيء " [1]، فبعد أن يسهب في وصف سبخة الزرهز (وليس الزرعيز)، ويرغب القارئ في التعرف عليها، لكنه سرعان ما ينقلب ساخطا **" لو تدرون كم نحن بعيدون، بعيدون عن العالم، بعيدون عن الحياة، بعيدون عن كل شيء تحت هذه الخيمة الصغيرة المنخفضة.. هذه الأرض مملة، دائما متشابهة، دوما محروقة ميتة..حتى الخضرة النادرة تصدمنا كشيء مصطنع جارح وفظ "** [2] .

هل يعني ذلك أن كل ما قدمه الكاتب من وصف للمناظر الطبيعية كان بهذه البشاعة والتنفير ؟ الحقيقة أن في ثنايا النص الرحلي صورا تفيض حلاوة وعذوبة، خاصة عندما لا تحضر الشمس التي يبدو أنها صارت تؤرق الرحالة، ولا عجب فالرحلة تمت في شهر جويلية، يقول موباسان واصفا سبخة الملح ليلا: **" كان ضوء القمر يغمر الفضاء ببريق صاف، ويبدو كأنه يطلي كل شيء بالبريق، الجبال صفراء، الأفق أصفر ويبدو أكثر اصفرارا بعد ملامسة بريق النجم زعفراني اللون. هناك تبدو الزرعيز أمامي، بحيرة الملح المجمد المتأجج كما لو أن فوسفورا عجيبا يخرج منها، يطفو حولها، سحابة مضيئة من السحر، شيء ما فوق الطبيعي، ناعم يشد العين والفكر "** [3]، وخلال جولة في السبخة داهمت الرحالة عاصفة رملية هوجاء، يقول في وصفها: **" مكثت أتطلع إلى السحابة التي تكبر بسرعة كما كل السحب. أصبحت الآن بنية ومتسخة، وتتجه صوب الفضـــــاء، ثم اتسعت كما العواصف في شمالنا ...أخيرا، حجبت الجنوب برمته، قاعدتها سوداء معتمة، وقمتها نحاسية شفافة ...الكل يجري وينادي ،ويكد في تلك الهيئة المرعبة التي يلحظها المرء في مخيم يتعرض لهجوم ما. فجأة بدا لي وكأن النهار يتلاشى، رفعت بصري إلى الشمس، كانت مغطاة بخمار أصفر، ولم تعد تبدو إلا كبقعة دائريـة شاحبة سريعة التلاشي ... الإعصار كجدار أصفر بلا حدود يدنو منا، لم نكن نرى شيئا على بعد خطوات في عتمة الرمــال. كنا نستنشق الرمل، نشرب الرمل، ونأكل الرمل. الماء والقهوة والحليب،**

---

(2)لوكام سليمة: **الجزائر في كتابات «جي دي موباسان» الأرض والعرق والدين، مجلة العربي، ع 642، ماي 2012**

(2) دي موباسان، ص 65

(3)دي موباسان، ص 78

وكل شيء امتلأ بالرمل الذي كلن يطقطق تحت أسناننا، أصبح الخروف المشوي متبلا به، وبدا الكسكسي كأنه مصنوع من الحصبـــــــاء الدقيقة المدورة، وطحين الخبز كحجر مهروس دقيق الحبيبات " [1] .

ب ـ صورة المكان: " يعد المكان مكوّنا مهمًّا من مكوّنات الخطاب السردي، لأنه يمثّل الوسط الذي تجري داخله الأحداث، وتتحرّك في ساحته الشخصيات، يقول عبد الملك مرتاض "إنّ السّرد من دون حيّز لا يمكن أن تتم له هـذه المواصفة، إنّه لا يستطيع أن يكونـــه ولو أراد" ،أمّا في الخطاب الرحلي كما في حالتنا هذه؛ فإنّ المكان يغدو البنية الأهمّ إلى جانب الشخصيات، لأنّ أهم دواعي الأدب الرحلي هو استكشاف الإنسان، ومعاينة المكان الذي يعيش فيه، ولهذا السبب احتلّ موقع الصّدارة، فتكرّر ذكره في العنوان مرتين (الجزائر– الصّحراء)، وفي العناوين الداخلية تسع مرّات من أصل عشرة عناوين، أمّا في المتن فإنه احتل موقعا مهمّا، وربّما كان المكوّن السردي الذي استأثر بأوفر حظ من التوصيف" [2]. للمكان حضور قوي في هذه الرحلة، لذلك نجده يقدم المدن التي مر بها تقديما يتراوح بين الإعجاب تارة، والنفور تارة أخرى، يتساوى في ذلك المكان ذي الطابع الأوروبي، والعربي، فهذه وهران **" مدينة أوروبية بالفعل، تجارية وإسبانية أكثر منها فرنسية، يصادف المرء في الأزقة فتيات جميلات بعيون سوداء، وبشرة عاجية، وأسنان ناصعة البياض "** [3]، وهذه الجزائر **" واحدة من أكثر مدن العالم روعة "** [4]

Alger a passé mes attentes. Qu'elle est jolie, la ville de neige sous l'éblouissante lumière!

" تجاوزت الجزائر العاصمة أفق انتظاري، كم هي جميلة!، مدينة الثلج تحت الضوء الباهر "، هذه الجزائر هي جزائر الأوروبيين **" سكان الجزائر الفعليون "**، أما العرب الأهالي في هذه المدينة فهم ليسوا إلا

---

(1) دي موباسان، ص 74 ـ 75

(2) بوزوادة حبيب: **الإبداع والحقيقة في الأدب الكولونيالي**، مجلة " عود الند "، ع 67، جانفي 2012 www.oudnad.net

(3) دي موباسان ،مرجع سابق، ص 15

(4) نفسه، ص 30

''une population stupéfiante. Des gueux innombrables **vêtus d'une simple chemise, ou de deux tapis cousus en forme de chasuble, ou d'un vieux sac percé de trous pour la tête et les bras, toujours nu-jambes et nu-pieds, vont, viennent, s'injurient, se battent, vermineux, loqueteux, barbouillés d'ordure et puant la bête. Tartarin dirait qu'ils sentent le "Teur" (Turc) et on sent le Teur partout ici.''** (1)

" شعبا يبعث على الذهول: عدد لا يحصى من الصعاليك الذين يرتدون إما قميصا بسيطا أو خرقتين مخيطتين... أو كيسا مثقوبا من جهة الرأس والذراعين، بركب عارية وأقدام حافية، يتبادلون التهم، يتعاركون، نتنون قذرون... إننا نشعر أننا بين الأتراك المحيطين بنا من كل جهة " (2). غير أن وصفه لحي " القصبة " لم يخل من الإعجاب، لولا ذلك التهكم الذي لا يفارقه معظم الأحيان **" الأزقة الصغيرة والسريعة مثل ممرات الجبل، الوعرة والضيقة مثل أروقة حفرتها دواب، الملتوية دون توقف، تشترك مع بعضها بعضا بغموض بالغ، ويتحدث فيها الجميع بصوت منخفض، وتكون مأهولة بسكان من ألف ليلة وليلة، إنه بالفعل الإحساس الذي يطغى علينا، نسافر وسط البلد الذي حدثتنا عنه شهرزاد. تطالعنا أبواب قصيرة وغليظة مثل حيطان السجن بزخارف حديدية رائعة "**(3).

يتكرر الإعجاب نفسه غير ما مرة أمام الكثير من الأماكن، فها هو في قسنطينة يقف معجبا بقصر " الحاج أحمد باي " **" أحد أكمل نماذج الهندسة المعمارية العربية كما يقال. كل المسافرين احتفلوا به، قارنوه ببيوت ألف ليلة وليلة. ما كان للقصر أن يكون جديرا بالاهتمام لو لم تعطه الحدائق الداخلية تلك الميزة الشرقية الجميلة. يلزمنا مجلد لوصف شراسة عمل ذلك الشخص الذي شيده بمواد نفيسة مسروقة ومنزوعة مـــن المساكن الغنية في المدينة وما يحيط بها "** (4)، لكن ألا يبدو هذا الإعجاب مشوبا بالشك والريبة في حقيقة تشييده " **كما يقال** "، الرحالة لم يطمئن كثيرا لعبقرية البناء، فلربما، بل هي الحقيقة،

---

(1) De Maupassant Guy: Au soleil

(2) ترجمة صاحب البحث.

(3) دي موباسان، ص 33 - 34

(4) نفسه، ص 99 - 100

كانت مواد البناء مسروقة، منتزعة من بنايات أخرى، ولم لا تكون رومانية الأصل ؟ فالمدينة في كثير من معمارها رومانية .

2.4. صورة الإنسان:

صورة الجزائري في رحلة " دي موباسان " متعددة الألوان، حسب الشخصية وموقعها في الحياة، تختلف بين الرجل والمرأة، بين العربي، والفرنسي، واليهودي ... غير أن الملاحظة العامة التي يمكن تسجيلها، هي أن هناك ما يمكن عده صورة نمطية ثابتة للعربي **" من يقول: عربي، يقول: سارق، دون استثناء "** [1]، حكم عام لا يستثني أحدا. لذلك لم يحاول أن يفهم ما يدور في تلك الرؤوس المعممة، مثلما نصح به " فلوبير " " فبقيت هذه الكائنات مجرد هالات كبيرة تتحرك .

ومنذ البداية ظلت الصورة ـ تقريبا ـ هي هي، نادرا ما يكون ذلك العربي إيجابيا. قبل أن يصل الرحالة أرض الشمس يطالعنا بصورة تظهر العربي في صورة وحش، أو قطعة غيار للباخرة التي تعطلت صفارتها: **" فجأة، راح أحدهم، يدعى عبد القادر، يجأر لاختفاء صوت الصفارة، وحلول ما يشبه صراخ الحيوان مكانها "** هل هي الصدفة دائما، حين نجد الكثير من الأسماء ذات خلفيات تاريخية (محمد ـ عبد القادر).

حتى يسهل حصر الصور على كثرتها وتشعبها، فإنه من الأجدى تبويبها، بما يمكن من وضوحها، وتقريبها .

ا ـ **صورة العربي:** لا بد من الإشارة إلى أن الكاتب ميز كثيرا بين العربي، والميزابي، والقبائلي، لكنه في أحايين أخرى يشملهم بالوصف الواحد " عربي ".

" نلاحظ أنّ موباسان كان يتحدّث في الظاهر عن أشخاص (Personnes) لهم وجودهم المادي التاريخي، ممّن صادفهم في رحلته إلى الجزائر، زعماء، أو قادة، أو تجارا، أو مقاومين، أو خونة... ولكنّه من وجهة أخرى حوّل أولئك الأشخاص إلى شخصيات(personnages) ذات وظيفة سردية، وبالتالي أصبحت كل شخصية يأتي ذكرها في النص رمزا سيميائيا يمثل مجموعة قيم نفسية واجتماعية وثقافية وحضارية، وهو ما

([1]) نفسه، ص 65

يدفعنا إلى القول بأنّ الحديث عن (بوعمامة) و(الأمير عبد القادر (و(الفلاح) و(الجندي) وغيرهم، هو في الحقيقة تدليل على سمات الشخصية الجزائرية كما يتصوّرها الكاتب وليس كما هي موجودة في واقع الحال " [1]

<u>بوعمامة أو البطولة اللامعترف بها</u> [2] :، بما يمثله من رمزية دينية ووطنية في وجدان الجزائري، تحول عند الرحالة إلى مجرد مهرج " **من هو بوعمامة، ذلك المهرج الشبح الذي أفزع جيشنا في أفريقيا، ثم اختفى تماما، حتى أصبحنا نشك في وجوده "** [3]. صحيح أن الكاتب يعترف بفزع الجيش الفرنسي أمام بوعمامة، لكنه يجعله مجرد مهرج " **فلا يصح لموباسان أن يمنح بوعمامة صفة الحكمة والقدرة على التخطيط، أو وصفه بالاستراتيجي، لأن هذه الصفات تتطلب إنسانا يفكر ويخطط، ومن ثم فهو عقلاني، والعقلاني لا يمكن أن يكون إلا من الغرب "** [4] .

لم يكلف الرحالة نفسه عناء البحث عن سبب هذه الثورة (يسميها الفرنسيون تمردا)، لأنه لو بحث لوجد السبب واضحا وقريبا جدا، لكنه ببساطة أرجع ذلك إلى المجاعة " **لم يكن هذا الجوال سوى رئيس عصابة قليلة العدد دفعتها المجاعة للثورة. لم يقاتل هؤلاء الناس إلا لسلب صوامع القمح أو نهب القوافل، وليس في تصرفهم مـــا ينم عـــن كره أو تعصب ديني "** [5]، أي أنه لولا الجوع، ولولا صفة التوحش واستحكام عادة اللصوصية في هذا الشعب لما كان له أن يثور ."**فهو مقاتل من أجل الجوع والفقر لا يحمل أية قضية وطنية، وليس له أي مشروع سوى قطع الطريق وإرهاب الفرنسيين، وهذه الصورة السوداوية لا تمثّل صورة بوعمامة الشخص، ولا صورته كشخصية وطنية جزائرية فقط، ولكنّها صورة من وحي خيال الكاتب المقتنع على ما يبدو بما تروّجه السلطات الاستعمارية، التي تجرّم كافة القوى المناوئة للاحتلال، والمدافعة عن حقّها في الوجود"** [6] . إنها النظرة نفسها،

---

(1) بوزوادة حبيب: المرجع السابق نفسه.

(2) رايس رشيد، مرجع سابق، ص 179

(3) دي موباسان، مرجع سابق نفسه، ص 23

(4) رايس رشيد، ص 180

(5) رايس رشيد، ص 23

(6) بوزوادة حبيب، مرجع سابق

والتفسير نفسه لكل انتفاضات الجزائري، فقد حاول "دوغول" القضاء على الثورة بمشروعه المـعروف بـ"مشروع قسنطينة " (plan de Constantine) بعد ثورة بوعمامة بحوالي 68 سنة.

يورد " دي موباسان " ما يشبه النصح للإدارة الاستعمارية، قصد توقيف هذه الفتن كما يسميها، فيرى أن محاصرة العربي وتدميره وسلبه وملاحقته دون رحمة سبب الفتن **" لذا سنرى مزيدا من الفتن "** [1]، ليست النصيحة إشفاقا على العربي، ورأفة به بقدر ما هي إطالة أمد تواجد الفرنسي في هذه البلاد. وعندما يكون بوعمامة قادرا على تمويه الجيش الفرنسي، وإيهامه بوجوده في عدة أماكن في الوقت نفسه، فإن " دي موباسان " يرجع ذلك لعجز الجيش الفرنسي، وتراخي ضباطه عن أداء مهامهم، لا إلى براعة بوعمامة، وثلة المجاهدين معه .

مرة أخرى يفسر " دي موباسان " هذا التفوق العربي بخفة عدتهم وعتادهم، وتحمل أجسادهم حرارة الشمس، وتعودهـــــم على الجوع والمشقة، واستعمالهم أسلوب حرب العصابات، من كر وفر **" عند هجومهم يمكننا التغلب عليهم، في الغالب نهزمهم رغم بسالتهم، لكن لا يمكننا ملاحقتهم ... يهجمون بتهور على وقع العدو العنيف لجيادهم الضامرة كعاصفة من البياض العائم والغبار. يفرغون خـــلال عدوهم بنادقهم الطويلة المرصعة ... ويبتعدون كما جاؤوا زاحفين على الأرض مخلفين على التراب وراءهم، من مكان إلى آخـر، رزمـــــة بيضاء تتمـــايل وتحـــط على الأرض كعصفـــور جريـح تخضب ريشـــه بالدمـــاء "** [2]، إنها محاولة لتبرير فشل الجيش الفرنسي، وليست اعترافا بتفوق المجاهد المقاوم العربي. والصورة لا تخلو من تهكم لا يفارق الرحلة **" مخلفين رزمة بيضاء تتمايل وتحط على الأرض "**

يورد الرحالة خبرا مهما جدا، لكنه لا يوليه كثير اهتمـــام، ولا ينال منه غير تعليق بسيط، مفاد الخبر أن بوعمامة أسر مجموعة من الأسبان كانوا يعملون في جمع نبات الحلفاء، وأعدم بعضا من رجالهم، وأبقى على النساء والأطفال، وفي الطريق تزوج أحد أتباعه غصبا

([1]) دي موباسان، مرجع سابق، ص 23

([2])دي موباسان، ص 28 - 29

من سجينة شابة أعجبته، لكن بوعمامة رفض ذلك " **بدا بوعمامة متعاطفا مع سجنائه، خاصة النساء اللاتي آواهن في خيمة خاصة ومحروسة. كانت إحداهن فتاة جميلة في الثامنة عشرة من عمرها، تزوجت في الطريق من زعيم الترافيس(*) الذي هددها بالقتل إن هي قاومت، لكن الفقيه رفض مباركة هذا العقد** " [1]. هي صورة إيجابية لا يمكن نكرانها، واعتراف بسمو أخلاق هذا المجاهد العظيم. وسيكشف النص عن صور أخرى كثيرة مثلها .

القاضي اللص :يتحدّث " دي موباسان" في رحلتــه عن شخصية القاضي، وهـــو في العرف الجزائري -خلال القرن التاسع عشر- شخصية دينية، مرادف تمامـــا للفقيه، لكنّه بتعميم واضح يقـــول: " **قابلية القضاة لقبول الرشوة مضرب الأمثال وغير مبالغ فيها بتاتا"** [2]، أما القاضي الفرنسي فمعصوم من هذا السلوك السلبي " **لا يلجأ العربي قط إلى قاضي الصلح الفرنسي ؛ لأن رشوته غير ممكنة، في حين يقبل القاضي العربي كل ما يطلب منه مقابل المال** " [3] ثم يسوق الرحالة تبريرا آخر لعدم قبول العربي التقاضي لدى القاضي الفرنسي، وهو أن الأحكام التي يصدرها القاضي تدون في ورقة قد يكتب عليها اسم الجلالة، مما يؤدي إلى تدنيسها " **إن كل إجراء كتابي يزعجه لمبالغته في خشيته الخرافية من الأوراق التي يمكن تدوين اسم الجلالة عليها، أو رسم أشكال منفرة** " [4] .

يحسم الكاتب موقفه بتلك التعميمات التي يسوقها، ليبين الفساد الذي شمل الجميع دونما استثناء " **من يقول: عربي، يقول: لص، دون استثناء** "، " **والعربي لا يحب تسديد الدين، ويفضل تجديد سند بفائدة مـائة أو مائتين بالمائة لأنه دوما في مأمن إذا ربح الوقت** " [5]. " **ليس هناك شعب مشاغب يحمل الضغينة ومحب للنزاع أكثر من العرب"** [6]. والسؤال الذي يقف منتصبا أمام كل من يطلع على هذه الرحلة: أو ليس في كل هذه المناطق التي

.(*) ليست الترافيس بل (الطرافي)، والخطأ ناتج من الترجمة

(1) دي موباسان، ص 27 - 28

(2) نفسه، ص 70

(3)دي موباسان، ص 71

(4) نفسه ،ص 71

(5) نفسه ،ص 94

(6) نفسه، ص 70

مر بها الرحالة رجل واحد رشيد ؟؟، حتى أعوان الإدارة الفرنسية، لم يكونوا غير جرذان **(**وهم في الحقيقة أهل لهذه الصفة**)**، يقول الرحالة عن فارس رافقهم في "الزرهز ": **" رافقنا فارسان محليان ورجل عجوز هزيل ذو لحية مدببة، وأنف معقوف، وهيئة جرذ وتصرفات مجاملة مفرطة "** [1] .

<u>**الشعب البدائي الباعث على السخرية**</u> :عموما فالعرب **" شعب غريب، طفولي، ظل بدائيا كما كان في بداية العصور "** [2] لا يحسنون من الأشغال سوى الرعي **" يبعث الرعي هنا على السخرية "** [3]، ليس لهم أي تعلق بالأرض، ولا يملكون بيوتا، ولا أثاث لهم، ليس لديهم أي حس جمالي، كسالى لا يقوون على أبسط عمل .

" يمر العربي بالأرض دون أن يستقر بها، لا يملك بيتا باستثناء أقمشة مشدودة على عصي. لا يملك شيئا من الأشياء التي تبدو الحياة من دونها مستحيلة، لا أسرة، لا شراشف،لا طاولات، لا كراسي ... وهو لا يكاد يعرف كيف يخيط جلود الماعز ليحمل فيها الماء، ويستعمل في كل الأحوال أساليب غريبة تثير الدهشة "، لقائل أن يقول: إن ذلك واقع وحقيقة، لا تزال ماثلة إلى اليوم في كثير من المناطق، فنحن لا زلنا نعرف، اليوم فقط، رعاة يتنقلون بقطعانهم في سفوح الأوراس يعيشون في حالة مزرية من انعدام أي وسيلة من وسائل الرفاهية، والجواب أن ذلك لا ينكره أحد، والرحالة لم يجانب الحقيقة والواقع عندما قدم هذه الصورة، لكن كيفية التقديم فيها إزراء بمعاناة هؤلاء البدو الرحل، وتهكم، كان يمكن للواصف أن يقدمهم بشكل يثير العطف عليهم لا السخرية .

يواصل الرحالة تقديم هذه الصورة، فيقول: **" لا يستطيع** (وهو يقصد العربي طبعا) **حتى ترميم خيمته التي تمزقها الريح، في القماش البني الذي يقطر منه الماء كما يحلو له عديد الثقوب "** [4] هذا العربي الكسول ينزل إلى أدنى المراتب في تصنيف الشعوب قاطبة، قاطبة، بل هو أحط شأنا حتى من الحيوان **" للزنوج أكواخ، للأرانب جحور، للأسكيمو**

---

(1) نفسه، ص 76

(2) نفسه، ص 67

(3) نفسه، ص 14

(4) دي موباسان، ص 67

بيوت مـــن الثلج ،ويملك أكثر الناس وحشية وهمــجية بيوتا محفورة في الأرض، ويتشبثون بأمهم الأرض " [1] العرب، إذن، أكثر همجية وتوحشا، وأشد حقارة ووضاعة من الأرانب ؛ لأنهم، وببساطة، **" يمرون تائهين دون قيود، دون تعاطف مع هذه الأرض التي نملكها ونجعلها خصبة، ونحبها بشغف قلوبنا المفعمة بالإنسانية"** [2] أية إنسانية هذه التي يتحدث عنها الكاتب؟ إنسانية حب الأرض والحنو عليها لأنها مصدر لكل الخيرات، وكره صاحبها وطرده منها، والتنكيل به، وحرقه، وشنقه **." يمرون غير مكترثين بهمومنا كما لو أنهم قاصدون مكانا لن يصلوا إليه أبدا "** [3] العرب شعب لا يمت بصلة للحضارة، بل ليس لديه استعداد للتحضر **" تمـــر عليهم حضارتنا دون أن تمسهم، يشربون من الفوهة وإن كانت جلد ماعز ...إذا حدث أن استولوا في بعض الغارات على واحدة من قبعاتنا الباريسية ذات الشكل العالي، فلا ريب أنهم سيحتفظون بهـــا ليقدموا فيها الماء لأول جنرال يمر من القبيلة "** [4]

لا يختلف حال المرأة العربية كثيرا عن حال الرجل العربي، بل ربما كانت صورتها أكثر قتامة وبشاعة .

<u>الزنجية المقززة</u>: في البداية تطالعنا صورة تلك الزنجية التي تثير التقزز **" هذه الزنجية الطويلة، المتقوسة، اللامعة والمزركشة بأقمشة صفراء وحمراء أو زرقاء، التي تترك في طريقها شذا من اللحم البشري يفتت أشد القلوب صلابة "** [5] .

<u>رزمة ملابس متسخة أم امرأة ؟</u> :ثم هـذا الوصف الذي بلغ حد الازدراء للمرأة، حيث عدها رزمة ملابس بيضاء لا غير، والحال نفسه بالنسبة للرجل الذي لا يصفه إلا بكومة ملابس بيضاء، يقول الرحالة واصفا امرأة تعد الطعام لصغارها: **" مجموعة من الأطفال**

([1]) نفسه، ص 68

([2]) نفسه، ص68

([3]) نفسه، ص 68

([4])دي موباسان ، ص 68

([5]) نفسه، ص 18

المرتدين خرقا بيضاء تتجمهر في الزوايا، تجهز رزمة بشعة من الملابس المتسخة الممثلة للمرأة العربية في الأوساط الشعبية الكسكسي للعشاء أو تقوم بعمل ما " [1].

<u>المرأة العربية البائسة</u>: ربما هي الصورة الوحيدة التي نقرأ فيها نظرة الإشفاق لحال العربي **" المرأة العربية عموما قصيرة القامة، بيضاء كالحليب، سحنتها سحنة حمل صغير. لا تبدي أي حشمة إلا فيما يخص وجهها ... في سن الخامسة عشرة تشوه تلك البائسات، غالبا ما يكن جميلات، وقد أنهكن من مشقة العمل ... يبدون هرمات في الخامسة والعشرين"** [2]

<u>بغايا أولاد نايل</u> :لعل الصورة الأكثر تفصيلا للمرأة العربية إنما هي صورة بغايا" أولاد نايل"، ولا ندري حقيقة البغاء في هذه المنطقة، خلال فترة الاستعمار الفرنسي، فلقد تحدث عن ذلك أكثر من رحالة، وأكثر من كاتب، تحدث عنها " بول أودال " (Paul Eudel) في " من الجزائر إلى بوسعـــــادة "(d'Alger à Bousaada) فيقـــول :**" البغايا تنتشرن تقريبا في كل مـــكان"** [3] .وتحدث عنها " إتيان ديني " (Etienne Dinet) في روايته " خضراء راقصة أولاد نايل " (Khadra ,danseuse Ouled Nail) الصادرة سنة 1910. كما أن أندري جيد تطرق إلى الظاهرة، إذ يقول :" **توجد عادة قديمة جدا تقول إن قبيلة أولاد نايل تصدّر بناتها بمجرّد أن يبلغن سنّ الزواج، اللواتي يعدن إلى البلد بعد سنوات ومعهنّ المهر الكافي الذي يسمح لهنّ بشراء زوج. ولا يرى هذا الزوج أيّ مبعث على العار في ذلك، ولكن الحال ليس كذلك بالنسبة للزوج منّا الذي يرى في ذلك عارا ومهزلة (...) كان قطيع أولاد نايل راكنا على طول شارعين أو ثلاثة، على مرأى من المارة لإشباع شهواتهم، وكُنت ترى فتيات أولاد نايل جالسات على السلالم الصّغيرة المؤدّيـــة إلى غرفهنّ والمطلّة مباشرة على الطّريق"** [4]

---

(1) نفسه، ص 92

(2) نفسه، ص 87

(3) بن قينة عمر: **صورة الجزائر أرضا وإنسانا لدى رحالة فرنسي 1899**،منشورات ثالة، الجزائر ،2010، ص122

(2) مساعدي سكينة: **روائيات الاستعمار والمرأة المستعمرة**، تر: نادية الأزرق، الوكالة الوطنية للنشر والإشهار ، الجزائر، د.ط، 2005، ص 17

قد تكون الظاهرة متفشية بشكل يجعلها حديث كل زائر، يقول " دي موباسان ": **" تأخذنا الدهشة لهيئة بغايا الصحراء "** [1] .وقد تكون مجرد صورة نمطية **" فلقد أصبحت عبارة "أولاد نايل" التي شاعت عن خطأ، عبر الأدب الاستعماري، مقدّمة تشمل جميع البنات العاهرات في كل مكان. ونرى فيما بعد أنّ هذه التسمية تشمل مفهوما أكثر ما يكون إشهاريا، وأصبحت علامة تجارية يفقد كلّ مؤلّف من دونها قيمته التوثيقية والسياحية ".**

لا يتوانى الرحالة في تقديم صورة مفصلة لهؤلاء البغايا اللواتي أدهشته تسريحاتهن الغريبة **" كأنها من أصل آشوري "** [2] هذه التسريحة التي **" تتطلب يوما كاملا من العمل وكمية لا تصدق من الزيوت، بتلك الطريقة لا يسرحن شعورهن إلا مرة واحدة في الشهر، ويحرصن على عدم تخريب هذه التسريحة في جلسات الحب "** [3] .

ونظرا لغرابة التسريحة، لا يجد الرحالة بدا من تشبيهها بالجبل مرة **" جبل مربع، وعلى جوانبه ضفائر تتدلى إلى حد الأذن "** [4]، وبالبناء تارة أخرى **" تنبعث من هذا البناء المعقد من الشعر رائحة لا تطاق "** [5] .

البغاء، حسب ما يورد الرحالة، لا يعد من الطابوهات في هذا المجتمع النايلي، بل ربما، حسب رأيه دائما، تشجع القبيلة، ومن قبلها العائلة، هذه الظاهرة التي تنافي مجتمعا محافظا **" كانت هذه البغايا في الماضي يأتين من قبيلة واحدة " أولاد نايل "، يكدسن الثروة، ويجمعن المهور، ويرجعن إلى قبيلتهن ليتزوجن"** [6] ويبدو **أنه" ما زال مسموحا لبنات "أولاد نايل" أن يجمعن الثروة بعيدا بهذه الطريقة "** [7]. ومرّة أخرى تفرض الدعارة على أنّها مهنة شريفة وشعبية، ولا تثير أبدا رفض المجتمع. فنحن بعيدون كلّ البعد عن الواقع

---

(1) دي موباسان، ص 38

(2) نفسه، ص 38

(3) نفسه، ص 39

(4) دي موباسان، ص 39

(5) نفسه، ص 39

(6) نفسه، ص 39

(7) نفسه، ص 39

الجزائري، حيث تبقى الدّاعرة، التي تعتبر كائنا دنيئا وفاجرا، تعيش طوال حياتها مهمّشة في المجتمع.

لا يقتصر الأمر على الفتيات الفقيرات، بل ربما وجد من بينهن من تنحدر من عائلة كبيرة **" هناك بنات من " أولاد نايل " ينتمين إلى عائلات كبيرة، فتلتمس في علاقتهن مع الزوار الكرم والرقة المتواجدة في أصلهن "** [(1)]

<u>حب ضد الطبيعة</u>: لم يكتف الرحالة بالإسهاب في ذكر البغاء، بل راح أبعد من ذلك حين جعل الحب المنافي لطبيعة الخلق والذي يتم بين شخصين من الجنس نفسه، أو ما يسميه "**حب الصبية**". وكعادته سرعان ما يهرع الرحالة إلى إجراء مقارنة بين الـ هنا والـ هناك، لتنتهي المقارنة بتفضيل الـ هناك **" لا نكاد نجرؤ في بلادنا على الحديث عن الرذيلة، وهو مألوف جدا هنا "**.

يحاول الكاتب أن يستحضر من تاريخ الـ هناك حالات لهذه الظاهرة المنافية للطبيعة، لكنه يجعلها فلتات واستثناءات **" غالبا ما نجد في التاريخ أمثلة لهذه الشهوة الغريبة القذرة... لكن تبقى هذه الأمثلة حالات خاصة أثارت الانتباه لأنها قليلة "** [(2)] أما هنا فالأمر لفشوه أصبح مألوفا **" دخل هذا الحب الشاذ في أخلاقيات أفريقيا في العمق حتى اعتبره العرب طبيعيا كالحب الآخر "** [(3)] .

يقدم الرحالة تفسيرا لهذا السلوك الغريب، فيرجعه تارة إلى قلة النساء الناتج عن تعدد الزوجات، وهو كما يبدو غير مقبول منطقيا لأن الرحالة أشار قبلا إلى كثرة البغايا بشكل لافت للانتباه، ثم يرجع، مرة ثانية، الظاهرة إلى سخونة الجو التي تهيج الرغبات **"هل يكون السبب سخونة الجو التي تهيج الرغبات عند هؤلاء الرجال حادي الطبع الدقة واللطف وسوية الذهن ،التي تساعد في الغرب على الحفاظ على عاداتنا وتفادي العلاقات الشاذة ؟ "** [(4)] .إنها، ولا شك، صورة نمطية درج عليها كتاب الغرب، فقد أوردت "

([1]) نفسه، ص 41

([2]) دي موباسان، ص 42

([3]) نفسه، ص42

([4]) نفسه، ص 42

" رنا قباني " أن "جيرالد أوف ويلدز "(Gerald of waldes) أحد كتاب القرن 12م " **ادعى أن التعاليم الإسلامية تقوم على النوازع الجسدية، وأنها جاءت لتتماشى مع شبق الشرقيين الذين يعيشون في مناخ شديد الحرارة** " [1] .

أما التفسير الثالث الذي يقدمه الرحالة فلن يكون إلا تقليدا قديما وإرثا فاسدا يتنافى مع التحضر الذي لا يعرفه هذا الشعب " **ربما يكون نوعا من تقليد سلوك اللواط، إرث فاسد عند شعب الرحل الأمي، هذا الذي لا يكاد يقدر على التحضر، وما زال حتى اليوم كما كان في أزمنة التوراة** " [2] .لا يكتفي الرحالة بمحاولة تفسير الظاهرة، لكنه يسوق أمثلة " **حديثة ومميزة جدا عن هذه الشهوة عند العرب** " [3]، لكنه سرعان ما يحجم عن مواصلة الحديث وسرد الأمثلة لأنها " **في غاية البشاعة حتى أني لا أستطيع ذكرها في هذه المقام**"[4].

ب. <u>الميزابي(يهودي الصحراء)</u>: لم يحظ عرق بمدح الرحالة وإطرائه بقدر ما نال "الميزابيون"، والحقيقة أن الرحالة لم يبعد عن الصورة النمطية التي انطبعت في كل ذهن، فالمعروف لدينا جميعا أن " الميزابي" تاجر ماهر بامتياز **"التجار الحقيقيون هم أهل ميزاب يهود الصحراء...أذكياء، نشيطون، وتجار في الصميم"**[5]، ورغم ذلك فالميزابي محتقر من قبل العربي البدوي، ساكن الخيمة.

وبشيء من التعميم يعرف الرحالة بهذا العرق العربي (نلاحظ أن الرحالة يستعمل لفظة العربي تارة لوصف بدو الصحراء، وتـــارة يشمل بها جميع الجزائريين)، يعرف الرحالة بالميزابيين، وبمذهبهم " **هم من المسلمين الخوارج ... جاء آباؤهم الذين طاردتهم جيوش الرسول في سوريا للإقامة في جبل نفوسة في غرب طرابلس، غير أنهم كانوا يبعدون**

([1]) قباني رنا: **أساطير أوروبا عن الشرق**، مرجع سابق، ص 36

([2]) دي موباسان، ص 42

([3]) نفسه، ص 42

([4]) دي موباسان ، ص 44

([5]) نفسه، ص 94

بشكل متواصل من كل الأماكن التي يقطنونها؛ لأنهم محسودون لذكائهم وحرفهم، ومتهمون أيضا بالبدع"[1].

ج . <u>اليهودي الجشع الوسخ</u>: لم تنافس صورة العربي في بشاعتها إلا صورة اليهودي ساكن الصحراء، فهو الجشع، القبيح المظهر، القذر **" تشاهدهم في "بوسعادة " مقرفصين في أركان قذرة وكريهة، وقد نفختهم الشحوم يترقبون العربي كما يترقب العنكبوت ذبابة"**[2].

هم أسياد الجنوب الجزائري كله، فلا يوجد عربي غير مدين لهم، لأن اليهودي يستحيل أن يعامل غيره إلا بالربا، لذلك يتحكمون في رقاب الناس، وصاروا مكروهين من قبل الجميع. هذا بالنسبة ليهود الجنوب، أما يهود أوروبا، والمدن الجزائرية التي يقطنها الفرنسيون، خاصة الجزائر العاصمة، فهم **" متحضرون، مثقفون، أذكياء، وغالبا ما يكونون على جانب من اللطف"**[3].

على النقيض من هذه الصورة البشعة المنفرة لليهودي (وهي صورة نمطية لدى جميع الأوروبيين) تبدو صورة اليهودية في غاية الإشراق والبهاء، خاصة يهوديات المدن الكبيرة. يصف الرحالة بشيء من الإعجاب يهوديات قسنطينة: **" تحية ليهوديات هذه الأماكن: جمالهن رائع صارم فتان، يعبرن مدثرات أكثر منهن لابسات، مزينات بأقمشة لامعة، ذوق في اللبس لا مثيل له، تدرج في الألوان صنع ليجعلهن جميلات. يمشين وأيديهن عارية حتى الكتف، أيدي تماثيل تعرض للشمس بجرأة، وكذلك وجوههن الهادئة بخطوطها العريقة المستقيمة، حتى أن الشمس تبدو عاجزة عن لسع هذا اللحم المصقول "** [4] أين العربيات من هذا المدح والإطراء ؟ بل أين العربي ؟ في الحقيقة هو خادم هؤلاء اليهوديات **" يأخذن (اليهوديات) بيد عربي جسيم، خادمهن "** [5] .

---

(1) نفسه، ص 99

(2) نفسه ، ص 93

(3) دي موباسان ، ص 93

(4) نفسه، ص 99

(5) نفسه، ص 99

ترى، أين موقع الفرنسي وسط كل هذه الأعراق وهذه الشعوب ؟

د. الفرنسي أو صورة السيد :لا نعثر في ثنايا النص الرحلي إلا على صور قليلة للفرنسي ؛ لأنه، ربمـا، لا يحتاج توصيفا. وإذا صـادف أن حضر فهو الضـابط الشاب، الخبير، العارف بكل شيء، الفلاح الذي يحيل القفر جنة ...

حتى لو صادف بعض اللوم من الكاتب للعسكريين، أو رجال الإدارة الفرنسيين، فهو من باب النصح لا غير .

أما الفرنسي المدني فهو غائب، عدا العجوز الفلاحة التي صادفها الرحالة في نواحي سعيدة " **سيدة عجوز ترتدي تنورة سوداء، وتزين رأسها بقلنسوة بيضاء، تمشي منحنية تحمل بيدها اليسرى سلة، وبالأخرى مظلة حمراء كبيرة تقيها من الشمس** " [1]، وبعد حوار قصير معها، يكتشف الرحالة أن العجوز تتحدر من الألزاس (L'Alzasse)، ، وأنها نزلت بهذه المنطقة القاحلة لتعمل في فلاحة الأرض، لكن أملها خاب، مما جعل قلب الرحالة وقلمه يفيضان أسى لحالها " **لم أر شيئا أكثر إيلاما من هذه السيدة المسنة القادمة من الألزاس، والمرمية على هذه الأرض المحروقة التي لا ينبت فيها ملفوف** " [2]. يا للمسكينة ..لا تنبت أرضها ولا ملفوفة واحدة. ألا تستحق الرأفة والشفقة ؟؟ " **من المؤكد أنها تفكر كثيرا في البلد البعيد، في أرض شبابها الخصبة، يا للعجوز المسكينة** " [3]

هديل الحمائم ومواء القطط: قبل إنهاء الحديث عن الصور التي رسمها الرحالة للفرنسيات والعربيات، تستوقفنا صورة تهكمية بالعربيات، وذلك حين يقارنهن بالإسبانيات اللواتي صادفهن في مدينة الجزائر، حين دخوله متجرا لأحد الميزابيين، فيقول: " **على يمينه سيدات إسبانيات يتناجين مثل الحمائم، وإلى اليسار منه سيدات عربيات يخرجن أصواتا كمواء القطط** " [4] .

(1) نفسه ، ص 18

(2) دي موباسان ، ص 18

(3) نفسه، ص 18

(4) نفسه، ص 105

لا نستعرب من الكاتب كل هذا التهكم بالعربية والعربي، فذلك ديدن معظم الفرنسيين الذين وصفوا الجزائري، حقيقة أو تخييلا. فهاهو" تيوفيل غوتيي" (Théophile Gautier) في قصته القصيرة " رقصة الجن " (La danse des Djinns)يصف مجموعة من العجائز فيقول بنبرة استهزاء وإزراء بهن: **" عجـــائز يقرفصن مثل القردة، هن بلا شك بنات عـــــم ساحرات " ماكبث "، رغم عيونهن التي تشبه عيون البوم، وتلمع وسط هالة من السخام، وأنوفهن التي تلمع مثل مناقير الطيور الجارحة، وحواجبهن الضخمة السوداء، ولون بشرتهن الذي يشبه بطون الأحذية المدبوغة بستين عاما من الشمس "** [1]. الرحالة نفسه في قصته القصيرة " علومة " (Allouma)يصف العرب على لسان بطله " أوبال " أحد المعمرين، قائلا: **" ها هنا دلالة من الدلائل الأكثر إدهاشا والأكثر غموضا لعقلية الأنديجان :الكذب- هؤلاء الرجال، الذين تجسدت فيهم الإسلامية إلى درجة أن صارت جزءا منهم، إلى درجة أن صاغت غريزتهم، إلى أن حوّرت جنسهم بكامله وجعلته يختلف عن الأجناس الأخرى في الخُلُق كما في لون البشرة، مثلما يختلف الأسود عن الأبيض، هم كذّابون إلى حد النخاع بحيث لا يمكن أبدا أن نثق في أقوالهم- هل يعود ذلك إلى دينهم؟ إني أجهل- يجب أن تكون قد عشت بينهم لتعرف كم أن الكذب، الذي يشكّل جزءا من كيانهم من فؤادهم من روحهم، قد غدا عندهم شيئا يشبه طبيعة ثانيـــــة، ضرورةً للحياة"** [2] وبعد أن يحصل " أوبال " على " علومة " وتصبح عشيقته، هاهو ذا يقول عنها **" لم أحبها، لا، ففتيات هذه القارة البدائية لا تحب، وبينهن وبيننا، بل بينهن وبين ذكورهن الطبيعيين العرب، لا يمكن لزهرة بلاد الشمال الصغيرة الزرقاء(مشاعر الحب) أن تتفتح .إنهن أقرب إلى حيوانية الإنسان، إن لديهن قلوبا شديدة الغلظة، وأحاسيس قليلة الرقة، بحيث لا يمكن لها أن توقظ في نفوسنا الإثارة العاطفية التي هي شعر الحب. لا شيء من الثقافة، ولا نشوة فكرية تتمازج مع النشوة الحسية التي تثيرها فينا هذه الكائنات اللطيفة والعديمة..."** [3]، غير أن مرور الأيام غيرت من مشـاعر " أوبال " نـــحو " علومة " **"**

([4]) منور أحمد: **الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر**، دار التنوير، الجزائر، ط1، 2013:، ص19

(3) منور أحمد ، ص 104 -105.

([3]) نفسه، ص 111

كنت أحبها كما يحب المرء حيوانا نادرا جدا، كلبا أو حصانا يستحيل تعويضه،وقد كانت بهيمة تثير الإعجاب، بهيمة شهوانية، بهيمة للمتعة، لهـا جسم امرأة " [1] .

" ليس غريبا، كما يلاحظ قارئ نص القصة كاملا، أن يختار موباسّان شخصية علومة من قبيلة أولاد سيدي الشيخ ـ موطن بوعمامة، وبؤرة انطلاق مقاومته الغزو الفرنسي لهضاب الغرب الجزائري ،. كما ليس غريبا أن يكون اسم خادم "أوبال" هو" محمد" الذي يقدم له، خضوعا لرغبته الغالبة، عشيقته علومة، مثل عبد مملوك؛ ولا هو بالغريب أيضا أن يكون اسم شخصية العامل اليدوي في المزرعة هو عبد القادر. " [2]

3.4. صورة للمعتقدات، العبادات، والطقوس :

يعترف الرحالة بتأثير الدين القوي على العرب، فهم " **رجال تطغى عليهم النظرية الدينية وتمحو كل شيء، تنظم السلوك، تخنق الضمائر، تبصم القلوب، تتحكم في الفكر تتفوق على كل المصالح والمشاغل والاضطرابات...**" [3] ويقر الرحالة حقيقة مفادها أنه لولا الدين ما كان للعربي أن يسلك هذا السلوك " **بالدين نجدهم طيبين، شجعانا، حنونين، ومخلصين، ولا يمثلون شيئا في حد ذاتهم لو لم يلهموا أو يؤمروا بإيمانهم** " [4]، بل لقد سلبهم الدين عفويتهم فـ " **قلما نكتشف الطبيعة العفوية أو الفطرية للعربي، أي بدون أن يوجه من قبل العقيدة والقرآن أو السنة. لم تتجسد ديانـة بهذا الشكل في الناس كما فعل الإسلام** " [5] .

---

(1) نفسه، ص 123 -124

(2)السايح الحبيب: **الجزائر في الكتابات المتوسطية ..إكزوتيك بطعم عنصري: غي دي موباسان على الطريق،** جريدة "الجزائر نيوز"، 21جوان 2010

(3) دي موباسان: مرجع سابق، ص 101

(4) نفسه، ص 101

(5) نفسه، ص 101

يكتفي الرحالة، وهو ينقل لنا صورا للعبادات التي يقوم بها العربي، "بالمظهر **الخارجي دون التغلغل فيها، وهو ما جاء من أجله إلى الجزائر"** [1]. ربما يبدو للوهلة الأولى أن الرحالة يبدي انبهارا وإعجابا كبيرا بهذه العبادات التي يؤديها العربي، لكن الحقيقة أنه لا يعدو كونه تقليدا، وجريا على مألوف العادة لدى الكتاب الغربيين الذين ركزوا على الجوانب الإيجابية في ديانة الآخر، بهدف توجيه النقد للديانة المسيحية، والعمل على إصلاحها.

ا. **رؤية الخيط الأبيض والأحمر**[2]: يقدم الرحالة وصفا وافيا لأجواء رمضان في هذه المناطق، فيعده شهرا للانضباط والمساواة بين الجميع، الجميع يمتنع عن الأكل والشرب، يتساوى في ذلك الإمام الفقيه، والمومس الداعرة. **" ليس هناك إعفاء لشهر الصوم هذا. على أية حال، لا أحد يجرؤ على طلب ذلك حتى بنات الهوى في " أولاد نايل " اللواتي يكثرن في الأماكن العربية والواحات الكبيرة يصمن مثل النساك وربما أكثر "** [3] هذا ما نلمسه أيضا في قصة " علومة "، حيث يتبين من خلال محاورة "أوبال " لها أنها كانت صائمة **" حين ملت نحوها لأقبلها، أبعدت رأسها بقوة، فاندهشت وسألتها: إيه..ماذا جرى؟. إنه رمضان، قالت... وإذا تركت فتاة عربية روميا يلمسها في رمضان فإنها ستلعن إلى الأبد "** [4] .

" يستمر شهر رمضان ثلاثين يوما، لا يحق فيها لأي تابع من أتباع محمد(في النص الأصلي **Pendant cette période, aucun serviteur de Mahomet ne doit boire**) * **الأكل أو الشراب أو التدخين أثناء فترة الصيام الممتدة من الصباح قبل شروق الشمس غروبها** (هكذا ورد في النص المترجم)، **لا يطبق هذا الفرض حرفيا، فبمجرد أن تختفي الشمس وراء الأفق، وقبل أن نميز الخيط الأحمر من الخيط الأسود يرى المرء أكثر**

---

(1) رايس رشيد، مرجع سابق، ص 194

(2) رايس رشيد، مرجع سابق، ص 188

(3) دي موباسان، مرجع سابق، ص 31

(4) منور أحمد، مرجع سابق، ص 114 ـ 115

من سيجارة تلمع، باستثناء هذه القاعدة لا يوجد أي عربي يخرق قانون الصيام، أي الامتناع التام عن الطعام " (1) .

ليس المسلمون عبادا لمحمد (ص)، و" ما **قول الكاتب بأنهم عباد لمحمد إلا إسقاط للفكر المسيحي والكنائسي القائل بأن المسيح هو جزء من الإله "** (2) .

الواضح أن الرحالة لم يميز جيدا بين لون الخيطين، إذ المقصود الخيط الأبيض والخيط الأسود من الفجر، مثلما ورد في القرآن الكريم ﴿ **وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر**﴾ **البقرة ـ 187**، والأمر، كما هو واضح، يتعلق بموعد الإمساك.

بقدر ما أشاد الرحالة بانضباط المسلمين في هذا الشهر، الذي يتساوى فيه الجميع دون استثناء، بقدر تلك الإشادة، بقدر مـــــا يبدو المستعمر وكل الفرنسيين خائفين من هذا الشهر " **لقد بدأ شهر رمضان، كنا قلقين في المستعمرة نخشى من ثورة عامة بمجرد انتهاء شهر الصوم الإسلامي هذا "** (3)

Le ramadan venait de commencer. On était inquiet dans la colonie, car on craignait une insurrection générale dès que serait fini ce carême mahométan.

مرة أخرى يتضح الإسقاط الكنسي المسيحي على العبادة لدى المسلمين، فليس الصوم صوم محمد. بل العبادات كلها لله تعالى.

لعل الرحالة معذور في جهله بحقيقة الجهاد، فما أكثر ما ارتبطت هـذه الفريضة بالصيام، لذلك نجد الرحالة يفسر الجهاد المتحدث عنه ـ ويسميه تمردا ـ بأنه سلوك غرائزي **" لا يخرج الإنسان الجزائري من البدائية "** (4)، فيقول: " **هؤلاء العرب الذين نظنهم متحضرين ومتعاونين في الأيام الأخرى، ومستعدين لمشاركتنا أفكارنا، وتقبل عاداتنا ومساندة تحركاتنا، تجدهم يصبحون فجأة في شهر رمضان متعصبين بوحشية وورعين**

---

(1) دي موباسان، ص 31

(2) رايس رشيد، مرجع سابق، ص 188

(3) دي موباسان، ص 31

(4) رايس رشيد، مرجع سابق، ص 189

بغباء، من السهل إدراك هذه الحماسة الجارفة الموجودة لدى هذه العقول الموجودة لدى هذه العقول المحدودة والمتصلبة في تطبيق هذه الديانة الصــارمة. يتعبد هؤلاء البؤساء طوال النهار وبطونهم فارغة، وهــــــم يطالعون هــؤلاء الروامى المحتلين الذين يأكلون ويشربون ويدخنون أمامهم " [1].

وكأن الجهاد في رمضان مرده الوحيد إلى فراغ معدة المسلم، مما يجعله عصبيا، يرغب في الثأر ممن يمر أمامه شاربا آكلا ومدخنا، بينما هو يعاني العطش والجوع والحرمان من نقص النيكوتين.

ب. انضباط في الصلاة يزري بانضباط الجنود البروسيين: لا يبتعد الرحالة، وهو يصف المصلين والمسجد والصلاة، عن الوصف الشكلي المادي، دون الغوص في روحانية هذه العبادة، ودون البحث عن أسباب هذا الانضباط، حيث يكتفي بالمقارنة بين ما يحدث هنا في المسجد الذي هو **" بناء بسيط جدا، جدرانه مطلية بالجير، والأرضية مغطاة بالسجاد السميك "** [2]، وما يحدث هناك في الكنيسة، إذ يقول: **" يصطفون في صفوف طويلة ومنتظمة، والمسافة بين صف وآخر واسعة أكثر من صفوف الجنود خلال التمرين. .. يظلون هكذا دون حركة كتماثيل ووجوههم باتجاه المصلى الصغير الذي يشير إلى جهة مكة ... بعد ذلك ينكب جميع الحضور ساجدين، بحركة واحدة ومنتظمة، صامتة ومسرعة يضعون جباههم على الأرض ويرددون بعض الأدعية، وبعد ثوان يقومون دون ضجيج. يصلون بهدوء وخشوع. لا يسمع فيها قط تحريك الكراسي وصوت السعال والوشوشة كما هو الأمر في الكنيسة الكاثوليكية ..."** [3] .

صحيح أن الرحالة أبدى إعجابه بهذه العبادة، وأثنى على الانضباط فيها، وبرشاقة المصلين **" النحيفين الذين لا يملكون بطنا يعيق سجودهم، والذين يمارسون ديانتهم بمثل آلية واستقامة الجنود البروسيين عند القيام بمناورات "** [4]. صحيح أنه فعل ذلك، وهو

---

(1) دي موباسان، مرجع سابق، ص 31-32

(2) نفسه، ص 32

(3) دي موباسان، ص 32 - 33

(4) نفسه، ص 33

شعور إيجابي ،على كل حال، تجاه المسجد الذي عده مثالا للهدوء والانضباط، مقابل الكنيسة التي تتحول فيها الصلاة إلى وشوشات وضجيج، وسعال يفقد الخشوع والطمأنينة. كل ذلك صحيح، غير أنه " **لا يعدو كونه طريقة وتقليدا عند الكثير من الكتاب الغربيين، يتمثل في التركيز على جوانب إيجابية في الديانة المقابلة، وذلك بهدف توجيه النقد للديانة المسيحية والعمل على إصلاح أمورها** " [1] .

4.4. صور متفرقة من الحياة اليومية :

لا تخلو الرحلة من صور ومشاهد لمختلف نشاطات الحياة اليومية التي يمارسها العربي، لعل بعضها تمت الإشارة إليه، ولو عرضا، وبعضها الآخر يمكن الحديث عنه بشكل مختصر.

العربي، لكونه بدويا بالدرجة الأولى تقوم حياته على حرفة الرعي أساسا، لكنه رعي يصوره الكاتب بشكل هزلي، لا يخلو من التهكم فـ " **بين فينة وأخرى تظهر مخيمات أهالي البلدة، التي يكتشفها المرء بصعوبة قرب سيل جاف يرعى أطفال حوله بضع معزات وخراف وأبقار، يبعث الرعي هنا على السخرية (paître semble infiniment dérisoire) . تختلط أكواخ الكتان السمراء الملفوفة بأشواك الغابات الجافة بلون الأرض الرتيب** " [2]. يعلق الرحالة على تلك الطريقة في الرعي، وعلى المرعى " **ماذا سيقول مزارع النورماندي في هذه المراعي الغريبة الفريدة** " .[2]

لم ينس الرحالة وصف ألذ الأكلات التي تفنن العربي في صنعها، لكنها للأسف الشديد ليست أكلة الجميع، هي هدية وإكرام لذوي العيون الزرقاء، والجزمات العسكرية، الذين اصطحبوا الرحالة معهم في بعض مهامهم. هي أكلة القياد والموالين للمستعمر، أما المعذبون في الأرض فيرون الرغيف في البعد بدرا ويخالون اللحوم صيدا حراما .

([1]) رايس رشيد، مرجع سابق، ص 193

([4]) دي موباسان، ص 14

([5]) نفسه، ص 15

" يتألف أكلهم من أربعة أو خمسة أطباق لا يختلف ترتيبها أبدا. يقدم الخروف المشوي في الهواء الطلق ...بعد الطبق الأول، يقدم نوع من العصيدة ... في قاع هذا الحساء المركز عصير اصفر يتصارع فيه الفلفل الحلو مع الفلفل الأحمر في خليط مسحوق من المشمش ... وعندما يتعلق الأمر بـ" قايد " مضياف يتم تقديم الحميص ... وتنتهي الوجبة دائما بالكسكسي، الأكلة الوطنية. يحضر العرب الكسكس بفرك الطحين بأيديهم لتشكيل حبيبات تشبه رصاص الصيد ... " [1] .

لكن، وبالرغم من كرم الضيافة الذي لقيه الرحالة ومرافقوه، لا يتوانى عن ازدراء طريقة معيشة العربي، فيصف الخيمة بالوساخة، والأواني بالغرابة والبشاعة، إنها البدائية دوما. يقول الرحالة: **" عندنا اعتقاد شائع أن الخيام العربية بيضاء ساطعة في الشمس، بينما هي على النقيض بنية ومتسخة ومشطبة بالأصفر ... الخيمة واسعة جدا وتسندها أعمدة بشكل عشوائي "** [2].

أما الأواني فقد نالت منه نصيبها من التهكم والاستهزاء **" ليس هناك ما هو أكثر غرابة من الأواني العربية ... صينية قديمة من الصفيح وعليها أربعة فناجين مشرومة ومشقوقة وبشعة من كل الأحجام والأشكال ... يتم وضع القهوة في إناء قديم للنقع أو طنجرة عسكر، أو في إبريق قهوة عجيب مصنوع من الرصاص المشوه والمحدب يبدو مريضا"**[3].

أما عن الموسيقى، فقد بدت لعيني الرحالة وقلمه متوحشة مزعجة، تصم الأذن **" فجأة وعلى لفة الطريق يفاجأ المرء بضجيج، موسيقى متوحشة سريعة، زمجرة مرتجة تنبعث من الدفوف التي تطغى على الصراخ الحاد والمتصل، صوت متوحش، يصم الآذان ينبعث من مزمار، يملأ بنفس عفريت كبير ذي جلد أسود لا يتعب "** [4] .

([1])دي موباسان، ص 68 ـ 69

([2]) نفسه، ص 66

([3]) نفسه، ص 67

([4])دي موباسان، ص 39

5.4. صور نمطية ثابتة [1] :

القارئ المتأني لنص الرحلة الموباسانية لا تغيب عنه تلك الصور النمطية الثابتة التي لم يكن الرحالة أول من أثبتها، بل هي شبيهة بتعابير وصور كثيرا ما نجدها عند كتاب آخرين، لأنها جميعها وليدة تقاليد غربية تشكل صورة الآخر .

نقرأ على سبيل المثال قول الكاتب: **" من يقول عربي، يقول: سارق، من دون استثناء"**، حكم عام، ناتج عن حكم مسبق. إنه يشبه كثيرا قول " بتراركا " **(Petrarque):**

" ليس بإمكان أي كان أن يجعلني أصدق أن شيئا طيبا يمكن أن يأتي من العرب" [2].

لا يبعد الرحالة كثيرا عن غيره من الفرنسيين الذين زاروا الجزائر، فهذا " تيوفيل غوتيي " (TH.Gautier) يصف سكان القصبة قائلا: **" نسمع همسات غريبة بالقرب منا. ضحكات حنجرية، وكلمات غير مفهومة، أغان ذات نغمات غير جميلة، أشكال سوداء مقعاة على حافة الأبواب، تنظر إلينا بأعين بيضاء ...نسير كما لو كنا في حلم "** [3] .

إنه المعجم التقليدي المتفق عليه. معجم يجعل العربي شيئا غامضا، رغم أن الرحالة حاول من خلال رحلته أن يعرف ما يدور في رأس هذا العربي، معجم يقطر سخرية واستهزاء، يكتفي بالظاهر البارز للعيان، ولا يحاول التغلغل في نفسية العربي، ومن ثم معرفته معرفة حقيقية. يقول الرحالة في موضع آخر، وهو في " قصر البخاري ": **" كانت القرية هادئة. أجسام بيضاء مضطجعة وممتدة على طول البيوت "** [4] . ليس العربي سوى جسم، شيء، كومة من الملابس .

لا تسري هذه اللغة الساخرة المستهزئة على الجزائري فقط. إنه العربي حيثما وجد مثار السخرية. لا أجد أبشع من هذه الصورة، حين يصف الرحالة في تونس عملية الحرث، فيقول: **" إنه منظر بشع... تطاعنا خيالات جمال الحرث مشدودة إلى المحراث. تجر هذه**

---

(1) رايس رشيد، مرجع سابق، ص 195

(2) لوكام سليمة، مرجع سابق

(3) رايبس رشيد، المرجع السابق، ص 196

(4) دي موباسان، مرجع سابق، ص 39

الدابة آلة الخشب الهزيلة ... يبدو منظر الدابة والرجل كأنهما ملتصقان معا ويكونان كائنا خرافيا ...يتم استبدال الجمل بين وقت وآخر، إما بالبقر وإما بالحمير، وأحيانا بالنساء " [1] .وبعد كل هذا الاستهزاء والتهكم، يبدي الرحالة انزعاجه من طريقة الحرث العربية فيود لو يحمل الفأس ليستصلح الأرض التي أهملها العربي **" لقد أزعجتنا هذه الطريقة في الزراعة فوددنا لو أخذنا الفأس واستصلحنا الأراضي التي يـــــدور فيها هذا الثالوث العجيب: الجمل، العربي، والمحراث "** [2] .

أخيرا. ما الذي يمكن الخروج به بعد تتبع تفاصيل هذه الرحلة ؟ صحيح أن موباسان لم يكن مثل بعض الفرنسيين العنصريين، ولم تبد صور العربي في رحلته تنم عن كراهية، لكنها لم تخرج عن دائرة نظرة المستعمر للأهلي .

فالأوصاف التي وصف بها العربي **" ليست سوى أوصاف ثابتة، غير قابلة للحركة ولا للتغيير، كونها مرتبطة بالجنس، ولا علاقة لها بما هو ذهني أو عقلي "** [3] .

إن القول بأن العربي لص، وغير مؤتمن، وكسول، وفض متوحش، مقولات لصيقة بالجنس العربي كما يزعم أكثر الغربيين الذين وصفوا العربي، سواء في ذلك الذين رأوه رأي العين، أم كتبوا عنه بعد سماع وقراءة .صور التصقت بالعربي، فأصبحت مكررة متشابهة، يأخذها سلف عن خلف، وأصبح **" من غير الممكن للعربي أن يكون غير ذلك"** [4] .

وبسبب هذه الصور النمطية، والأحكام الجاهزة لم يستطع الرحالة، الذي حضر إلى الجزائر ليعرف ما يدور في رأس العربي، أن يتجاوز الوصف الظاهري، ولم تخرج ملاحظاته عن كونها تعميمات .

([1]) نفسه، ص 112

([2]) دي موباسان، ص 112

([3]) رايس رشيد، مرجع سابق، ص 199

([4]) رايس رشيد، ص199

الفصل الرابع

" الطريق إلى قنادسة " أو " تحت ظلال الإسلام الدافئة "

إيزابيل إيبرهارت(Isabelle Eberhardt)

"لم أخلق لتدبير شؤون البيت الزوجية مرتدية غمامة من حرير. وضعت لنفسي مثلا أعلى: خرجت لأكتشف العالم ... تساءلت إلى أين تذهب بي الطريق، وفهمت في الأخير أنني حين أكون بين عامة الشعب وبين البدو أعود من جديد إلى نبع الحياة، وأنني أنجز رحلة في أعماق البشرية ."

إيزابيل إيبرهارت

" كانت امرأة لم ترد أن تكونهـــا ؛ فارتدت ثياب الرجال لتخفي معالمهـــا، مفاتنها، أنوثتها، وتكتم صرخة الجمال فيها...وكانت أديبة، أو مشروع أديبـــة لم يكتمل تمام الاكتمال ؛ لأن الموت كان قاطع الطريق الذي لم يكن في الحسبان، فاقتلع النبتة قبل إزهارها... وكانت عاشقة للحرية، تواقة إلى الانطلاق نحو الأفاق البعيدة، والأمصار النائية ؛ فقفز مسار حياتها على الجغرافيا وحدودها والتضاريس وتعقيداتها " (1) .

إنها الكاتبة الرحالة **"إيزابيل إيبرهارت"** (Isabelle Eberhardt)، التي أعجب بها المفكر الجزائري " **مالك بن نبي** "، بل كانت من بين الذين أثروا في مسار حياته، فكتب: " **لقد قرأت مرارا كتاب تلك المرأة المغامرة التي أنهت حياتها في " عين الصفرا " في ظروف مشؤومة مؤسفة. كنت أبكي وأنـــا أقرأ ذلك الكتاب المسمى (A l'ombre chaude de l'islam) " في ظلال الإسلام الدافئة"، والذي عرفت فيه شاعرية الإسلام وحنين الصحراء. هذا الكتاب ترك فينا بسبب خصائصه الخيالية تأثيرا عجيبا** " (2) .

وكتب عنها الديبلوماسي ووزير خارجية الجزائر الأسبق " **محمد الصـالح دمبري** " يقول: " **كصحافية شغوفة، وجزائرية متحمسة، انغمست في تحليل الحياة الإنسانية في الجزائر في تلك الفترة، متهمة التمييز الذي تفرضه الشؤون السياسية الاقتصادية الجديدة، والسلب المخزي والفاضح للسكان الأصليين، أدانت عصر القواد والموظفين ذوي النفوذ المكلفين بتعمير الجزائر. لقد كانت متأكدة من إفلاس الاحتلال، ذلك أنه في حين كان" لويس برتراند " (Louis Bertrand) وأنصاره، بنزعة رومانية، يستحضرون كل ما هو لاتيني مسيحي، كـــانت هي تعيد، وبقوة، القيم العربية الإسلامية، والتحام العالم العربي البربري** " (3) .

أمـــا " **إدموند شـــــــــارل رو**"(Edmonde charles-roux) رئيسة أكاديميـــة " **غونكــور**"(Goncourt)، والتي تخصصت في كتابات " **إيزابيل إيبرهارت** " فصرحت

---

(1)جموعي سلوى: **إيزابيل إيبرهارت ورحلة الحب والجنون**، موقع فارسة الرمال إيزابيل إيبرهارت www.Ghanami.blogspot.com

(2) بن نبي مالك: **مذكرات شاهد للقرن**، تر: عمر مسقاوي، دار الفكر، دمشق، ط2، 1984، ص 89

(3) إيبرهارت إيزابيل: **ياسمينة وقصص أخرى**، تر: حسن دواس، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، سلسلة إبداعات عالمية، ع 390، ط1، الكويت، 2012، ص 11

في حوار لجريدة " **ليبرتي** "(Liberté) الجزائرية قائلة: " **صحيح، عملت لمدة اثنتي عشرة سنة على أعمال إيزابيل، ولكن شغفي ظل نفسه، كل المواضيع تنتهي يوما ما إلى الملل واللامبالاة ؛ غير أن الأمر مختلف بالنسبة إلى إيزابيل. الإعجاب دوما عنيف كما في اليوم الأول** " [1] .

وقال عنها المخرج الأسترالي " **يان برينغل** " (Ian Pringle) الذي أخرج فيلما حول حياتها: " **لقد كانت كل شيء: مهرجة، قديسة، بطلة، حسية، إعصارا أنثويا والذي من عمقه تتدفق الحياة بلا انتهاء. كاتبة، مغامرة، ساذجة، ثائرة دوما، مدفوعة بقوى لا تفهمها، قضت حياتها القصيرة وهي تحاول التخلص من الفائض لتواجه الواقع** " [2] .

أما سفيرة سويسرا في الجزائر، السيدة (Muriel Berset Kohen)، وبمناسبة تنظيم ندوة حول الكاتبة بالجزائر، فتقول :

" Isabelle Eberhardt est un personnage moderne, libre et très inspirant. Elle dérangeait, car elle était contre le colonialisme, contre l'injustice. Elle était en porte-à-faux avec les valeurs bourgeoises par son comportement " [3]

ترى من تكون هذه المرأة التي نالت حظا وافرا من الإعجاب من لدن المفكرين، كما نالت الحظ الأوفر من الشك والريبة في حقيقتها ؟ ذلك ما سنحاول تسليط بعض النور عليه في الصفحات القليلة الآتية.

1 .بيوغرافيا الرحالة :

1.1. الميلاد اللغز :

يسود هوية رحالتنا غموض كبير ،مما أسال، ولا زال، الكثير من الحبر بخصوص نسبها، فقد أعلنت ابنا غير شرعي بعد مرحلة من عمرها .

---

(1) إيبرهارت إيزابيل: ياسمينة وقصص أخرى، ص 08

(2) انفسه، ص 8

(3)Tamou Hocine: **ISABELLE EBERHARDT COMMEMOREE A ALGER ET EL-OUED L'écrivain trait d'union entre l'Algérie et Genève** , Le soir d'Algérie , 06/12/2014 , n 7348

ولدت يوم 17 فيفري 1877 بـ**"جنيف "** (Genéve) السويسرية. من أمها " **ناتالي دو مويردر**" (Nathalie De Moerder) ذات الأصل الألماني، وأب مجهول. وحملت ،حسب سجلات الحالة المدنية، اسم (Isabelle Wilhelmine Marie Eberhardt)، أي أنها نسبت إلى أمها (Eberhardt).

قبل أن تأتي " إيزابيل" إلى الوجود كانت أمها قد تزوجت من ضابط روسي، أصبح فيما بعد سيناتورا. وبنصيحة من طبيب العائلة، سـافر الجميع إلى "سويسرا " رفقـة مربي الأولاد (Alexandre Trophimwsky)، وهو " **قس أرثوذكسي، أرميني ...وكان عالما، مثقفا، وفيلسوفا، يتقن العديد من اللغات: الروسية، والألمـانية، والتركية، والعربية** " [1].

استقرت العائلة في **"مونرو"** (Montreux) أين ولد سنة 1871 الطفل (Augustin) لأبيه **"دو مويردر"**.

وفي سنـة 1873 توفي الجنرال السيناتور **" دو مويردر"**، وقـد ترك ثروة كبيرة. فتولى " **تروفيموفسكي** " رعاية الأسرة. وبعد تنقلات عدة في أماكن شتى، حطت العائلة الرحال في جنيف بحي (Quartier des Grottes). وفي فيفري من سنة 1877، وأثناء غياب " **تروفيموفسكي** " وضعت " **ناتالي** " بعناية طبيب العائلة مولودا جديدا، إنها " **إيزابيل**".

وفي غياب معرفة " **تروفيموفسكي** " للأب الحقيقي، عدت المولودة الجديدة للعائلة بنت سفاح، وتم تسجيلها في سجلات الحالة المدنية باسم والدتها (Isabelle Wilhelmine Marie Eberhardt).

هذا الغموض في نسبها، جعل الكثيرين من كتاب سيرتها يختلفون في حقيقته؛ فمنهم من عد " تروفيموفسكي " أباها، لكن دون تقديم أي دليل على ذلك، ومنهم مـن يدحض هذا الرأي، باعتبار أن " تروفيموفسكي " كان حينها متزوجا، من امرأة روسية. وحتى، لو كان " تروفيموفسكي " لا يمت لها بقرابة الدم، فإنه يعد أباها الروحي، يوضح آخرون.

([1])إيبرهارت إيزابيل: ياسمينة وقصص أخرى ، مرجع سابق، ص 15

و هناك من ذهب إلى أن الشاعر الفرنسي المعروف " **آرتير رامبو** " (Arthur Rimbaud) هو والد الفتاة، مستدلين في ذلك بتشابه مصيرها بمصير الشاعر، ويشبهون شخصيتها بشخصيته، وهذا ما تطرقت إليه الباحثة " صابرينة بن زيان " فتقول:

'' Alors que pour d'autres comme Françoise d'Eaubonne, penche à attribuer la paternité au poète français Arthur Rimbaud qu'elle essaye de confirmer par les similitudes de leur destin et qu'elle complète par les similitudes des caractères. Elle procède même à une confrontation des textes y découvrant des rapprochements dans les thèmes, les expressions et les détails d'écriture. Une thèse qui reste aussi improbable qu'elle relève beaucoup plus du côté pittoresque attribué souvent à la vie d'Isabelle Eberhardt ." (1)

ودليل **"فرانسواز دوبون** " يبين " **حسن دواس** " إضافة إلى التشابه الكبير بين ملامحهما " **أن اسم إيزابيل هو في الوقت نفسه اسم شقيقة الشاعر " رامبو " الذي كان متعلقا بها إلى درجة كبيرة، كذلك الجملة الواردة في أحد كتبها: " أنا أيضا سأموت مسلمة مثل أبي"، حيث يقال إن " رامبو" بعد رحلة ضياعه في وادي النيل قد اعتنق الإسلام** " (2) .

ووسط كل تلك التضاربات، يبرز صوت الرحالة نفسها، ففي أفريل 1903، وفي جريدة (*La petite gironde*) تقول" إيزابيل" عن نفسها: " **ابنـــــة رعيــة روسي مسلم، وأم مسيحية. ولدت مسلمة، ولم أغير أبدا دیانتي. توفي أبي بزمن قصير قبل ميلادي بجنيف، أين كان يقطن** "

---

(1)Benzian Sabrina: **Orient et Occident dans les nouvelles d'Isabelle Eberhardt: *Le Major*, *Yasmina*, *Pleurs d'amandiers* et *La Rivale***, mémoire de magistère , UNIVERSITE DE BATNA – EL HADJ LAKHDAR,2008/2009, p9

(2) إيبرهارت إيزابيل: ياسمينة وقصص أخرى ، ص 16

" Fille de père sujet russe musulman et de mère russe chrétienne, je suis née musulmane et je n'ai jamais changé de religion. Mon père étant mort peu après ma naissance à Genève, où il habitait. " [1]

غير أنه في سنة 1988، نشرت مجلة (L'internationale de l'Imaginaire) رسائل للرحالة تبادلتها مع صديقها التونسي " علي عبد الوهاب " بداية 1898، حيث أسرت له، بعد وفاة والدتها، معلومات تتعلق بميلادها، الذي كان نتيجة حزينة لاغتصاب تعرضت له والدتها المريضة من قبل طبيبها.

" En 1988, la revue L'internationale de l'Imaginaire fait paraître des lettres d'Isabelle conservées jusqu'alors dans les archives de la famille de Ali Abdel-Waheb, un ami tunisien avec lequel elle correspondait. Dans ces lettres écrites, début 1898, peu après la mort de sa mère, elle y déclare, concernant sa naissance, qu'elle est le triste résultat d'un viol commis par le médecin de maman, actuellement décédé " [2]

وينتهي " حسن دواس "، بعد تقليب مختلف الآراء، إلى أن " إيزابيل إيبرهارت" هي ابنة " ثروفيموفسكي"، معللا الآراء التي تتحدث عن غموض نسبها، بأنها محاولة لتلطيخ سمعتها ونسبها، بسبب مواقفها الجريئة من الاستعمار الفرنسي، ووقوفها إلى جانب المقهورين من سكان الجزائر الأصليين. وهو رأي لا يقدم دليلا يسكت بقية الآراء. غير أن رأيه (حسن دواس) بعدم قبول " ثروفيموفسكي " أبوته للمولودة الراجع إلى عدم إيمانه بالتقاليد والأعراف، بل والديانات، هذا الرأي يمكن عده مقبولا إلى حد ما .

غير أن الشائع في كل كتابات البيوغرافيين، أن " إيزابيل إيبرهارت" مجهولة الأب .

---

(1) Benzian Sabrina , ibid , p 10

(2) BENZIAN SABRINA, IBID , P 10

2.1.النشأة :

في **"ميران "**(Meyrin)، إحدى ضواحي " جنيف "، وفي منزل كبير جميل(Villa Neuve)، تحيط به حديقة مسيجة، وسط مساحات غابية واسعة، نشأت " **إيزابيل** " في كنف عائلة كبيرة مكونة من الإخوة، والأخوات، والأم، والمربي " تروفيموفسكي " الذي كان الصغار ينادونه " **فافا** " (vava).

لم تذهب " إيزابيل " إلى المدرسة كعادة من هم في سنها، لأن " فافا" تولى تدريسها، وتربيتها، والإشراف عليها. درسها كل معارف ذلك العصر، من فلسفة، ولغات شتى، وتاريخ، وعلوم متفرقة. ولم يقتصر الأمر على تعليمها، بل تلقت " إيزابيل " على يديه كل ما تعلق بشتى مناحي الحياة، فكان يدربها على ركوب الخيل ... وذلك ما ساعدها مستقبلا على اختراق الصحراء.

كبرت " إيزابيل "، وارتادت الثانوية في " جنيف " وهناك توسعت معارفها، وتفتحت مداركها على العالم الأوسع. سيما وأن " جنيف " كانت ملتقى عديد الثقافات، والمذاهب، والتيارات الفكرية، كانت "جنيف" حينها مستقر الكثيرين من اللاجئين القادمين من الشرق خاصة: من روسيا القيصرية، من تركيا، من العالم العربي ... وكان في المدينة مكتبة ضخمة تحوي مختلف صنوف المعرفة ." **في هذا الوسط الفكري، والمتعدد الثقافات، تفتحت إيزابيل، وتفجرت فيها رغبة الاستكشاف، وراحت تملأ الدفاتر بعديد الملاحظات في التاريخ والجغرافيا والأدب ... لقد كانت تطالع كثيرا** " [1] .

كانت " إيزابيل " لأسباب نفسية ترتدي لباسا إخوتها، وهي صغيرة، وتقلد الرجال في مشيتهم، وحركاتهم " **الشيء الذي يمنحها شعورا بالراحة والحرية أكثر، كما تقول في مذكراتها**" [2] لكن الأمر راقها، فراحت تتسكع في شوارع " جنيف " بلباس ذكوري. وظلت على ذلك، حتى لما صارت امرأة ناضجة.

([1])إيبرهارت إيزابيل: ياسمينة وقصص أخرى ، مرجع سابق، ص 18

([2]) معلم سبتي: **إيزابيل إيبرهارت اللغز الدائم**، مطبعة عمار قرفي وشركائه، باتنة الجزائر، ط1، 2012، ص 30

"كانت تقرأ القرآن ولم يتعد عمرها 15 سنة " [1]. كبرت في هذا الوسط الثقافي والديني المختلط الذي جمع بين الشرق والغرب، بين المسيحية والإسلام ... وكانت النقاشات الساخنة التي تدور في ذلك البيت تربة خصبة تعلمت فيها الجرأة، والفكر النقدي ؛ مما ساعد على تغير فكرها الغربي الأناني، وتغيرت معه حياتها اليومية الأوروبية المادية والعقائدية " **فأصبحت فتاة جريئة تكسر كل الحواجز، وتعلن ثورة على جميع المفاهيم الغربية التي كانت عصرية، ولكن كانت مادية بحتة** " [2] .

تقول عن نفسها، في مذكراتها: " **لست سوى إنسانة أصيلة، فريدة، غريبة نوعا ما، وصاحبة أحلام وأفكار، تريد أن تعيش بعيدا عن هـذا العالم المعاصر المليء بالنفاق والخداع، تريد أن تعيش حياة البدو الرحل، تحاول أن تفهم الناس، العرب، خاصة في ما عاشته، وشهدته... عندما تقف أمام روائع الخالق القهار في صحراء هادئة وحزينة** "[3].

" A 16 ans, elle aimait lire Loti, Zola ainsi que le Coran et qu'elle s'intéressait, déjà, à tous ce qui concernait l'Algérie. Elle voulait même apprendre le kabyle, ce qui est sûr, c'est qu'elle s'intéressait déjà à l'Algérie, à l'Islam et qu'elle apprit l'arabe par ses propres moyens et par des efforts personnels, à travers des dictionnaires, des guides, des œuvres littéraire qu'elle achetait." [4]

نعم، إن تعلقها الكبير بالجزائر، أرض الصحراء، جعلهـا تبذل كل الجهد في تعلم العربية، وحتى القبائلية، فقرأت القرآن، واهتمت بالإسلام، كل ذلك وهي لم تتجاوز سن 15 عاما، ذلك ما يفسر نبوغها الكبير، وتعلقها بالجزائر " دار الإسلام " كما تسميها.

مرت " إيزابيل " بمحن كثيرة وهي في " جنيف "، فقد عاد أخوها من أمها إلى روسيا، بعدما فر من الجيش الفرنسي، أما ربيب أمها فقد نقل إلى روسيا هو أيضا لاعتبارات كثيرة منها، ربما، الولادة غير الشرعية لإيزابيل، أما أخوها الثالث فقد انتحر في البيت العائلي،

---

(1) معلم سبتي، ص 30

(2) نفسه، ص 31

(3) نفسه، 30

(4) Benzian Sabrina , op.cit , p 1

وفرت أختها رفقة عشيقها إلى باريس. ولم يبق غير أخيها الصغير " أوغستان " الذي، هو الآخر، التحق بفيلق المرتزقة بـ" سيدي بلعباس " بالجزائر، حيث كان يراسلها من هناك باستمرار.

كل هذه الأحداث، أرغمتها على البحث عن مكان آخر يكون متنفسا لها، فاختارت باريس لتغيير الأجواء " **وهناك كتبت لعدة جرائد، وعملت بأجور زهيدة ... وتعرفت على عدة صحافيين وكتاب من بينهم المصري " أبو نظارة" وهو " يعقوب صنــوع" رائد المسرح المصري ... ومن خلاله تعرفت على التونسي علي عبد الوهاب الذي أصبح فيما بعد صديقها الوفي** " (1).

كان " أبو نظارة " همزة الوصل بين " إيزابيل " والشرق، فمنه تعرفت على الكثير من كنوز هذا العالم الذي كثيرا ما وصفه لها أخوها المجند في " سيدي بلعباس "، فأصبحت الجزائر تلح عليها يوما بعد آخر. وبسبب الرغبة في القطيعة مع كل ما يمت إلى الماضي التعيس بصلة، قررت " إيزابيل " ووالدتها الخروج من أوروبا بأي ثمن، " **كانت تبحثان عن مخرج، عن مكان بعيد وآمن، عن بداية جديدة وحياة سعيدة، عن وطن لمن لا وطن له، وعن أهل لمن لا أهل له، وعن عقيدة لمن لا دين له... فهل لهذا المكان من غير الجزائر من وجود؟؟** " (2) .

3.1. في أرض الحلم: الجزائر:

وصلت المرأتان مدينة " عنابة " صباح يوم من أيام ماي 1897، وأقامتا في منزل عائلة فرنسية صديقة، لكنهما سرعان ما تركتا المنزل والحي الأوروبي، واستقرتا في بيت مستأجر، وسط الحي العربي، " **وفي هذا الحي العتيق، تعرفت إيزابيل على شاب عربي مثقف يعمل كاتبا لدى القاضي، فنشأت بينهما علاقة حميمة وصداقة، أصبحت بعد مرور الأيام علاقة**

---

(1) معلم سبتي، مرجع سابق، ص 36

(2) نفسه، ص 39

حب كادت تؤتي بثمارها ... اعتنقت أمها الإسلام بعد إلحاح كبير منها ومن حبيبها، واتخذت اسما جديدا لها " فاطمة " " [1] .

عكفت إيزابيل، وهي في عنابة، على كتابة رواية " راخيل " (Rakhil)، رواية تصور علاقة حب بين شاب مسلم وفتاة يهودية، لكنها لم تكمـــل الرواية، إذ انطلقت صوب مدينـــة " باتنة " كي تتصل بصديقها الفرنسي الذي ظلت تراسله حتى قبل مجيئها إلى الجزائر، لكن بمجرد وصولها باتنة، علمت أنه في مهمة عسكرية إلى الجنوب الوهراني، فوجدت الفرصة سانحة لزيارة مدينة " تيمقاد" الأثرية، باتنة وتيمقاد ستكونان فيما بعد مسرحا لواحدة من أجمل قصصها القصيرة " ياسمينة " (Yasmina).

عادت إيزابيل إلى عنابة، وبقيت ملازمة لأمها المريضة التي توفيت في يوم من أيام نوفمبر من السنة نفسها 1897، ودفنت في مقبرة المسلمين .اضطرت بعدها للسفر إلى تونس للنقاهة، ثم تركت عنابة عائدة إلى باريس، ثم جنيف لتلازم مربيها " فافا " الذي توفي هو الآخر سنة 1899.

فقدت إيزابيل كل سند ومعين، وبقيت لا حول لها ولا قوة، تحاصرها الوحدة والحزن، وزاد من بؤسها ما حل بها من ضائقة مالية .

بعد وفاة " فافا" ركبت من مرسيليا نحو تونس قاصدة صديقها التونسي الوفي " علي عبد الوهاب " الذي وفر لها كل شروط الراحة لتسترجع عافيتها وسرورها. بقيت في ضيافة صديقها التونسي ووالدته محاطة بكل ما يريح بالها، غير أن نداء الجزائر ظل يلح عليها .

انطلق " محمود السعدي " الاسم الذي اختارته إيزابيل لنفسها بلباس فارس جزائري، وقصدت باتنة مرة أخرى. أقامت في باتنة مدة طويلة، فاستأجرت بيتا في حي الزمالة، وحصلت على حصانين اتخذتهما وسيلة لتنقلاتها العديدة في ضواحي باتنة، فزارت " لامبيز " " تازولت" حاليا، وتيمقاد، و" وادي الطاقة " وكثيرا من القرى والمداشر .

انتقلت بعد ذلك صوب بسكرة ومنها إلى توقرت، ووادي سوف التي وصلتها يوم يوم 2 أوت 1900 باسم مستعار هو (محمود السعدي) **"برغبة الإقامة الدائمة ,لانبهارها بطبيعة**

---

[1] معلم سبتي، مرجع سابق، ص 42

المنطقة وجمال عمرانها، وحسن أخلاق أهلها، وأقامت بمسكن شعبي وكتبت تقول: " إنني بعيدة عن العالم، والحضارة! ومهازلها المنافقة، إنني وحدي في دار الإسلام في الصحراء حرة، وفي أحوال صحية جيدة...الوادي، البلد الذي لا تعد قبابه ,هي البلدة الوحيدة التي أقبل العيش فيها للأبد، دائمًا. أريد شراء أرض صالحة للزراعة، وأجعل فيها جنانا وبئرًا ونخلاً "، ثم بعد هذا اشترت إيزابيل حصانًا وأطلقت عليه اسم (سوف) وبدأت في رحلاتها الطويلة في المنطقة، وقد أصبحت من أتباع الطريقة القادرية، وذلك عن طريق السي الطيب و(سي محمد الحسين) ورجال دين آخرين مشهورين في المنطقة كأولياء صالحين مثل (سي الهاشمي) و(سي محمد الليمام)، وتعرفت فيما بعد على الرقيب (الصبايحي سليمان آهني) والذي أصبح رفيقها في الحياة، حيث تزوجا طبقًا للشريعة الإسلامية، في الزاوية القادرية بالوادي، وتم العقد لإيزابيل باسم عربي هو (مريم) وهو الاسم الذي كانت توقع به بعض رسائلها، وكتبت عن زوجها سليمان: "الله قد أشفق علي، لأنه استجاب لدعائي، وأعطاني الرفيق الأمثل الذي كنت دائمًا أرغب فيــه ,والذي دونه كانت حياتي ستكون مفككة وحزينة " " [1]

في 29جانفي 1901، تعرضت لحادث أليم، وعنيف في منطقة، (البهيمة) قرب الوادي، من طرف شاب يدعى (عبدالله بن محمد) من مريدي الطريقة التيجانة، الذي وجه لها ضربة سيف أصابتها في الذراع، إصابة خطيرة، بدعوى إهانتها للإسلام، عند تشبهها بالرجال ,وفي تقمصها لزي الفرسان العرب، وعدم احترامها للشريعة التي تحرّم ذلك، وهذا دون النظر إلى دوافعها في ذلك وأحوال البلد الغارقة في الخوف والرعب، هذه الضربة أقعدتها في مستشفى الوادي أربعين يومًا، ومع ذلك فأثناء المحاكمة أشفقت على الشاب عبد الله لأنها علمت أن مدبري الجريمة، هم من عملاء الإدارة (بيرو عرب)، ودافعت عنه أمام محكمة قسنطينة في 18 يونيو 1901، ومع كل ذلك، فقد حكمت المحكمة على عبد الله بالأشغال الشاقة، أما هي فقد صدر بحقها يوم 02ماي 1901حكم بالطرد من الجزائر نظير طريقة حياتها وتصرفاتها التي كانت مريبة في نظر السلطات الفرنسية ؛ فقد جاء في بعض التقارير البوليسية الفرنسية حولها أنها جاسوسة، وأنها " **غريبة وغير عادية، فهي روسية الأصل،**

([1]) بلعرج بوداود: **إيزابيل إبراهاردت الفارسة.. عاشقة الثورة الجزائرية**، مجلة العربي الكويتية، ع 558، ماي 2005

ألمانية الاسم، جزائرية المظهر، تحلق شعرها، وتلبس لباس الفرسان، تدخن الأفيون، تسهر في المقاهي، تعاشر الأهالي ...ترسم، تكتب، تتكلم عدة لغات ... " [1] .

ربما تكون السلطات الفرنسية تنظر إليها على أنها جاسوسة، لكن الذي توجست سلطات المستعمر منه خيفة هو كتاباتها الجريئة التي كانت تفضح سياسة الاستعمار. وربما كانت حادثة محاولة اغتيالها مدبرة من قبل السلطات الفرنسية، إذا علمنا ما للزاوية التيجانية من مكانة لدى المستعمر في تلك الفترة.

ركبت إيزابيل الباخرة من سكيكدة باتجاه مرسيليا وهي تردد: **" آه.. تستطيع فرنسا أن تطردني من الجزائر، وأن لا تقبل زواجي من السبايسي الشاوي، ولكن لن تستطيع أن تمنع قلبينا من أن يتحابا، ولن تستطيع أن تتحكم في سعادتي أو شقائي، لقد أحببت الجزائر والسبايسي حبا لم يحبه أحد من قبلي ولا من بعدي، حبا مخلصا صادقا، حبا أملأ به حياتي البائسة التعيسة "** [2] .

في فرنسا شدها الحنين إلى الجزائر، وإلى سليمان، فما كان من هذا الأخير سوى أن يلحق بها، ويكون زواجهما رسميا موثقا، اكتسبت به إيزابيل الجنسية الفرنسية، مما خول لها العودة في 14 جانفي 1902.

أقامت العائلة الصغيرة في حي القصبة بمدينة الجزائر، وتحديدا بشارع السودان. وخلال تلك الفترة سنحت لها الفرصة للتنقل إلى زاوية الهامل قرب بوسعادة. كما جاءها الفرج حين تعرفت على " فيكتور باروكون" (Victor Barrucand)، الذي اكتشف موهبتها، وشجعها على الكتابة، ونشر لها العديد من المقالات، كما خصص لها مرتبا شهريا منتظما تسترزق منه.وفي الفترة نفسها تعرفت على مجموعة من الأدباء أسست معهم مجلة أدبية باسم (La grande France)

---

(1) معلم سبتي، مرجع سابق، ص 76

(2) معلم سبتي، ص 101

عملت إيزابيل مراسلة لجريدة " الأخبار "(*Les Nouvelles*) التي أسسها " فيكتور "، بعد أن انتقلت إلى مـدينة " تنس " التي عين فيها زوجهـا " سليمان" مترجمـا، وظلت تتنقـل بين " تنس " و" الجزائر ".

وفي سبتمبر سنة 1903، شقت إيزابيل طريقًا نحو عاصمة الجنوب الوهراني، (عين الصفراء)، كمراسلة لجريدة (الأخبار) مرتدية بذلة الفارس العربي ,وباسم مستعار (سي محمود)، وهذا لتغطية أحداث (المنقار وتاغيت) بولاية بشار، وأحداث قمع سكان قصر (صفيصيفة)، فكل الجرائد الصادرة آنذاك بالجزائر وفرنسا نشرت مقالات وتحقيقات وشهادات حول هزيمة الاحتلال في منطقة (المنقار) أمام مقاومة الشيخ بوعمامة الذي كان يقوم بهجمات مركزة على الجيش الفرنسي. " **وقد أدت إيزابيل إبراهاردت دورها بوعي وحنكة كمبعوثة خاصة، حيث أجرت استجوابًا مع جرحى معركة المنقار، والذين كانوا بمستشفى العين الصفراء، وكتبت عن ذلك: " هؤلاء الجرحى هم أجانب من أصحاب القبعات البيض، من جنسيات مختلفة جاءوا من فرنسا، وكادوا أن يموتوا لأجل قضية ليست لهم ولا تعنيهم ولا تعني مواطنيهم" "** [1]

وكانت إيزابيل كذلك قد نزلت ضيفة على زاوية الشيخ بوعمامة بقصر (فيقيق) (المغرب الأقصى)، والزاوية (الزيانية) بالقنادسة، علما بأن قصر فيقيق الموجود على الحدود الجزائرية المغربية، يبعد حوالي 5 كلم عن مدينة بني ونيف , ويوجد فيها منذ القدم زاوية جد الشيخ بوعمامة (زاوية سيدي عبد القادر بن محمد). وأثناء المقاومة شكلت القاعدة الخلفية لمواجهة العدو، وتعتبر كذلك مركز قيادة جيشه . " **ورفقة (سي بن الشيخ) مقدم زاوية (سيدي سليمان بوسماحة) ببني ونيف، التقت إيزابيل الشيخ بوعمامة، مع عدم الإشارة إلى ذلك في كتاباتها حتى لا تتعرض للنفي أو الضغوط ,ولكنها أوحت أنها كانت قريبة من محيط بوعمامة، فكتبت مثلا في كتابها (مذكرات الطريق): (التقيت مع السي محمد بن لمنور المدعو سيدي أحمد ابن عم وصهر بوعمامة ,وأرى هذين الرجلين (أي سي بن الشيخ،**

([1]) بلعرج بوداود، مرجع سابق.

وسيدي أحمد) في عمق وجهيهما اللطيفين، غوامض هذين الرجلين ذوي الروح المغلقة والإرادة العنيدة والمتوجهة نحو هدف واحد خدمة بوعمامة) " [1]

وكصحفية حصلت على التصريح من القيادة العسكرية للسماح لها بالذهاب والإقامة (بالزاوية الزيانية) بالقنادسة، قرب بشار، وتحت اسم مستعار (سي محمود ولد علي) الشاب الأديب التونسي، والتقت بمقدم الطريقة الزيانية (سي إبراهيم بن الشيخ) وقد أقامت في هذه الزاوية مدة شهرين (يونيو، يوليو 1904) لأجل التأمل والذكر، حيث كتبت: **(إنني نزلت ضيفة عند أهل هذه الزاوية، وتمتعت بصمت منازلهم ووفروا لي كل الهدوء، ظل من السلم دخل عمق روحي).** [2]

وعند رجوع إيزابيل من الزاوية الزيانية بالقنادسة، ومرورًا بمدينة بني ونيف ،غشيتها الآلام والحمى فوصلت عين الصفراء ودخلت إلى المستشفى مدة 15 يومًا.

4.1. النهاية المأساوية:

وفي 21 أكتوبر 1904، ويوم خروجها من المستشفى، وفي الساعة التاسعة والنصف التقت بزوجها "سليمان آهني" في منزلهما ذي الطابق المستأجر في وسط المدينة، لكن الفيضانات التي أغرقت جانبًا من المدينة، جعلت النهاية للمرأة مأساوية، بالنظر إلى سرعتها الخارقة التي أطاحت بمنزل الفقيدة التي عثر على جثتها بعد يومين من البحث تحت الأنقاض. وسجلت في هذه الحادثة ست وعشرون ضحية وعثر على مخطوطاتها التي سلمت من طرف الجنرال" ليوتي" (Lyautey)إلى مؤلفها (فيكتور باروكون) " **وقد بعث ليوتي إلى وكالة هافاز ببرقية سريعة نقلتها الصحافة في الجزائر وفرنسا:(جثة إيزابيل عثر عليها تحت الأنقاض) وهذا مقتطف من البرقية كما وردت بجريدة (لاديباش ألجريان) بخصوص وفاتها: (عثر في العين الصفراء صباح 27 أكتوبر 1904 في الساعة التاسعة والربع على جثة إيزابيل إبراهاردت تحت الأنقاض). وسيبقى اسمها مسجلا في تاريخ الأدب الجزائري الحديث، ففي جو جنائزي وبحضور الجنرال ليوتي دفنت**

---

(1)بوداود بلعرج.

(2)بوداود بلعرج.

إيزابيل بمقبرة المسلمين (سيدي بوجمعة بالعين الصفراء). فقد كانت محبوبة بالجنوب الوهراني بشجاعتها وأعمالها وحبها لعين الصفراء ,واطلاعها على الثقافة الإسلامية. وعلى قبرها الذي يتوافد عليه السياح في المنطقة نقرأ باللغتين ((سي محمود/إيزابيل إبراهاردت) زوجة أهني سليمان توفيت في سن 27 .وقال عنها الجنرال ليوتي: كانت الشخص الوحيد الذي يلفت كثير الانتباه إنها المرأة العاصية ...والتي هي خارجة عن كل حكم سابق وعن كل تشيع وعن كل عبارة مبتذلة، والتي تمر عبر الحياة بقدر ما هي حرة من كل شيء كالطائر في الفضاء يا لها من متعة " [1]

5.1. من أعمال إيزابيل إيبرهارت:

رغم قصر عمرها، فإن إيزابيل إيبرهارت تركت أعمالا كثيرة، تنوعت بين القصة، والرواية، والرحلة، واليوميات ،وهي جميعها سجل تاريخي لتلك الفترة من الزمن الاستعماري، لعل أهمها ما يلي:

1.Dans l'ombre chaude de l'Islam (أدب الرحلة)
2. Ecrits sur le sable(حكايات)
3. Récits, notes et journaliers (ملاحظات ويوميات في الرحلات)
4. Vagabondage (مجموعة من ذكريات حياتها في تونس)
5. Retour au sud (ملاحظات في الطريق إلى الجنوب الوهراني)
6. Yasmina et autres nouvelles algériennes(قصص قصيرة)
7. Un amour d'Algérie(قصص قصيرة)
8. Au pays de sables (قصص قصيرة)
9. Ecrits intimes (مراسلات)
10. Trimardeur (رواية)

(1) بلعرج بوداود، مرجع سابق

2.دوافع الرحلة وخط سيرها:

أ. دوافع الرحلة:

من بين أهم كتابات " إيزابيل إيبرهارت " التي حظيت باهتمام الباحثين، كتابها " في ظلال الإسلام الدافئة " (Dans l'ombre chaude de l'Islam)، وهو مجموعة من النصوص التي تصف فيها رحلتها إلى زاوية " لقنادسة"، تلك الزاوية التي تقع بمدينة " لقنادسة " بولاية بشار. يعود تأسيس الزاوية إلى المدعو " **محمد بن عبد الرحمن بن أبي زيان** " خلال القرن 17م، وباسمه سميت الزاوية " الزيانية ".

كانت هذه الزاوية مركز أخوية صوفية، وكان لها تأثير واسع في المنطقة، وكانت علاقات مريديها مع أتباع الزاوية القادرية، التي انتسبت إليها " إيزابيل "، جيدة جدا. ثم لا ننسى أن " الشيخ بوعمامة " الذي قاد الثورة بدءا من سنة 1881 حتى سنة 1904، وهي السنة نفسها التي زارت فيها الرحالة المنطقة .

في تلك الفترة كان الشيخ " بوعمامة " مقيما غير بعيد عن المنطقة في " فيقيق" بالأراضي المغربية، مما يوحي بأن سبب الرحلة، إنما هو الرغبة في اللقاء بهذا السيخ الذي حير العقول. ألم يكن اللقاء ببوعمامة وراء رحلة " دي موباسان" ؟؟، يقول الباحث، والمتخصص في كتابات " إيزابيل إيبرهارت" " بوداود بلعرج" عن ذلك: " **وفي شهر أغسطس 1904 أفلتت إيزابيل إبراهاردت من المراقبة العسكرية. والكتاب المدون عن سيرتها، لم يثبت أين كانت أثناء هذا الشهر، إنها نقطة استفهام في حياتها، ولكن علينا قراءة ما بين السطور في (مذكرات الطريق) كتبت تقول: الخادم الوفي لبوعمامة، (أي مقدم زاوية سيدي سليمان بوسماحة) وللمرة المائة منذ معرفتي به قال لي: سي محمود يجب عليك الذهاب لرؤية الشيخ بوعمامة في الزاوية البدوية قرب جبل الثلج. وكما نعلم أن أماكن الزوايا معروفة ولا يوجد زوايا متنقلة، وحسب شهادة (سلام فرجي) يقول: إنه رافقها أثناء الصيف على حصان من زاوية سيدي سليمان بوسماحة (بني ونيف) إلى فندي على بعد 40كلم وبقيت مع الشيخ بوعمامة نهارًا كله.**" [1]

---

(1) بلعرج بوداود، مرجع سابق .

غير أن الأمر الذي يبعث على الحيرة: لماذا لم تشر الكاتبة إلى ذلك في كتاباتها وتصرح به؟؟ يجيب الباحث نفسه :" **ورفقة (سي بن الشيخ) مقدم زاوية (سيدي سليمان بوسماحة) ببني ونيف، التقت إيزابيل الشيخ بوعمامة، مع عدم الإشارة إلى ذلك في كتاباتها حتى لا تتعرض للنفي أو الضغوط ,ولكنها أوحت أنها كانت قريبة من محيط بوعمامة، فكتبت مثلا في كتابها (مذكرات الطريق): التقيت مع السي محمد بن لمنور المدعو سيدي أحمد ابن عم وصهر بوعمامة ,وأرى هذين الرجلين (أي سي بن الشيخ، وسيدي أحمد) في عمق وجهيهما اللطيفين، غوامض هذين الرجلين ذوي الروح المغلقة والإرادة العنيدة والمتوجهة نحو هدف واحد :خدمة بوعمامة.** " [1]

لم يبق أمامنا سوى التسليم بأن الدافع الرئيس الذي يقف وراء هذه الرحلة، بل يقف وراء استقرار الرحالة بمنطقة الجنوب الوهراني كمراسلة حربية لجريدة (*Les Nouvelles*)، إنما هو سبب واحد: الرغبة في لقاء بوعمامة. هذا الدافع يلقي بظلاله على دوافع فرعية، كتتبع أخبار الحرب الدائرة رحاها في المنطقة، والرغبة في زيارة الزاوية الزيانية بقنادسة.

ب. خط سير الرحلة:

انطلقت الرحالة من " عين الصفراء " ذات يوم من أيام ماي 1904 نحو الجنوب الكبير " **أنا لن أغادرها مرة أخرى لأعود كئيبة نحو التل التافه، وهذا يكفي لأن أراها بأعين أخرى، حين أرحل، لن يكون ذلك إلا لكي أذهب إلى مكان أبعد هناك .. في الجنوب الكبير أين تغفو الحمادات تحت الشمس الأبدية** " [2] .

تصل بعد مسير يوم إلى " سيدي بوجمعة " **حيث قبة الولي الصالح التي تشرف على طريق " بني ياهو " و" صفيصيفة "، " ... تتألق شمس الصباح في لحظاتها الأولى في الأفق كأنها زهرة عظيمة قرمزية، يشتعل كثيب الرمل المرصع بباقات الحلفاء حول قبة سيدي بوجمعة** " [3] .

([1]) بلعرج بوداود، مرجع سابق.

(1) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** أو **في ظلال الإسلام الدافئة**، تر: عبد القادر ميهي، مطبعة مزوار، الواد، الجزائر، ط1 2012، ص 12.

([3])نفسه، ص 19.

في " بني ونيف " تقضي الرحالة ليلة استراحة ليلة استراحة أمام المقهى العربي " **بعد ليلة مقمرة قصيرة قضيتها على حصيرة أمام المقهى العربي في قصر بني ونيف، استيقظت مرحة أشعر بتلك النشوة الخفيفة التي تعتريني كلما نمت في الهواء الطلق، تحت سماء فسيحة، وحين أهم بمواصلة الطريق** " [1] .

تترك الرحالة خلفها " بني ونيف " مارة بجبل " قروز " وواحة " ملياس " " **مررنا عبر واد من الحجارة السوداء بين جبل قروز الذي لا يزال مقزحا تماما وهضاب القارة المنخفضة المحترقة. على اليمين تمر أمامنا واحة ملياس الغافية بسواقيها وأحواضها الصافية** " [2]

وصلت الرحالة محطة قرية " بوعياش " التي هي تجمع أكواخ يسكنه عمال السكة الحديدية " **كان علينا أن نصل حتى مدخل قرية بوعياش، لنتمكن من رؤيتها لتشابه لونها بلون الأرض. عشرة أكواخ من الخشب، متراس مشيد بالطين المصفر، ومائة من القربيات (gourbis)التي لا شكل لها** " [3] .

ثم، رفقة الدليل، تقطع الرحالة مضايق " بن زيرق " المخيفة، ممر الجوالين المتربصين " **تشبه بن زيرق الأماكن المشؤومة التي نراها في الكوابيس** " [4]. لتتوقف برهة من الوقت لتناول الغداء بـ"حاسي النص " التي تقع في منتصف الطريق **" في حاسي النص، في منتصف الطريق، تناولنـــا غداءنـــا، ثم ذهبنا نحتسي القهوة عند مخازنية مركز بلهواري** " [5] .

وصلت الرحالة " بشار " بعد رحلة شاقة، فقد كانت الطريق طويلة وحزينة، و" **في بشار، كما في كل القصور، كل شيء ينام وينهار... ينضب النشاط في القصور وينطفئ ببطء،**

---

(1) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 23

(2) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 24.

(3) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 28.

(4) نفسه، ص 34.

(5) نفسه، ص 36

وتنضب معه الطاقة البشرية، ويطغى سبات الاحتضار الثقيل على الحياة الحضرية المتعبة ومحاولاتها المجهضة في وسط الصحراء الموقوفة على البدو" [1] .

بعد ليلة في بشار، غادرت الرحالة ومرافقها الذي أوصى به قائد الإخوانية الزيانية ببشار متجهين صوب " قنادسة "، " **في الأفق، ظهرت القنادسة غارقة في بخار وردي: بقع سوداء للأشجار المتناثرة هناك، غابة النخيل التي ترسم في خط أزرق، وفوق الرمال، مئذنة مهدمة تظهر في الشمس التي ما زالت مائلة وكأنها من البرونز الأشقر** " [2] .

وأخيرا .. تصل الرحلة إلى مبتغاها ومنتهاها " **تنتصب قنادسة أمامنا، قصر كبير مبني بالطوب الداكن اللون، تتقدمه إلى اليسار بساتين جميلة خضراء جدا. ينساب القصر في فوضى لطيفة من الشرفات المتراكبة على منحدر مريح. إلى اليمين يرتفع الكثيب الذهبي اللون، الشديد الانحدار، تتوجه الحجارة** " [3]. بعد مراسم الاستقبال، على عادة القائمين بشؤون الزاوية، سيقت الرحالة إلى غرفتها التي خصصت لها ... وبعد أن خرج العبد المكلف براحتها، مدت رجليها قائلة: " **سأغفو في هذه الخلوة مثل الكثيرين ممن سبقني من المسافرين** " [4]

4. صورة الجزائر والجزائري في "الطريق إلى قنادسة " :

المتتبع لتفاصيل هذه الرحلة التي امتدت بين " عين الصفراء " و" القنادسة " سيلاحظ حتما تلك العين الدقيقة التي حاولت التقاط كل التفاصيل، مركزة على الطبيعة والأماكن، والأشخاص، ذلك أن الرحالة كانت في حالة انتشاء وهي تتبع خط سير رحلتها، كانت تمضي قدما، موغلة في الصحراء، هاربة من التل ومدنه، معلنة: **" أنا لن أغادرها (أي عين الصفراء) مرة أخرى لأعود كئيبة نحو التل التافه، وهذا يكفي لأن أراها بأعين أخرى."** [5] ثم تضيف :" **حين أرحل، لن يكون ذلك إلا لكي أذهب إلى مكان أبعد ..**

---

(1) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 41.

(2) نفسه، ص 49.

(3) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 50

(4) نفسه، ص 54

(5) نفسه، ص 12

هناك... في الجنوب الكبير أين تغفو الحمادات تحت الشمس الأبدية " [1] إذن، فالرحلة هروب من المدن الصاخبة، من التل الجزائري، وقبله من كل أوروبا، صوب الفضاء الرحب، صوب الشمس الأبدية .

تستوقفنا في الرحلة صور شتى، للأرض، والمكان، والإنسان، صور لا نجد فيها للوهلة الأولى ذلك الانتقاص من قيمة العربي، مثلما وجدنا مع " دي موباسان "، رغم أن الرحلتين كانتا صوب الشمس والرمل، بل نجد تعاطفا واضحا مع العربي، مع أرضه القاحلة، ومعتقداته، وعاداته، وكل تفاصيل يومياته.

لذلك، ارتأيت أن أسلك المسلك نفسه، والمنهجية نفسها في التعامل مع تلك الصور، كالذي كان مع رحلة " دي موباسان ".

1.4. صورة الجزائر ..الطبيعة والمكان:

ا. <u>سحر الطبيعة</u> :

من " عين الصفراء " إلى " القنادسة " تطالعنا لوحات فائقة الجمال، لطبيعة ساحرة، لونتها الرحالة بمشاعرها الدفاقة، وحسها المرهف، وقدرتها الفائقة على التصوير .

فمن إشراقة الشمس، وطلوع النهار، وتلون الأفق الصحراوي بالذهب، إلى السماء الصافية الزرقاء، إلى الجبال والمضائق، إلى الماء والواحات، إلى السراب الخداع، انتهاء بتلك الأماسي الساحرة، ومجيء الليل الهادئ، بنجومه الساطعة... من كل ذلك تتشكل بقلم الرحالة الواصفة صور فائقة الإدهاش .

يطلع على الرحالة، وهي في بعض مسيرها، نهار صيف رائع، فتبدو السماء صافية لا يعكر صفاءها سحب ولا ضباب. تلون الرحالة هذه الصورة بأحاسيسها قائلة: **" طلع النهار، نهار صيف رائع، بلا سحب ولا ضباب. بددت النسمة التي تهب منذ البارحة، باردة ندية، الغبار والبخار. تنفتح السماء فسيحة لا نهاية لها، شفافة خضراء كأنها محيط هادئ "**[2].

([1]) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 12

([2]) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 23

كان النهار يرتفع رويدا رويدا، أجالت الرحالة بصرها في البعيد: **" في الأفق، في كل هذا الأخضر الذهبي، يصعد وميض أكثر اصفرارا وتوهجا ليصبح برتقاليا ناصعا ثم أحمر"** [1] كان الليل ينسحب هادئا تاركا للنهار فسحته، وكان القمر يتوارى في الغرب مفسحا للشمس مكانه **" في جهة الغرب المظلم، ينزل القمر، أدكن كأنه وجه ميت "** [2]. كان القمر، وهو يتوارى، **" يسبح في سمـــــاء مخضرة، وينزلق نوره البـــاهت الحزين على حجــارة الدرب السوداء"** [3] .

يرتفع النهار، ويشتد الوميض، وتتوهج الشمس، ويمتد البساط الذهبي، لكن **" فجأة يضطرب الأفق ويتغير شكل الأماكن البعيدة، ويختفي الرمل الأشقر. يمتد أمامنا بساط من الماء الأزرق الذي ينعكس فيه ظل النخيل ."** [4] ما الذي حدث؟ وهل يعقل أن يحوي المكان بحيرات زرقاء بهذا الحجم؟ بحيث **" يلمع الماء تحت الشمس صافيا إلى ما لا نهاية "** [5]، يأتي الجواب من مرافق الرحالة، مصحوبا بضحكة طفولية **" سي محمود، انظر كيف أن السراب يسخر منا ومن ظمئنا الشديد، لو أننا لا نملك إلا هذا الماء اللعين لنرتوي، فما علينا إلا أن نموت عطشا، أو نرضع أثداء الكلبة "** [6] .

ليست أثداء كلبة، كما يتبادر إلى الذهن، لكنها هندسة جيولوجية عجيبة، نتوءات صخرية في الجبل على شكل أثداء كلبة **" مررنا على حافة سلسلة مزدوجة من الربى ذات المظهر الطريف والغريب، ربما من اللائق أن يتعلم المرء من السفر، لذلك سألت رفيقي عن تسمية هذه الهندسة الجيولوجية العجيبة. انظر جيدا، قال لي، وستعلم لماذا يقول الناس هنا: بزازل الكلبة "** [7]. Regarde bien, dit-il, et tu sauras pourquoi les gens d'ici disent les *Bezaz el Kelba* (mamelles de la chienne)

---

(1) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 23

(2) نفسه، ص 23

(3) نفسه، ص 33

(4) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 37

(5) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 37

(6) نفسه، ص 37

(7) نفسه، ص 36

تختفي البحيرة الوهمية الغريبة، لكن في البعيد بدأ يرتسم منظر مغر جدا، إنها الواحة، التي وصلتها الرحالة بعد مسير يوم حار، شاق. أخيرا أمكن اللجوء إلى ظل ظليل **" وصلنا أخيرا تحت أقواس النخيل المتراصة ... يا لها من راحة نفسية، وفرحة جسدية، تماما حين دخلنا في الظل أين تهب نسمة خفيفة ندية قليلا، وأين شعرت أعيننا بالراحة، ونحن ننظر إلى أخضر النخيل وأزهار الرمان الدامية، وباقات الغار الوردي "** (1). وسط هذا الديكور الصحراوي، حيث يلتقي الماء بالخضرة، بالرمل والحرارة، يكون الصمت سيد المكان، صمت يبعث في النفس طمأنينتها **" في هدوء هذه الباحة المعزولة في الغابة، تتمتع العظايا التي لا حصر لها، والحرابي المتغيرة الألوان بالتمدد على الحجارة في الأماكن المشمسة. لا عصفور يغني، ولا حشرة تطن. يا له من صمت نافع. كل شيء ينام نوما عميقا ثقيلا، وتنساب أشعة الشمس المتناثرة بين جذوع النخل العالية كأنها شعر وهمي "** (2). أما داخل التجمعات السكانية **" في البساتين، تحت أشجار الرمان الكثيفة، وفي ظل أشجار التين غير الصحي، توجد أماكن لطيفة جدا، تضفي أقواس النخيل الخضراء المزرقة شيئا مـــن غرابة الغابات الحقيقة. تهمس سواقي الري على العشب المنبسط، ومن كل مكان تصعد أصوات ضفادع الجنوب الحزينة، نغمة فريدة تتكرر إلى ما لا نهاية، وتصل حتى الكثبان العارية في آخر ساقية يغمرها الرمل "** (3).

وحين يأتي المساء الصحراوي يتبدى الجمال والسحر في أبهى ما يمكن أن يكون عليه السحر، **" مساء أحمر يخيم على السهل المقفر الذي يغمره بخار دام "** (4)، ثم يقبل الليل، ليل الصحراء الهادئ **" ينام الليل الآن، أزرق تماما، في صمت وهدوء الوادي ... يسكت الضجيج، وتنطفئ الأضواء الأخيرة. نمت وأنا أشعر براحة لا حد لها "** (5). وحين تستيقظ الرحالة يفاجئها السحر مرة أخرى **" نمنا في موقع ساحر. تتدلى من أغصان الشجيرات البرية أزهار في عناقيد بنفسجية فوق تموج أشجار الحلفاء الناصع، أين ترسم**

---

(1) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 39

(2) نفسه، ص 39

(3) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 42

(4) نفسه، ص 43

(5) نفسه، ص 32، 33

أزهار الخزامى والأفسنتين بقعا فضية عريضة. في ظل أشجار المصطكى العالية تنثر أزهار أخرى نجومها الصغيرة البنفسجية الفاتحة اللون. بذخ ساذج مــن الإزهار والحياة النباتية في عمــق الحمــادة " [1]

وعموما، فإن اللوحـــات التي تصف طبيعـــة المنطقة الممتدة بين " عيــن الصفراء " و" القنادسة " زاخرة بالسحر، دقيقة في الرسم، لا تكاد تستثني من الطبيعة شيئا. إنها لوحات تحيل تلك الأصقاع التي تكاد تنعدم فيها الحياة إلى نبض من الجمال، ذلك أن الرحالة كانت ترسم المناظر بقلبها وشعورها قبل أن ترسمها بعينها وقلمها. فجاءت المناظر فاتنة فتانة، تبعث في القارئ رغبة ملحة في السير على تلك الدروب، والمرور عبر تلك المضائق، والنوم تحت تلك السماء .

ب. روعة المكان:

المكان هو غاية الرحلة القصوى، وهدفها المنشود. ومن الواجب الأوكد على الرحالة أن يقدم المكان في رحلته تقديما يجعل القارئ يسيح معه في تلك الجنبات من الأرض. ومكان هذه الرحلة ينحصر في نطاق جغرافي ضيق ممتد بين " عين الصفراء " وانتهاء بـ " القنادسة "، مرورا بنقاط توقف عديدة .

وتكاد تكون الأمكنة التي ذكرتها نصوص هذه الرحلة متشابهة في كثير من جوانبها، لكونها تنحصر في مجال جغرافي ضيق جدا، هو الجنوب الوهراني، بل هو حيز من هذا الجنوب الوهراني، وبتتبع المسافة الفاصلة بين نقطتي الرحلة ابتداء وانتهاء، نجدها لا تتعدى 26 كيلومترا بين "عين الصفراء" و"صفيصيفة "، ثم حوالي 80 كيلومترا بين " صفيصيفة "، و" بني ونيف "، ثم ما يقارب 90 كيلومترا بين " بني ونيف " و" بشار "، ثم أقل من 20 كيلومترا بين " بشار " و" القنادسة ". كل ذلك بمسار يتجاوز قليلا الـ 200 كيلومتر، وهي مسافة جد قليلة إذا قورنت برحلات أخرى، يصل مدى بعضها آلاف الكيلومترات، فقد قطع ابن بطوطة في رحلته، حسب حساب بعض الدارسين، 100.000ألف كيلومتر.

---

[1] إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 33

أول ما يصادفنا من أمكنة في هذه الرحلة منطلقها، الذي كان من " عين الصفراء "، والتي " **هي بالتأكيد العاصمة الصحراوية الصغيرة للإقليم الوهراني، متوحدة في واد رملي بين رحابة ورتابة الهضاب العليا وأتون الجنوب** " [1]. إنها كمعظم المدن الواقعة على عتبات الصحراء الكبرى، مدن أسسها الأوائل في مضائق الوديان أين يتوفر الماء .

تتنقل الرحالة، وهي تقدم لنا المدينة، " **في دروب طويلة تحف تموجات الكثيب، بين أشجار الحور ذات الجذوع البيضاء**"[2] مبدية سعادتها وإعجابها بخضرة المدينة، ربما لأنها شيء نادر في الجنوب. " **كم أحب ذلك الاخضرار الكثيف لجذوع أشجار التين المليئة حياة وحليبا مرا، المغضنة كأنهـــا جلد فيل، والتي تطن مـــن حولها خراشيم الذباب الذهبي اللون**"[3]. حتى الذباب بدا عنصرا من عناصر الجمال، بعد أن كان مرادفا للقذارة.

تتبع الرحالة الدرب الرملي"**لينتهي فجأة في أسفل الكثيب الناصع البياض الذي يبدو وكأنه من غبرة الذهب الدقيقة**"[4] هذه الكثبان التي صنعتها الريح التي تلعب في الفضاء بكل حرية. ثم ترفع بصرها حيث الربوة في جانب من جوانب المدينة " **في الأعلى تماما، ينتصب بالصدفة، برج مصفح محمر، على ربوة أكثر استقرارا بنواتئها الصخرية السوداء، يرعى ويحرس الوادي بنظرة لا مبالية**"[5].

وككل المدن الجزائرية في تلك الفترة، كان في " عين الصفراء " شوارع للأوروبيين، وأخرى عربية، كانت هناك مقاه أوروبية، وأخرى للعرب، غير أن الرحالة لم تقل شيئا عما هو أوروبي رغم وجوده، ربما لأنها لم تطأ قدماها تلك الشوارع، ولا تلك المقاهي، فاكتفت بالحديث عما هو عربي: " **عادت لي، وأنا في الشارع العربي الوحيد في القرية، مشاعر**

---

(1) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 12
(2) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 13
(3) نفسه، ص 13
(4) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 13
(5) نفسه، ص 13

الهدوء التي نحس بها ونحن في بيتنا " [1]. ثم تضيف " **بجانب قضبان الحديد لنافذة المقهى العربي، وحول كؤوس النعناع، تجمع الناس شيئا فشيئا ."** [2]

تستفيض في وصف المقهى العربي قائلة: " **قاعة مربعة الشكل، مطلية باللون الأزرق الباهت، تزينها مأطورات وردية. إلى اليمين، في مؤخرة القاعة، وجاق من الجبس مسود من كثرة الدخان، وعلى الرفوف الخشبية طيسان وكؤوس وأطباق صينية. تملأ المقهى مصاطب من الخشب وطاولات عادية من الحديد الصدئ. يغفو طير سجين في قفص... يتنقل القهوجي، وهو يتحزم بفوطة حمراء وخضراء، ويقدم مشروبا ساخنا على الطبق، وفي كل مرة يذكر عاليا اسممن طاب الشاي ويدعو له بالبركة من عند الله."** [3]

مما يلفت نظر متتبع نص الرحلة ذلك الحضور الملح لقباب الزوايا، فمن قبة الولي " سيدي بوجمعة " " **الصغيرة التي تشرف على طريق بني ياهو وصفيصيفة** " إلى قبة " سيدي سليمان" الكبيرة البيضاء التي ترتسم ذهبية على نحاس السماء التي ما زالت خضراء، إلى قبة " **لالة عيشة التي تتزين بمسحات وردية، كأنها غشاء من الحياء** " [4] إلى قبة " لالة كلثوم " التي تنتصب في جانب من قصر "القنادسة " في وسط ما يشبه الباحة أين توجد بعض القبور.

لم تستثن الرحالة في وصف رحلتها تلك المحطات التي استوقفتها، منها " بوعياش " التي هي قرية صغيرة، " **عشرة أكواخ من الخشب، متراس مشيد بالطين المصفر، ومائة من القربيات التي لا شكل لها، مشيدة بالحطب والأعشاب الشائكة أين يسكن المغربيون الذين يعملون في السكة الحديدية. على بعد مائة متر، يختلط كل هذا بأشجار الحلفاء والغبار ؛ فيبدو المكان خاليا أكثر من الأماكن الأخرى** " [5]

---

(1) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 14

(2) نفسه، ص 15

(3) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 16، 18

(4) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 64

(5) نفسه، ص 28

بعد محطة" بوعياش " تأتي مضايق" بن زيرق " الموحشة المخيفة " **يا لها من رؤية حزينة لا تنسى عند مخرج المضيق، منظر أكثر غما، وأكثر حزنا من كل الديكورات العارية في الجنوب ينبسط أمام أنظارنا** " [1]. ربما، هو المكان الوحيد الذي جاء ضاقت نفس الرحالة به ذرعا، وأحست فيه بالحزن، والخوف " **بلد فظيع، بلد للمنفى، ومأوى لمدعي الرؤى وكتائب الموت** " [2] هو في حقيقته حي صغير يأوي بعض العمال الذين جمعتهم الخصاصة من كل حدب وصوب، الأوروبيين كما العرب " **لا يوجد في الحي سوى بعض المقاهي العربية. في الضفة المقابلة للواد، تصطف الصلبان الخشبية للمقبرة المسيحية** " [3] .

قبل محطـــة النهاية بـ " القنادسة "، كـانت هنــاك محطة "بشـار " بجميع ضواحيهـــا " **بشار، تعاقدة، كولومب، تختلط هذه الأسماء كلها. في الحقيقة بشار هواسم المنطقة واسم الجبل الذي يسد الأفق أيضا. تعاقدة، هو القصر وغابة النخيل العليا التي تشرف على واقدة. أما كولومب فيشير إلى الحي الذي ما زال في طور البناء** " [4]

بشار ككل القصور التي تنتشر في الناحية، دائما هناك المنظر نفسه يتكرر: الكثبان الرملية، الوادي، المنازل المشيدة من الطوب، الأسوار الرمادية المرتفعة، الأبواب المنخفضة المقوسة، غابات النخيل. تقول الرحالة في وصف قصر "تعاقدة ": " **على ضفة الواد، خلف المقابر الكبيرة الفسيحة أين تمسح الريح وخطى الجمال القبور شيئا فشيئا، يوجد قصر تعاقدة الذي تعلو جوانبه أبراج مربعة الشكل، وأسوار رمادية مرتفعة ليس بها أية فتحة، والتي ندخلها عبر أبواب منخفضة مقوسة ... في داخل القصر، سلكنا أزقة كلها أطلال وممرات طويلة مغطاة مظلمة** " [5]. تقارن الرحالة بين هذا الطراز المعماري، وما رأت في " فيقيق " المغربية التي لا تبعد سوى مسافة قصيرة. والنتيجة أن تراصف" فيقيق " جميل جدا، تقول عن ذلك: " **أين هو تراصف فيقيق ومنحنياته الجميلة ؟ هنا، إنه ركام. المنازل**

([1]) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 33
([2]) نفسه، ص 34
([3]) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 34
([4]) نفسه، ص 38
([5]) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 41

العالية المشيدة من الطوب تتراكم فوق بعضها البعض وتتخطى الشوارع " [1]. كأن هذه القصور ورشات للبناء، **" ما زالت فوضى البناءات غير المكتملة ومواد البناء وركام الحجارة تطغى على مركز كولومب بعد. ما زالت البنايات البشعة المشيدة من الطوب والمطلية بالتربة الصفراء قائمة كما في كل مراكز الجنوب الوهراني ... أكواخ مبنية على عجل لتستقبل المطاعم والمتاجر والمقاهي العربية "** [2] إنها فعلا ورشات كبيرة مفتوحة للبناء **" في الأعلى، متراس بشار وجدرانه المنخفضة المبنية بالآجر، وأبوابه العريضة المحروسة على الدوام، مواد البناء، ركام من الحجارة وفوضى بلدة في طور البناء "** [3]

لا تكاد تتميز نقطة الوصول عن باقي المحطات إلا في بعض التفاصيل الهامشية. لم تكن " القنادسة " سوى **" قصر كبير مبني بالطوب الداكن اللون، تتقدمه إلى اليسار بساتين جميلة خضراء جدا. ينساب القصر في فوضى لطيفة مــن الشرفات المتراكبة على منحدر مريح. إلى اليمين يرتفع الكثيب الذهبي اللون، الشديد الانحدار، تتوجه الحجارة "** [4] تحيط بالقصر قبور لا حصر لها، تناثرت في الرمل الذي يلتهمها تدريجيا. **" هي بمثابة هامش احتياطي لمساكن الأحياء، كل مدن الصحراء تبدأ بالمقابر "** [5]

خارج القصر، تتجلى روعة المكان . إنه جبل النور كما تسميه الرحالة، " البرقة " ذلك الكثيب الغريب الذي يطل على قصر " القنادسة "، تعلو الكثيب كتل صخرية في شكل أهرامات. يبدو منظر القصر من ذلك العلو فتانا **" كل شيء هنا يتغنى بالألوان، يحيا وينفعل تدريجيا تحت الشمس "** [6]. الوادي الضيق الذي يشبه العقيق، ثم الحجارة السوداء، ثم السبخات المالحة التي تتخللها غابات النخيل الظليلة، ثم الكثبان التي تتشابك...

---

(1) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 41

(2) نفسه، ص 41

(3) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 44

(4) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 50

(5) نفسه، ص 50

(6) نفسه، ص 64

2.4. صورة الإنسان:

عكس صورته في رحلة " دي موباسان "، تبدو صورة الجزائري في رحلة " إيبرهارت " صورة إيجابية، فلا تهكم بهذا العربي الذي سلبت كرامته بوصفه " أنديجان "، ولا حقد عليه، ولا صور نمطية تقدم عنه. إنما هو كما هو في أرضه: صحرائه، خيمته، قصوره.

وقصد الوقوف على تفاصيل هذه الصورة لا بد من تقسيمها أصنافا وأنواعا، مثلما سبق الفعل مع صورة الجزائري في " رحلة إلى الجزائر .. إلى بلاد الشمس " .

صورة الإنسان في الرحلة الإيبرهارتية تعطينا إلماما بتلك الطبقات التي كان عليها المجتمع الصحراوي الجزائري في منطقة الجنوب الوهراني. مجتمع طبقي تلتقي فيه أجناس مختلفة، من عرب، وبربر، وزنوج، ويهود... وفرنسيين وإسبان. مجتمع فيه مقدمو الزوايا، والمريدون. مجتمع فيه البدو والحضر .

ا. **المغاربة و"المزنطين":** لعل أول جنس يصادفنا في نص الرحلة إنما هم المغاربة، أولئك الذين قدموا من الجنوب الشرقي للمغرب، بحكم التجاور، وقرب الجنوب الوهراني من المغرب. التقت الرحالة بهؤلاء لدى استراحتها في مقهى من المقاهي العربية المبثوثة في مختلف المحطات على طول الطريق " **هؤلاء هم من قبيلة بني قويل من شط تيقري. وهم يرتدون خرقهم البالية المحمرة ونعالهم ...** " (1)

وهؤلاء المغاربة أجناس: فيهم مغاربة الشمال " **وجوه ملتحية ملؤها الحيوية، سمات كثيرة مثيرة للإعجاب، ملامح متناسقة تنم عن الجد وأعين واسعة شرسة** " (2) وفيهم أيضا بعض البربر الذين يشبهون سكان بلاد القبائل " **لاحظت من بين هؤلاء العمال، بعض البربر الشقر عيونهم زرقاء، من ذلك الجنس الذي نصادفه في بلاد القبائل. الأكيد أن من وراء هذا الشكل، دمهم القادم من بلاد الوندال البعيدة** " (3). وهناك القادمون من منطقة " فيقيق" و" تافيلالا " تقول عنهم الرحالة: " **وحدهم الفيقيقيون وأهل تافيلالا احتفظوا**

---

(1) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ص 16

(2) نفسه، ص 29

(3) نفسه، ص 29

بخرقهم العربية: عمال موسميون، ما إن يجنوا بعض المال حتى يعودوا مسرعين إلى قصورهم " [1] .

أما " المزنطين " فهم الجزائريون العرب، وتعني " مزنط " أو" مزني" المرتد عن الدين، وفي رأي المغاربة فكل الجزائريين " مزنطين ": **" يكره المغاربة الجزائريين ويعتبرونهم مرتدين. ربما كره المغاربة الجزائريين المسلمين أكثر من المسيحيين أنفسهم ؛ لأنهم يعتقدون أن الأولين ارتدوا عن الإسلام أما الآخرين فبقوا كما هم: كفارا "** [2]

مرة خاطب مقدم الزاوية في القنادسة الرحالة قائلا لها، لما رغبت في التجول خارج القصر مرتدية ثياب الرجال الجزائريين، قال لها بالحرف الواحد: **" سي محمود، يا بني، عليك أن تغير لباسك ،أنت تعلم أن زي الجزائريين الذي تلبسه ليس محبوبا هنا. ذلك لا يمثل خطرا عليك، لكنه سيتسبب لك في مضايقات كثيرة، وستعامل صراحة على أنك مزنط "** [3] .

يستنتج من هذه الملاحظة التي أبداها هذا " المرابو " أن المنطقة كانت، وربما لا تزال، مغربية بامتياز: في سكانها، وعاداتهم، وتصرفاتهم، ولباسهم، ولهجتهم. " المرابو " يعتبر أن الجزائريين جنس آخر، غير ساكنة هذه المنطقة. لكن الرحالة التي تحسن التنكر استطاعت أن تغير من لباسها، وتبعد المضايقات عنها **" وهكذا كان علي، حتى أتمكن من الخروج، أتحول إلى مغربي، وأن أطرح عدة الفرسان الجزائريين الثقيلة وأعوضها بالجلابية البيضاء الخفيفة والنعال الأصفر الذي ننتعله على الأرجل الحافية والعمامة الصغيرة، دون لثام، وملفوفة حول الشاشية "** [4] .

ب.<u>البربر (الجمهوريون):</u> تمكن شيوخ الزوايا من التأثير في مختلف المؤسسات والتقاليد التي كانت عليها أجناس المنطقة، غير أن ذلك التأثير لم يكن بالقدر الكافي في البربر المتواجدين في المنطقة، فظلت " الجماعة " سيدة المواقف كلها ؛ فهي التي تعين القائد، وبيدها كل القرارات السياسية والإدارية. كل شيء يخضع للمداولة. وحين يتم تعيين القائد

---

(1) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 29

(2) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 62

(3) نفسه، ص 62

(4) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 63

الذي يحظى بالولاية، يظل مطاع الأمر، لكنه يبقى دائما مسئولا أمام المجلس " الجماعة " الذي انتخبه.

" عادة ما تكون هذه المجالس صاخبة، يطلق فيها العنان للمشاعر والأهواء والعنف، فتنتهي أحيانا في الدم. إلا أن البربر بقوا دائما محافظين على حريتهم الجماعية. يدافعون عن أنفسهم ضد الاستبداد، ويحيدون كل من يطمح إلى ذلك ." [1]

لكن، وبفضل المكانة التي للزاوايا لدى المستعمر، تغيرت أمور كثيرة ؛ " **تغلب الفكر التيوقراطي على الفكر البربري الجمهوري الفدرالي** " [2]، ونسي البربر التكلم بلهجتهم إلا فيما بينهم " **وأصبحوا لا يتكلمون سوى العربية .لانت طباعهم وتمدنت مقارنة بطباع سكان القصور الأخرى، وأصبحت المشاجرات خاصة، نادرة.** " [3]

ج. <u>البدو:</u> امتد تأثير الزاوية إلى خارج القصر، وشمل البدو الرحل، الذين يتصرفون وفق ما تمليه عليهم سلطة " الشيخ " الذي يتمتع بمكانة كبيرة لدى السلطة الفرنسية. يحضر البدو ممثلين في قادتهم إلى الزاوية للتزود بالمال الذي يستثمرونه في تجارة المواشي، ويتنقلون بين القبائل بيعا وشراء، ويكيد الواحد منهم المكائد ليصبح سيد القبيلة " **ويمنحه المسيحيون البرنس الأحمر الفاقع والنياشين** " [4] .

تقدم الرحالة لوحة لثلاثة من هؤلاء البدو الذين حضروا يوما إلى الزاوية، هم ثلاثة من قادة " ذوي منيع "، وليس " دوي منية "Douï-Menia" [5] القبيلة التي يعود أصلها إلى (الحاج مناع) إحدى قبائل بني هلال العربية [6] " **أحدهم طاعن في السن، وجهه تقطعه تجاعيد كثيرة عميقة، دبغته الشمس فيبدو لونه ترابيا ولحيته بيضاء منتفشة، يلتف في حائك قديم من الصوف الرقيق، يحمل كومية**(خنجرا معقوف النصل) **مقبضها وغمدها من النحاس. الثاني، مسن أيضا، يلتف في برنس ويخفي سلاحه تحت ثيابه، يشبه مظهره**

---

(1) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 88

(2) نفسه، ص 89

(3) نفسه، ص 90

(4) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 82

(5) Douï–Menia كما في الترجمة دوي منية، وهو غير صحيح، بل " ذوي منيع "

(6) ينظر ويكيبديا .

الطير الجارح بأنفه المعقوف وفمه الأشرم. الثالث، الأصغر سنا، طويل القامة، مفتول العضلات، يرتدي تحت برنسه الثقيل ثيابا بيضاء. يشد كوميته ذات المقبض الذهبي المرصعة بخيوط مستوية، حبل رقيق برتقالي من الحرير البنفسجي. حبل رقيق آخر يشد خرجا من الجلد الفلالي(نسبة إلى تافيلالا) **الأحمر المزين بالطرز الفاسي المذهب. يحمل مسدسا رائعا، أخمصه من الذهب المنقوش "** [1]

كان النقاش يدور بينهم وبين شيخ الزاوية حول المبلغ الذي سيستلمونه منه لشراء الكباش والجمال من" بني ونيف ". الشيخ عرض عليهم مبلغا رأوه قليلا، رغبة منهم في هامش من الربح، لكن أمام إصرار الشيخ، ما كان عليهم سوى القبول والإذعان **" نهض البدو تصاحبهم طقطقات أسلحتهم، ثم إنهم استداروا لينظروا مرة أخرى وبحسرة إلى الدوروات**[2] **الجميلة التي أعادها سي محمد لعرج إلى الأكياس أين سقطت وهي ترن رنينا صافيا "** [3]

د. العبيد: تقدم الرحالة في ثنايا نصها الرحلي تفصيلا عن مجتمع العبيد، الذين يمثلون النسبة الغالبة من سكان قصر "القنادسة ". هؤلاء العبيد ينحدرون إما من القبائل الأفريقية، حيث بيع آباؤهم الأولون إلى المهربين العرب، قبل أن يستلمهم التوارق والشعانبة، والذين سلموهم بدورهم إلى البربر، أو هم من السودان، ضاعت لغتهم الأصلية بالتقادم، ولم يعد يتكلمها منهم سوى الطاعنين في السن، شأنهم في ذلك شأن اللهجات الأمازيغية التي اجتاحتها عربية الشيوخ، فلم تعد هناك، على الأقل في القصر، لا الشلحية، ولا الأفريقية .

تفرق الرحالة بين جنسين من العبيد: الحراطين السود تسميهم(kharatine)[4]، والسودان. والسودان. **" ما دام دمهم نقيا، يبقى سودانيو الزاوية أقوياء البنية وفي أغلب الأحيان بهم وسامة عربية تماما، تتباين مع سواد بشرتهم الأبنوسي. أما الذين ينحدرون من التهجين**

([1]) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 81،82

([2]) الدورو: العملة المتداولة منذ العهد العثماني وهي إيطالية الأصل " فيورينو دورو " الفلورين الذهبي

([3])إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، مرجع سابق، ص 85

([4]) مرة أخرى يقع المترجم في الخطأ ويسميهم " خراطين " والصواب " حراطين " بالحاء، مفرده " حرطاني "

مع الخراطين فهم عكس ذلك، نحيلون دميمون، أطرافهم نحيفة بلا تناسق وقسماتهم حادة"[1]

يعيش هؤلاء العبيد حياة مزدوجة، فهم شبه أحرار، شبه عبيد: أحرار خارج الزاوية، عبيد داخلها " **يملكون مساكن في القصر وبساتين في غابات النخيل، وحتى قطعانا صغيرة من الماشية. يبيعون الصوف واللحم والتمر لحسابهم، ولكنهم ملزمون بالعمل عند أسيادهم. حين يريدون الزواج، عليهم أن يطلبوا الترخيص مـــن قـــائد الزاوية، ولكنهم أسياد في بيوتهـم"**[2].

يتميز معظم هؤلاء بالاحترام الشديد الذي يبدونه تجاه سادتهم، فهم حريصون على إرضائهم، فهذا أحدهم " باحمدو " يجد في داخله كعبد سر الحركات الوقورة والمعاملات المحترمة ففي كل مرة يقف فيها أمام المسلمين البيض " **يبدأ باحمدو بالانحناء ثلاث مرات ولا يدنو إلا حافي القدمين، تاركا نعاله أمام الباب، ورغم ذلك يبقى أن فهمه للمعنى الاحترام لا ينقص من قيمته كإنسان** "[3].

غير أن بعضهم لا يميزه هذا الخضوع، ولا يبدي الاحترام لسادته، بل لا يبدي الاحترام حتى لأقرب المقربين من أهله. إنه الحرطاني الصغير "مسعود": **"كثير الحركة، مرن كالقطـ، لص وكاذب، ثرثار"** [4] إنه مثال العبد المحتال. كسول لدرجة لا توصف " **لديه طريقة في تجاهل الأوامر تنم عن خبث حيواني ... ينظر باحمدو إلى مسعود ساخطا: هذا طاعون أسود، ابن الحرام، هذه مصيبة، هذه كارثة** " [5].

هذا المجتمع الذي يتواجد في أدنى مراتب القصوريين، بدوره، طبقات. فالعبيد يحتقر بعضهم بعضا. الخادم في البيوت يرى نفسه أكبر شأنا من الخماس المزارع " **لا يحب مسعود أحدا، حتى بلال والده العجوز الخماس في بستان سيدي إبراهيم. حين يدخل**

([1]) إيبرهارت إيزابيل، ص 57

([2])إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 59

([3]) إيبرهارت إيزابيل، ص 58

([4]) نفسه، ص 86

([5]) نفسه، ص 87

العجوز بالصدفة إلى الباحة، يطرده مسعود بعنف متظاهرا باحتقار الخادم للمزارع الذي هو اقل منه رتبة " [1]

هـ .صورة رجل الدين:

***. شيخ الزاوية (المرابط):**

يطلق الفرنسيون لفظة " **المرابو** " (marabout)على شيوخ الزوايا، وهي لفظة عربية المنشأ (مرابط)، والرحالة لا تبعد عن تلك التسمية، بل وتلح في وصف الشيوخ الذين التقتهم في الزاوية بالقنادسة، وقبل ذلك في كثير من لقاءاتها بهم، أسهبت في الحديث عنهم، بل بسبب تقربها من بعضهم، تعرضت لمحاولة اغتيال في الوداي، كما سبقت الإشارة إليه .

الوقار، والنبل، والذكاء، البساطة، صفات أضفتها الرحالة على " الشيوخ " الذين استقبلوها في الزاوية " **بدأت أغمض عيني حين دخل سيدي إبراهيم، مرابو قنادسة ...حركاته بطيئة وجدية، وابتسامته لطيفة ظريفة. لا تظهر عليه أية فظاظة** " [2] أما مرافقه الأصغر منه سنا فهو أيضا **" وجهه لطيف، وابتسامته خجولة تقريبا، ولكن عينه تتقد ذكاء، بدون قسوة "** [3]. أما اللباس فبسيط جدا ككل شيوخ الزوايا، عمامة بيضاء، ولباس أبيض كله " **يرتدي ثيابا بسيطة بيضاء ناصعة تحت حائك (Haik) رقيق من الصوف، عمامة كبيرة دائرية الشكل ملفوفة على الشاشية تغطي رأسه بدون خمار حول وجهه.** " [4]. أما اللهجة فمزيج من المغاربية ولهجة القصوريين " **يأخذ من مغاربة المدن ويتكلم لهجتهم اللثغاء، ومن أهل القصور في الجنوب أيضا** " [5] .

يتمتع شيخ الزاوية بسلطة معنوية كبيرة على سكان المنطقة ؛ فهو وحده من يقرر كل شيء " **في حالـــة الحرب، هـــو من يعين القادة العسكريين، هو من يصدر الأحكام الجنائية.** " [6] وللزاوية حقوق كثيرة: حق اللجوء، " كل مجرم يلتجئ إليها يكون في منأى

---

(1) نفسه، ص 87

(2) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 55

(3) نفسه، ص 55

(4)نفسه، ص 55

(5) نفسه، ص 55

(6) نفسه، ص 56

عن العدالة البشرية " لكنه بتأثير من شيخ الزاوية عليه أن يدفع كل ما عليه من حقوق ؛ إن كان قاتلا دفع الدية، وإن كان لصا عليه إرجاع ما سرق، وإذا تطلب الأمر تنفيذ حكم الإعدام فأهل القتيل هم من ينفذون ذلك، أو يتولى تنفيذه أهل المجرم أنفسهم. وبفضل تأثير الزاوية " **لا يعرف البؤس طريقه إلى قنادسة. لا يوجد متسولون في شوارع القصر. يلجأ المساكين كلهم إلى هذا الظل الصديق ويبقون هناك ما حلا لهم الوقت. يضع الكثيرون منهم أنفسهم، تطوعا، تحت تصرف الزاوية، خدما أو عمالا أو رعاة، لكن لا يجبر أحد منهم على العمل** " [1]

لكن مـا يمكن الوقوف عنده طويلا ،لأنه يستحق ذلك، تلك العداوة المستحكمة بين الزوايا، والتي تتجلى، كما تورد الرحالة، في حادثة مقتل قائد (شيخ) الزاوية القادرية بمدينة " وجدة " على يد الشيخ المجاهد " بوعمـامة ". هـذه الحادثة أثارت حفيظة شيخ زاوية " القنادسة "، فصب جام غضبه على "بوعمـامة"، وراح ينعته بأقبح النعوت، فـهو قـاطع طريق، شقي، مخادع، مجنون، عديم الأصل، أمي، كذاب ...يقول الشيخ متحدثا عن بوعمامة: " **بماذا نفسر إذن، سوى بالجنون، شعبية بوعمامة، ابن التاجر الصغير من " فيقيق "، شخص لا أصل له ولا تعليم، شخص محرض على الفتن والتقتيل، مروج للكرامات الكاذبة والوعود الماكرة. والله إن دار بوعمامة مبنية على أساسات متداعية من الكذب والظلم والجور** " [2]

ليس غريبا ما بدا على هذا الشيخ من غضب وثورة، فهو شيخ زاوية " القنادسة " الزيانية، التي هي فرع من فروع الطريقة "الشاذلية "، هذه الزاوية القادرية " **كان أتباعها موالين لفرنسا، وهم أوّل من خان الشّيخ بوعمامة عام 1881، وكانت من الطّرق الّتي أيَّدت فرنسا في الحرب العالميّة الأولى، وأصدرت بياناً مليئاً بعباراتِ التملّق لفرنسا، والاحتقار لألمانيا وتركيا.**" [3] .

([1]) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 89

([2]) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 69

(3)حاج عيسى محمد: نبذة عن تاريخ الطّرق الصّوفية في الجزائر. نبراس الحق.

www.nebraselhak.com الأحد 09 أكتوبر 2011 06:44

أما الزاوية " القادرية " التي كان المقتول من أتباعها، فهي، بدورها، قد ظلّت فرنسا راضيةً عنها ؛ حتّى التحق شيخُها في وادي سوف الشّيخ عبدُ العزيز بن الهاشمي برَكْبِ الحركة الإصلاحيّة، وتبرّأ من بِدعِ وخرافاتِ وضلالاتِ الطّرقيّة، وحوّل زاويتَه إلى معهدٍ لتعليم الإسلام واللّغة العربيّة، فقلبت له فرنسا ظهر المجنّ، وأغلقت زاويتَه، ورمت به في غياهب السّجون؛ ذلك أنّها كانت تشجِّع زوايا الدَّجَل والدّروشة، وترى في زوايا العلم والمعرفة خطراً على وجودِها، ومناهضةً لسياسة التّجهيل والتّغريب الّتي كانت تنتهجها.

ليس ذلك بالغريب من هؤلاء " المرابوات "، أمـا الغريب فهو موقف الرحالة من "بوعمامة"، فهي، كما يبدو، من خلال حديثها عنه لا تكن له غير الكره ؛ باعتباره قاطع طريق، فتقول عنه، في معرض حديثها عن مقتل شيخ الزاوية القادرية بوجدة: " ...**ولكن عند عودته، وهو في السهل، التحق أحد رفاق قاطع الطريق المسن بالحاج محمد، وطلب منه الابتعاد قليلا عن مرافقيه حتى يبلغه أمرا سريا. في مجرى الوادي، نصب قطاع الطريق كمينا للمرابو المسكين واغتالوه** " [1]. إن وصف " بوعمامة " بقاطع الطريق تكرر أكثر من مرة في نص الرحلة، وهذا ما يمكن عده انتصارا للزاوية القادرية التي انتمت إليها الرحالة قبل ذلك بسنوات فقد " **أصبحت من أتباع الطريقة القادرية، وذلك عن طريق السي الطيب و(سي محمد الحسين) ورجال دين آخرين مشهورين في المنطقة كأولياء صالحين مثل (سي الهاشمي) و(سي محمد الليمام)، وتعرفت فيما بعد على الرقيب (الصبايحي سليمان آهني) والذي أصبح رفيقها في الحياة، حيث تزوجا طبقًا للشريعة الإسلامية، في الزاوية القادرية بالوادي**" [2] .

*. <u>**المجدوب:**</u> المجاذيب قوم سلب الله قلوبهم عن التعشق بشيء من الأكوان ،وجعلها عاكفة في حضرته، لا يشهدون إلا إياه، فإن شاء الله تعالى ردهم إلى عقل التكليف، وإن شاء خبأ عقولهم عنده. هي العناية الإلهية الجاذبة للعبد إلى عين القرب، بتهيئته تعالى له كل ما يحتاج إليه في مجاوزته لمنازل السير إلى ربه، ومقامات القرب منه من غير مجاهدة. جـاء في المعجم الفلسفي في تعريف "الجذب " (Extase): **" عند الصوفية: حال من**

---

(1)إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، مرجع سابق، ص 68

(2) بلعرج بوداود: **إيزابيل إبراهاردت الفارسة.. عاشقة الثورة الجزائرية.** مرجع سابق

أحوال النفس يغيب فيها القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق، وتغشاه غبطة شاملة، ويتصل فيها بالعالم العلوي. ويعد عند أفلوطين الخير الأسمى وقمة التفلسف. ويسميه بعض متصوفي الإسلام: الوجد " [1] .

تقدم الرحالة صورة لهذا المجذوب (L'ILLUMINÉ) الذي التقته في أعلى البرقة خارج القصر. بيته مغارة محفورة في الصخر، بين ركام الصخور الداكنة **" يرتدي خرقة داكنة، طويل القامة ناحل الوجه أسمر طويل، أطلق الناسك شعره الرمادي ولحيته الفظة. أصبح نظر الناسك ثابتا، لا تكف شفتاه عن همس الأدعية الروحية التي لا تنتهي .هذه الأدعية التي أدخلته في حالة شرود دائمة منذ ما يقارب العشرين سنة** " [2]. ساح هذا الناسك في بلدان كثيرة بين الجزائر والمغرب والصحراء حتى بلغ السودان، ثم **" حين مل من غرور المعرفة البشرية ورتابة الأشياء، عاد إلى مسقط رأسه وانعزل للأبد في زنزانته الرمادية، من حيث لن يخرج إلا والمؤمنون يحملونه إلى دار الصمت الأبدي، إلى بعض المقابر في الأسفل"**[3] .

تستحضر الرحالة، وهي تقف أمام هذا الناسك المنعزل، صورة المسيحيين المتوحدين خلال القرون الوسطى **"كانوا يشبهونه بالتأكيد، هم الذين كانوا يعيشون في مثل هذا الديكور الحزين وهذه العزلة التامة"**[4].

يبدو أن الرحالة سيتهويها هذا التصوف، هي التي قطعت كل تلك المسافات في الجزائر متنقلة بين الزوايا، بحثا عن السكينة الروحية. مما حدا ببعض الباحثين في سيرتها إلى التركيز على هذا الجانب من حياتها، من ذلك كتاب (Le voyage soufi d'Isabelle Eberhardt) للمؤلفين (Jean-René Huleu et Marie-Odile Delacour). تقول الرحالة، في معرض حديثها عن مجدوب " القنادسة " الذي شبهته بمسيحيي القرون الأولى:

---

(1) وهبة مراد: **المعجم الفلسفي**، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1983، ص 60

(2) إيبرهارت إيزابيل، ص 66

(3) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 66

(4) نفسه، ص 66

" هم أيضا كانوا يبحثون، في حالة الشرود الدائم، عن إشباع حاجتهم الملحة إلى الأبدية التي تغفو داخل كل النفوس البسيطة. هذه الحاجة إلى الأبدية اشعر بها أنا أيضا " [1] .

و. <u>المرأة</u>: تصور جل الكتابات الأدبية الكولونيالية المرأة الجزائرية، على أنها مخلوق هجين ؛ حيث تم تقديمها إما ككائن دوني وإما ككائن شهواني ومنحرف يلهث وراء ملذات الجسد المحرمة. وفي عالم خاضع للاستعمار؛ الرغبة فيه سلطان والعنف سلطان، تأتي صور الوجوه الأكثر لفتا للانتباه في صور العاشقة الثائرة، والمرأة الزانية، والجدة القوادة، والمرأة المرتدة عن دينها مع تمييز خاص ومفرط للخادمة والمومس، اللائي يصبحن جميعا وعاء الآفات الخاصة بالبشرية جمعاء.

"وتكالبت الأحكام المسبقة والاستيهامات الإيديولوجية الاستعمارية على توجيه أصابع الاتهام المنظمة والمنهجية إلى المجتمع المصوّر من أجل تزييف الواقع الاستعماري وتلافي الإشكالية الاستعمارية ورفع شأن هيبة المستعمِر." [2]

غير أن هذه المرأة نفسها، في هذا النص الرحلي الإيبرهارتي، لا تبدو كذلك. فهي امرأة تعيش واقعها ككل الأهالي، سيدة، أمة، عربية، بربرية، زنجية ... حالها كحال أخيها الرجل. ولعلها الصورة الأكثر حضورا في هذا النص، وبل وفي كل نصوص " إيبرهارت "، سواء في ذلك النصوص الرحلية، أو نصوص الأدب المتخيل .

عالم النساء في قصر القنادسة له سلمه الاجتماعي وله مراتبـــه، ذروته وسنامـه السيدة " لالة "، أما قاعدته فمجتمع الإماء .

أما السيدة، والــــدة شيخ الزاوية، فهي التي تضطلع بكـل مهمـــات الإدارة الداخليـة " **النفقات، الإيرادات، الصدقات. لا يراها أحد، ولكن الكل يشعر بسلطتها في كل مكان. يخشى الجميع هذه الأم الملكة، التي تعيش في عزلة تقريبا، ويبجلها. هذه المرأة لا تخرج إلا نادرا، محجبة بدقة** " [3] . تحتل هذه السيدة موقعا مميزا رغم كونها شبه سجينة،

([1]) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 66، 67

([2]) مساعدي سكينة: **روائيات الاستعمار والمرأة المستعمرة**، مرجع سابق، ص 353

([3]) المرجع السابق، ص 60

وتتمتع بسلطتها الكبيرة التي يخضع لها حتى ابنها شيخ الزاوية .لا يسمح لأي رجل غريب أن يراها. لكن رغم كل تلك السلطة التي لها، فهي امرأة متواضعة، بلغ بها التواضع أن ترسل مع خادمها رسالة اعتذار لأحد المقيمين في الزاوية على تأخرها في تحضير طعام العشاء له. يقول خادمها مخاطبا نزيل الزاوية الشاب طالب العلم " سي محمود " الذي لم يكن غير " إيزابيل " المتنكرة في زي رجل، يقول الخادم: " **ذهبنا البارحة كلنا لنرافق جثمان امرأة طاهرة، توفيت عند المغرب ...هذا ما جعل " لالة " تنسى أن ترسل لك الشاي ووجبة العشاء. هي تطلب منك أن تسامحها عن هذه الإساءة غير المقصودة، وتدعو لك ببركات الله وأجدادها** " [1]

يأتي بعد السيدات، نساء القصوريين من عرب وبربر وبدو، يشكلن جميعا لوحة فسيفسائية من القامات والقسمات، والملامح واللباس .

فهؤلاء نساء " ذوي منيع " البدويات النحيفات، بقاماتهن المديدة، وبنيتهن القوية، الأنيقات في خرقهن البالية، تدل مظاهرهن على العفوية، يمشين رافعات الرؤوس بخطى ثابتة " **تبدو قطع القماش البائسة التي تستر عريهن وكأنها جزء من أجسامهن، فتبرز هندسة تلك الأجسام البرونزية. حين تعصف الريح، تظهرن أكثر نحافة** " [2]. لقد غير التهجين البربري قليلا من شكل وجوههن النحيفة. " **لدى هؤلاء النسوة حركات لم أرها عند العربيات ولا حتى عند الموريسكيات: لا يخجلن، ولا يحركن أردافهن حين يمشين أمام الرجال، ولا يظهرن أي تغنج ورغم ذلك فإن الابتسامة المرسومة على شفاههن الحمراء هي أكثر تأثيرا من حسية السودانيات ومن تلطف شفاه اليهوديات** " [3]. إنهن غجريات الصحراء، كما تسميهن الرحالة " **يمكن رؤية جمالهن من خلال ثقب لحفهن الترابية اللون.** " [4]

---

(1) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 72

(2) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 133

(3) نفسه، ص 134

(4) نفسه، ص 134

هن راضيات بفقرهن الذي لا يعتبرنه انحطاطا، بل هو شيء طبيعي جدا. أما البذخ عندهن فيكمن في **" حصان جميل أو مقبض خنجر "** [1] .

أما الإماء الزنجيات، فهن في أسفل السلم جميعهن ؛ عذارى كن أو متزوجات، أرامل ومطلقات. يسود بينهن انفلات أخلاقي كبير. فهن لا يتورعن عن تقديم أنفسهن لأي كان من أجل أتفه الأشياء " **من أجل بضعة فلوس أو خرقة، أو حتى من أجل المتعة، يقدمن أنفسهن لأي كان، عربيا كان أو زنجيا، يغازلن الضيوف، ويقدمن أنفسهن بكل وقاحة ولا مبالاة غريبة، في أغلب الأحيان** " [2]. زيادة على ذلك فهن عكس الذكور من العبيد الذين يتحكمون في تصرفاتهم. ذلك أنهن يثرن لأتفه الأسباب، ويتشاجرن دائما في الباحات، فيعلو صراخهن الذي يسبق الشتم والضرب والوثب والعري في وضح النهار. تنقل لنا الرحالة هذه الصورة المضحكة من عراك بين أمتين: " **ذات صباح، تسابيت زنجيتان أمام باب غرفتي :**

ـ **يا بغية يهود الملاح** (الملاح حي في القصر يقطنه اليهود)

ـ **يا مارقة، يا لصة، يا بذرة المصائب، أيتها الجذر المر**

ـ **ليقتلك الله أيتها اليهودية، يا بنت الذئب .**

فجأة، وضع قدور أمين المخزن حدا لهذه الفضيحة. افترقتا مثل الكلبتين الشرستين، تبرق أسنانهما بالشتيمة وهما تعظان الكلمات كما تعظان على اللحم " [3] .

تدني الأخلاق وفسادها في مجتمع العبيد، لا يعود حتما إلى أصل هؤلاء، إنما هو نتيجة حتمية للقساوة التي يجدونها في حياتهم. وكلما تدنى المستوى المعيشي في مجتمع إلا وصاحبه التدني الأخلاقي، حيث تنتشر الآفات بشتى صنوفها وأنواعها. تذكر الرحالة حادثة انتحار الأمة الزنجية " مباركة "، التي لم تكن في وئام مع زوجها الذي لم يحسن معاملتها؛ فكان أحيانا يعنفها، ويضربها، ولم يكن لها من معين أو متفهم لها. كان أهلها إذا استجارت بهم، يعيدونها إلى زوجها ذليلة. ومنعت حتى من طاب النجدة من القاضي، فقررت أن تنهي

---

(1) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 134

(2)نفسه، ص 60

(3) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 60، 61

مأساتها " **هدأت أخيرا لأنها عرفت سر الحرية المعنوي. ذات مساء، حين كان الناس في المسجد، جمعت كل قواها لتهرب. ارتقت على قدميها الصغيرتين وعلقت نفسها فوق الحياة وفوق وضعها المزري بحزامها الحريري دون أن تبوح لأحد، هكذا وهي وحيدة معزولة** " [1] .

تعلق الرحالة على الحادثة مبينة أن الانتحار لدى جنس ما دليل على قوته، فالحيوانات لا تنتحر، والزنوج أيضا لا ينتحرون إلا حين يكونون تحت تأثير الكحول، لكن " مباركة " لم تكن ثملة، ورغم ذلك انتحرت " **الانتحار هو أيضا نشوة ، ولكنها نشوة إرادية** " [2] .

تقدم الرحـــالة صورة رائعة لزنجيتين في لباسهمـــا البالي، لكنه لباس رائع، فتقـــول: " **واحدة منهما زنجية سودانية وجهها مدور وأعينها شقراء كأعين حيوان لطيف. تنسدل سلاسل رفيعة من الفضة من شحمة أذنيها على كتفيها، وتشد ثعابين من الفضة ضفائرها الطويلة السوداء المنبسطة على صدرها. ملحفة صفراء ليمونية تلتف في ثنايا رخوة حول جسدها الطويل الممشوق. وهي جالسة واضعة مرفقيها على ركبتيها، وتتكلم بحركات تعبيرية تدير كفيها فتسمع قعقعة أساورها** " [3] وصف دقيق يزري بلوحات "دولاكروا "، لوحة حالمة تكاد الموصوفة تخرج من إطار الصورة لتستحيل آدمية تسعى على قدمين. أما الأخرى التي كانت تبادلها الحديث فهي " **امرأة مولدة، جذابة، جميلة بذلك الجمال الغريب، سمراء قسماتها حادة وعيناها واسعتان حزينتان، شفتاها مقوستان شهوانيتان، تنفتحان على أسنان رقيقة .تلف جسدها ملحفة من الصوف بمسحة دامية باهتة، فتبرز خطوطه الدقيقة. ينزل واحد من أطراف لحافها مستقيما على أردافها المقوسة، يمر تحت ذراعها العاري بلون البرونز القديم. كانت تقف مستقيمة، تحمـل قلة كبيرة من الطين المكوي، تضعها على وركها المدور** ." [4]. لا تكتفي الصورة بنقل اللون والحركة، بل تنقل الرائحة أيضا " **حركت نسمة خفيفة لحافيهما فانتشرت رائحة القرفة المتبلة ورائحة الأجساد**

([1]) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 97

([2]) نفسه، ص 97

([3]) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 73

([4])نفسه، ص 73، 74

السوداء المبللة. " [1]. ترى أي رسام يستطيع رسم لوحة ذات خلفية كما فعلت الرحالة، وهي ترسم هاتين الزنجيتين، ثم تضعهما أمام خلفية تزيد البورتري روعـة " **على خلفية الجدار الرمادية والوردية، بقيت المرأتان طويلا تتحدثان في وميض المساء البنفسجي الذي أمسى مظلما تدريجيا، تحت قوس الباب** " [2]

لم تسهب الرحالة في الحديث عن الفئة الوسطى من نساء القصر، والتي تقع بين سيدات الزاوية والإماء، وأعني بذلك نساء " المرابطين " والبربريات، لم تلتفت إليهن عدا صورة سريعة لواحدة من بنات " القصوريين " في لقاء غرامي مع شاب من البدو الطلبة الذين أقاموا في القصر طلبا للعلم. " **كانت جميلة ومزينة كالعروس. يلف قميص طويل من الصوف الأحمر خطوط جسمها الشهوانية ويوشح جبينها تاج من الأزهار الفضية، وكان ضوء القمر ينعكس على حليها. كان جبينها من النقاوة حتى بدا وكأن النجوم تبكي فوقه**"[3].

ز. <u>العسكر</u>: من بين الذين صادفتهم الرحالة، وكان لهم حضور في كل النصوص الرحلية، العسكر الذين يمثلون الأداة الأولى في تنفيذ مخططات الغزو والاستعمار. لذلك تستوقفنا صورهم المبثوثة في ثنايا نص الرحلة. هم أصناف شتى: الفرنسيون، وجنود اللفيف الأجنبي، وأخيرا الجزائريون من رجال المخزن، والصبايحية .

يبدو جنود اللفيف الأجنبي رجالا شجعانا، لا يتوانون عن خوض الحرب، تلك الحرب التي يخوضونها جريا وراء المال الذي يجمعونه. هم " **رجال شقر، شديدو السمرة، يكسوهم الغبار، يعودون من الجنوب وهم ينشدون أغاني عاطفية ألمانية أو إيطالية** " [4]. لا تتوانى الرحالة عن التعاطف معهم، والإعجاب بهم ؛ لم لا، وأحد إخوتها كان يوما ما ضمنهم. بفضلهم، كما تبدي الرحالة، تحولت القفار دورا، وقرى عامرة "**ليس هناك من حائط أو كوخ من الطوب في بشار أو في غيرها في هذه البلاد إلا وهـو من عمل رجال اللفيف،**

---

(1) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 74

(2) نفسه، ص 74

(3) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 121،122

(4) نفسه، ص 24

عمل مجهول ،عمل شاق يستحق التقدير أكثر من البطولات التي يقدمونها في كل يوم وفي كل مكان والتي لا تجد أي صدى " [1]. لم لا تتعاطف معهم الرحالة وهم الذين يصدون غارات قطاع الطرق (المجاهدون أتباع بوعمامة) دفاعا عن أنفسهم، وكأنما هم ينجزون عملا مقدسا نبيلا " **كان عليهم الدفاع عن أنفسهم من قطاع الطرق وبعد ليالي التصنت والقلق من المفاجآت** " [2]. وفي موضع آخر لم تخف الرحالة إعجابها الكبير لهؤلاء واحترامها الشديد لهم " **في ذلك المساء، بعد العشاء، شعرت في نفسي أنني أحد رفاق العسكر في الجنوب. اهتممت، دون أن يجبرني أحد، بحكايات هؤلاء الناس الطيبين**"[3].

فئة أخرى من هؤلاء الجنود الأوروبيين، تتمثل في " المقصون " من الجيش، تظهر الرحالة تجاههم امتعاضا شديدا " **يوظف هؤلاء في الأشغال العامة في المراكز النائية. كان البعض منهم عاريا حتى الحزام. همجية أخرى في هذه الأرض المتوحشة. كانوا يعرضون على أجسامهم وشوما باريسية غير مألوفة، وأخرى تنم على تشاؤم وتمرد وبذاءة** " [4] .

أما الفئة الأخيرة، فهي دون شك فئة الجنود ذوي الأصول الجزائرية " رجال المخزن "، هؤلاء الذين " **يضعون شجاعتهم وإقدامهم وصبرهم الذي لا ينفذ طواعية في خدمة فرنسا: يخدمون بإخلاص وهذا يكفيهم** " [5]. هؤلاء الذين باعوا أنفسهم للمستعمر، يعاملون باحتقار، فهم ينامون في أكواخ حقيرة " **على الأرض واضعين رؤوسهم على قرابيس سروجهم، وبنادقهم في متناول أيديهم، والكنايات (حزام الخراطيش) مثبتة حول قندوراتهم الترابية اللون ... يضحكون ويمزحون، ويتغنون وهم ينتظرون الأمر بالرحيل** " [6]. لا يهمهم إن كانت الرحلة هي الأخيرة، فهم يثقون في القدر. ويعتقدون أن المكتوب سيحدث

---

(1) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 45
(2) نفسه، ص 45
(3) نفسه، ص 31
(4) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 30
(5) نفسه، ص 44
(6) نفسه، ص 44

مهما فعلوا. القدر .. ذلك الذي وضعهم تحت نير الاستعمار، قادر على تحريرهم منه. فلم لا يثقون فيه ؟؟. هؤلاء المجندون طواعية يعرفون جيدا الشرف والرجولة " **ويفضلون الموت شجعانا أمام العدو** " [1]. نعم أمام العدو، الذي هو إخوتهم في الدين وفي الوطن.

ح. <u>اليهود</u>: من بين أحياء قصر " القنادسة "، حي الملاح، الذي يسكنه اليهود . يأوي هؤلاء إلى دكاكين ضيقة تفتح إلى الشارع .

وككل الذين وصفوا هذا الجنس البشري، لم تخرج الرحالة عن الصورة المألوفة لليهودي: " **يختلف يهودي الجنوب عن العربي خاصة في وقاحته وسوقيته. ليس لديه أي فكرة عما نسميه نحن المشاعر النبيلة، وهنا يكمن السر في قوة دهائه التجاري. حين يريد التكيف مع الوضع، فإن المشاعر الشخصية لا تثنيه عن ذلك** " [2]. لذلك فلا يحتمل العربي اليهودي، ولا يخالطه إلا في المعاملات التجارية " **يحتاج الراعي وقاطع الطريق إلى اليهودي ويساومانه بشراسة ولكن، حين ينتهي وقت التجارة، لن تبقى بينهم أية مصلحة ولن يجمع بينهم أي شيء آخر** " [3] .

أما اليهودية، فحظها أوفر من اليهودي، ومن بنات جنسها من المسلمات ؛ ذلك أنهن متحررات من رقابة ذويهن " **هن أكثر جرأة، يقترين من الرجال بكل حرية ويوزعن الغمزات المثيرة، من خلف رموشهن المحمرة مـن دخان الجريد اليابس الفظ في دكاكين الملاح السوداء** " [4]. إنهن غير مباليات بتصرفاتهن التي لا نجدها عند المسلمات، فهن لا يعشن يعشن حبيسات، يثرثرن أمام دكاكينهن، يطبخن، يغتسلن أمام مرأى الجميع .لكن رغم ذلك لا تجد هؤلاء النسوة أي حظوة لدى المسلم، فرجل الجنوب " **يعتبر اليهودية نجسة. لا ينتبه البدو أبدا إلى بياض وجمال بنات الملاح** " [5] .

([1])إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 44

([2]) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 50

([3]) نفسه، ص 134

([4]) نفسه، ص 131

([5]) نفسه، ص 134

3.4. صور للحياة الاجتماعية الثقافية:

ا. **الصلاة:** لعل من الصور التي عني بها الرحالة الأوروبيون، وهم يصفون المسلمين، صورتهم وهم يصلون. فلطالما اجتذبتهم هذه الصورة ؛ حتى إن " دي موباسان "، كما سبق أن وضحنـــا، توقف عندهـــا كثيرا، وكانت مـــن الصور التي بدا فيهـــا شيء مـــن الإطراء لهؤلاء " الأهالي " .

ولا تبعد " إيبرهارت " عن ذلك، بل إنها أولت في كتاباتها صلاة المسلمين كل العناية. وفي هذا النص الرحلي نقف على صورة مفصلة لتلك العبادة التي هي رأس عبادات المسلمين، خاصة صلاة الجمعة.

والذي يجب أن نعلمه، وقد سبقت الإشارة إليه، أن الرحالة مسلمة، تمارس عبادات المسلمين بشكل دائم ؛ فلا عجب أن نجد عندها ذلك التفصيل، وتلك الدقة في وصف تلك العبادة .

فبعد أن أخذ " سي محمود " الذي هو " إيزابيل " حماما باردا، وبعد أن قطع المسافة بين مسكنه والمسجد، ها هو يدلف إلى قاعة الصلاة، بعد أن مر بمجموعة من المتسولين الأكفاء المتضرعين، ثم ها هو ينزع حذاءه، ويعبر الباحة حافي القدمين في سرعة أشبه ما تكون بالركض لتجنب حرق الرمل الساخن كالأتون، في الداخل " **انتابنا شعور عذب بالنداوة والظل ومن السكينة غير المتناهية** " [1] .

كان المسجد أبيض كله: الجدران، الأعمدة المربعة المزدوجة التي تسند السقف، والضوء ينزل من السقف عبر فتحة خافتا، أزرق، مبعثرا. " **يصلي أهل قنادسة والبدو على حصائر بالية. إلى اليمين، في مكان مرتفع فسيح، يغمره نور أكثر، يرتل طلبة وأساتذة المدرسة القرآن. يكرر خلفهم الصبية درس من سبقوهم. هنا وهناك يقرفص طالب معزول ويقرأ بصوت مرتفع أحاديث الرسول** " [2]. ثم تصف الرحالة مختلف الأصوات التي تختلط متناغمة، يعلو بعضها، ويهمس آخر، لكن الإيقاع كله رتيب وحزين، ثم ينطفئ رويدا رويدا

([1])إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 76

([2]) نفسه، ص 76

" يمتد هذا النشيد المهدهد ويصعد وهو يحمل في طياته الشعور بالديمومة في جناح المسجد المدوي " [1]. ثم فجأة، ومن أعلى المئذنة، يطلق المؤذن نداء الصلاة الثاني **" يبدو صوته وكأنه ينزل من فلك مجهول لأنه بكل بساطة يأتي من مكان مرتفع وغير مرئي. ثم ونحن في تلك الحالة النفسية الغريبة تجدنا دائما على حافة الروعة "** [2] .

يخرج الصبية متراكضين لدى انتهائهم من القراءة، فرحين، راكضين وهم يرطمون ألواحهم الخشبية التي كانوا يقرءون منها. ثم يرين على المكان سكون عميق، إنها بداية الخطبتين. **" من الظل، أين يقع المحراب، الكوة التي تدل على وجهة مكة، يصع صوت الإمام المكسر المرتعش. يقرأ الخطبة، الدعاء الطويل المليء نصحا وحثا على التوبة وهو بمثابة الموعظة التي نسمعها ونحن جالسون في صمت "** [3]. لكن الفرق بين الإمـام والكاهن، أن الإمام ليست له سلطة دينية نظامية كالتي لرجل الدين المسيحي، توضح الرحالة **" إنه بكل بساطة الطالب الأكثر تبجيلا من بين الحضور، كل رجل متعلم يمـكن أن يكون إماما. عليه فقط أن يقرأ الصلاة "** [4] ليس في الإسلام أسرار تستدعي وساطة الكاهن.

أثناء الخطبة، كان هناك رجل يقوم بعمل خيري، يحمل دلو ماء بارد ؛ يسقي كبار السن والمرضى. ثم بدأت الصلاة ،**" يرفع الجمع الواقف اليدين إلى مستوى الوجه ثم يتركها تنزل ويكرر خلف الإمام والشاب المرتل " الله أكبر ". ننحني ثم نسجد "** [5] .

بعد الصلاة، ارتفع الدعاء الذي كان " المرابوات " يرتلونه بإيقاع مضبوط، كان الدعاء صلاة على النبي (ص). **" يتمتع المرابوات بأصوات جميلة وخفيضة ويعرفون اللحن القديم الذي يزيد أبيات هذه الأدعية الرنانة نبلا والتي يكتفي عامة الناس بقراءتها بسرعة وبطريقة خناء متقطعة "** [6]. ثم انتهى كل شيء. وليتها الصلاة لم تنته تعلق الرحالة التي

---

(1) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 76
(2) نفسه، ص 76
(3) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 77
(4) نفسه، ص 77
(5) نفسه، ص 78
(6) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 78

كانت مـــأخوذة بروعة المشهد، وبروحانيته " **يبدو لي أن جوهر الصلاة، مثل الحلم، هو ألا تنتهي** " [1] .

في موضع آخر، تصف الرحالة شعورها بالطمأنينة بعد أداء صلاة المغرب إثر يوم صيفي قائظ، حين افترش كل برنسه المبسوط على الرمل، وأخرج السبحة يمرر حباتها ذاكرا الله. تقول الرحالة عن هذا الشعور " **أن نكون في صحة جيدة، أنقياء من كل دنس، بعد حمام بالماء البارد، أن نكون بسطاء ونمتلك عقيدة لا ريب ولا شك فيها، أن ننتظر بلا خشية ويصبر الساعة المحتومة، ساعة الدخول إلى الأبدية، تلك هي الطمأنينة، تلك هي سعادة المسلم، ومن يدري، ربما هي الحكمة نفسها** " [2] .

ب. طريقة الدفن: في أثناء توقفها بـ "سيدي بوجمعة " النقطة التي تشرف على طريقي " بني ياهو " و" صفيصيفة "، كـانت هناك جنازة لأحد أموات المسلمين " **من أعلى الكثيب يظهر موكب من العرب يتقدمون ببطء ويؤدون غنـــاء إيقاعيا. خلف المجموعة الأولى، يحمل أربعة رجال، على أكتافهم، نقالة يكسوها غطاء أبيض عريض، حين ظهر هذا المؤمن المجهـول الذي يذهب إلى الحيـــاة الأبدية في الصباح المتألق، سكتت كل الأصوات.** " [3] ثم دخل حاملو النعش المقبرة التي لا سياج لها، وبدأت عملية الدفن " **بين القبور، المنثورة على الكثيب، بين الأحجار التي لا اسم عليها ولا تاريخ، حفر الرجال القبر بسرعة شديدة في الرمل، ووضعوا الجثمان، على حـافة هذه الحفرة الصغيرة، مقابلا للشمس.** " [4]. أنهى المجتمعون في المقبرة صلاة الجنازة وبدأت مواراة الجثمان التراب.

" **بسرعة شديدة، على صف من القرميد، ردمت الحفرة ووضعت ثلاث جريدات خضراء على كومة الرمل التي بدأت النسمة الندية في مسحها ...** " [5] هكذا انتهت حياة كانت

---

(1) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص78

(2) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 154

(3) نفسه، ص 19

(4) نفسه، ص 20

(5) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 20

كانت غضة، عامرة بالحياة والأمنيات. تعلق الرحالة بشيء من الصوفية والوجد العميق، وإدراك لمعنى الحياة الدنيا على الموقف" .. **ذهب الجميع .. ما أبسط أن نموت** " [1] .

في موضع آخر تقدم الرحالة صورة جنائزية حزينة لطريقة الدفن، كان ذلك حين انتحار الأمة الزنجية " مباركة " إحدى زنجيات قصر " القنادسة ". فلقد رفض الكثيرون الصلاة عليها، تلك التي تناست واجبها في الحياة ؛ فانتحرت، غير أن بعض المتعلمين " الطلبة " أشفقوا عليها وأتوا للصلاة على جثمانها الذي غسلته النساء، وكفنه. تقول الرحالة: **" مدد الجثمان على حصيرة في وسط الباحة، لم يعد سوى شكل أبيض متصلب. كفت النساء عن النواح ولم يعد يسمع سوى صوت الرجال وهم يرتلون" يس "، والتي تقرأ على الموتى "** [2].

غادرت النساء المكان، وارتفعت أصوات رجالية في غناء حزين لطيف، إنها البردة، القصيدة المشهورة في مدح النبي (ص)، والتي خصص ناظمها جزءا كبيرا منها للرثاء. " **وضع الجثمان على نقالة جنائزية من الخشب الخام ووضع فوقه غطاء أحمر عريض. حمل أربعة رجال الجسم المسكين على أكتافهم، وذهب الموكب الحزين نحو المقبرة. وضعت النقالة على الرمل ووقف الحضور في شكل نصف دائرة في اتجاه مكة، هي آخر صلاة لمباركة. على كومة القبر، التي بدأت الريح في مسح رملها، نصبت ثلاث جريدات سوف تجف بسرعة** " [3]. هناك عادة وطقس يمارسه أهل المنطقة في هكذا مناسبة، ذلك أن يعمد أهل الميت إلى تقديم صدقة فور انتهاء الدفن، تتمثل عادة في الطعام. طريقة ربما تقابل باقات الورود التي ينثرها المسيحيون على قبور موتاهم حال موارة الجثمان التراب، والصدقة أجدى نفعا من باقات الورود في هذه الحالة ؛ لأنها تسكت بطونا جائعة، وأيادي ممدودة فارغة. تصف الرحالة ذلك قائلة: **" وضع حمو حسين، وهو رجل جلف دميم، على الأرض فوق قطعة قماش من القطن الأحمر، بعض حبات تين مجففة**

([1]) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 20

([2]) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 98

([3]) نفسه، ص 98

وبعض الفطائر. هي الصدقة التي تقدم إلى المساكين في ذكرى المتوفى والتي تعوض بـــــــاقات الأزهار غير المجدية والأكاليل البراقة " [1] .

ج. صور من الحياة اليومية :

الحديث عن صورة الإنسان في رحلة ما، سيقود حتما إلى تلك الصور الجانبية التي يلتقطها الرحالة لحياة الناس اليومية ؛ لأنها، ربما، الأقدر على نقل صورتهم الحقيقية. ورحالتنا تحسن ذلك ؛ لأنها، ببساطة، استطاعت أن تندمج بسهولة في ذلك المجتمع الصحراوي، مما أتاح للقارئ أن يندمج بدوره في هذا المجتمع. هذه الصور الجانبية هي من قبيل ما يمارسه الصحراوي طيلة يومه، أو هو مما يأتي في مناسبات معينة، كالأعراس، والموسيقى، والرعي ...

1. **العرس الصحراوي**: أو بالأحرى " عرس سوداني "، ذلك الذي انتظم في القصر. فما إن هدأت ريح " الشهيلي "، وقاربت الشمس على المغيب، وهبت النسائم الباردة شرقية، حتى بدأ ذلك العرس الذي أقـامته عائلة من عائلات العبيد الزنوج. كانت البداية بالإعلان عن العرس، **" إنها الطبول السودانية التي تتقدم نحونا. يضفي وقعها الغريب على الديكور الصحراوي في قنادسة نبرة قادمة من أفريقيا البعيدة الأكثر غرابة "** [2].

إنها الموسيقى القادمة من الأدغال الأفريقية. عبر القرون المتعاقبة، ظل الزنجي محتفظا بموروثه الثقافي، الذي يتجلى خاصة في الموسيقى والرقص. لقد كان لتلك الرقصات مدلولها في الماضي، إذ ارتبطت بالطقوس الدينية الوثنية. لكن بمجيء الإسلام، امحت تلك المعتقدات، لكن ظلت الموسيقى والرقص حاضرين في ثقافة الزنجي. **" على وقع الطبول الأصم يبرز رنين الصناجات النحاسية المزدوجة الضاحك .هذه الصناجات التي يربطها العازفون إلى معاصمهم بسيور من الجلد. في أول الموكب، يرقص بعض الزنوج، هكذا طبيعيا، لرغبة لديهم في الحركة فقط. يوجد دائما شيء من الزنجية في الرقصات التي**

---

(1) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 98

(2) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 100

تتطلب القفز. يعطي الرقص العربي، الذي يسمى رقص البطن، عكس ذلك، نظرا لحركاته البطيئة، انطباع الرقص المقدس القادم من ذلك الشرق الذي تطغى عليه الروحانية " [1].

لا تقتصر الجوقة التي تحيي الحفل على هؤلاء المطبلين، بل كان خلفهم جمع من العبيد الذين يغنون مواويل، هي مزيج من العربية والسودانية. خلف هؤلاء المغنين سرب من الصبيان الزنوج " **مضحكون بطبيعتهم بتلك الخصلات من الشعر المثبتة على رؤوسهم الصغيرة الحليقة البراقة وقمصانهم الترابية اللون** " [2]. لا يقتصر سرب الصغار على ابناء العبيد، بل يشاركهم في استعراضهم أبناء القصوريين من البيض، بلباسهم الزاهي الألوان، غير أن الشمس قد لوحت بشرتهم فصارت مدبوغة، " **يشبهون الصينيين بضفائرهم الوحيدة التي تنسدل على قمة رؤوسهم الحليقة وتتدلى على ظهورهم** " [3]. الجميع ضاحك مستبشر .

يقترب جمع العازفين من " المرابوات " فينزعون نعالهم، دليلا على احترامهم وتبجيلهم للسادة، ثم يقبلون ثيابهم، قبل أن يتشكلوا نصف دائرة مواصلين ضجيجهم. يدخل من حين لآخر شخصان اثنان نصف الدائرة التي يشكلها الزنوج العازفون، ثم يقفان متقابلين، ويشرعان في الرقص " **كالقردة، يدكان الأرض بأرجلهما ويضربان رأسيهما بأكفهما الوردية. يستيقظ دمهما الزنجي ويفيض، متناسيا، منتصرا على العادات المصطنعة والتحفظ الذي فرضته عبوديتهما** " [4]. يستمر الرقص المجنون، وتنتقل عدواه غلى المتفرجين من كل سن، حتى الشيوخ، يقفز بعضهم إلى الوسط في حركات بهلوانية مجنونة، ويرقص حتى يهوي على الأرض واهن القوى .

كانت رائحة العرق النفاذ تنبعث من المزق الترابية التي تلف تلك الأجساد الواهنة. ثم تتحلق الأجساد كلها حول الشيخ رافعة الأيدي للدعاء، " **ثم تلا سيدي إبراهيم الفاتحة، وطلب بركة الله وسيدي محمد بن زيان للسود ولكل الحضور ولسكان إقليم قنادسة ولكل**

---

(1) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 100

(2) نفسه، ص 101

(3) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ص 101

(4) نفسه، ص 101

الزيانيين والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات " [1]. يجب التذكير هنا، أن هذه العادة، عادة الدعاء وقراءة الفاتحة بعد كل سرور يتلو عرسا أو غناء مصحوبا برقص، هذه العادة لا تزال حية في مناطق الجنوب الوهراني خاصة نواحي بشار والبيض، فقد حضرت حفلا ضمن فعاليات أسبوع ثقافي لولاية البيض، وبعد أن انتهى الرقص الشعبي والغناء، شرع أحدهم في تلاوة الفاتحة بعد دعاء بالخير للجميع.

ب. الموسيقى: لا يقتصر حضور الموسيقى على الأعراس فقط، إنما هناك قد تعزف وتسمع في غير تلك المناسبة. وهذا ما تطالعنا صوره في مواضع شتى من نص الرحلة. فكثير من المقاهي العربية كان يلجأ أصحابها إلى استئجار فرق موسيقية جزائرية أو مغربية، لإحياء سهرات قصد جذب الزبائن الذين يدفعون بسخاء من أموالهم ما يعود على مالك المقهى وعلى الفرقة بالربح الوفير. ففي مقهى من مقاهي " عين الصفراء " حضرت الرحالة حفلا من هذه الحفلات التي تحييها فرقة من " بني قويل " المغربية. تبدأ الرحالة بوصف لباسهم البالي الذي لا يشبه لباس الموسيقيين الجزائريين الذين يظهرون كامل أناقتهم في مثل هذه المناسبات. **" يحتفظ موسيقيو المغرب بنموذج جنسهم الفظ ولحاهم السوداء الرفيعة والقصيرة التي تضفي عليهم مظهرا هنديا مزيفا "** [2]. وبعد أن تقدم الرحالة أفراد الفرقة، الذين هم: عازف القصبة، وعازف السنطير، والطبال ،والمغني، تشرع في وصف أجواء الحفل: **" تمدد الطبلة دقاتها إلى ما لا نهاية في إيقاع معاكس كأنه دقات قلب بشري، انفعالي وهائج تارة وتارة أخرى خائر منهك إلى أن ينطفئ في شهوانية لا معقولة. يطرز الناي، على هذه الدقات الشريانية أحيانا، ألحانا عسكرية حربية وأنغاما طويلة غريبة تبدو وكأنها تحلق عاليا، ويخن القصب بهمسات لا تكاد تسمع كأنها خرير الماء الهادئ أو النسمة الدافئة "** [3] .

بلغ تأثير الموسيقى في الحاضرين مداه، فأصبحت قطع النقود البيضاء ترن على الطبق الموضوع على الأرض، يتبع كل رنة دعاء من الطبال يبارك فيها كرم المتصدق... أما صاحب المقهى فصيده وفير " **يتنقل القهوجي، وهو يتحزم بفوطة حمراء وخضراء ويقدم**

---

(1) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 102

(2) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 16

(3) نفسه، ص 17

مشروبا ساخنا على الطبق، وفي كل مرة يذكر اسم من طلب الشاي وهو يدعو له بالبركة مـــن عند الله " [1] .

نوع آخر من الموسيقى، نال حظا وافرا من الوصف لدى الكثير من الرحالة الأوروبيين، ذلك هو موسيقى ورقصة " العيساوة ". فهذا الكاتب الفرنسي الذي زار مدينة قسنطينة " تيوفيل غوتيي " (Théophile Gautier) في قصته القصيرة " رقصة الجن "(La danse des Djinns) الواردة في كتابه (Voyage en Algérie) يصف هذه الرقصة فيقول: **" بدأ الحفل في الأول بهمهمة خفيضة الصوت وممططة من النساء العجائز فيما يشبه تعويذة، مدعومة بشخير خافت من الدربوكة ... كانت عائشة تتلوى مثل دودة قطعت إلى أربع، أو مثل ضفدعة على بطارية فولطا "** [2] .

تصف رحالتنا هذا النوع من حفلات العيساوة. إذ في ليلة من ليالي القصر الصيفية الندية، تتــاهت إلى المسامع دقات الطبول تصحبها " الغيطة "، ومعهما تتعالى الأغاني بطيئة. **" الأجسام تترنح مبللة في إيقاع يزيد بسرعة تدريجيا فوق مواقد الفحم الملتهبة من أين تصعد رائحة " الجاوي " ومر الصبر المخدرة "** [3] الأجساد تتلوى، تتهاوى مخدرة، إنها تبحث عن النسيان والنشوة. ينضم إلى المخدرين جمع من الزنوج، يغني الأفارقة، لا شعوريا، نشيدا عظيما للحب والخصوبة الأبدية. يا لها من موسيقى **" تدمي القلب في صمت، تلك التي همستها الشفاه .. شفــاه غائبة ترتــــوي مــن نبع غير نبعي، وتستنشق عطرا غير عطري "** [4] .

ج. تدخين الكيف(البحث عن النسيان) :لم يكن القصر كله مكانا للطهر والنقاء، والعبادة المتواصلة، فخلف الملاح، وفيما يشبه المنزل، نصفه أطلال، **" قاعة طويلة تنيرها عين وحيدة في وسط السقف المشيد من عوارض ملتوية يكسوها الدخان ... هذا المكان الغريب هو مـــأوى للمتشردين مــن المغاربة والبدو وأناس كثيرين لا آفاق لهم، سيئي**

---

(1)إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 18

(2) منور أحمد، **الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر**، مرجع سابق، ص 21، 25

(3) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 104

(4) نفسه، ص 105

المظهر " [1]. وفي ركن من هذه الخربة مكان هو أشبه بالمقهى لما يحويه من أثاث وأوان، إضافة إلى قفة محشوة بالقنب الهندي المجفف .

أما مرتادو هذه " المحشاشة " فهم " البرانية "، المتشردون، ومجموعة مدخني الكيف من أبناء القصر. هؤلاء يمثلون مجموعة مغلقة يصعب اختراقها، والغريب أن معظمهم من الطبقة العليا من المتعلمين. أحدهم " حاج إدريس " الفيلالي النحيف الأسمر اللطيف، متشرد منذ خمسة وعشرين عاما، جوال لا يعرف مقرا، عامل بسيط، لكنه في أكثر أحواله متسول. أما الآخر فهو " محمد بهواري " المكناسي، الباهت اللون، شاب شاعر، جوال يبحث عن الأساطير والأدبيات العربية. والثالث طبيب سحار، من جبل " زرهون " ... وغيرهم كثير. عند هبوط كل مساء يجتمعون في هذا المكان " **تزين أغصان النعناع العطرة عمائمهم. اصطفوا على طول الحائط، مقرفصين فوق الحصيرة يدخنون القنب الهندي والتبغ في غلايينهم الصغيرة المصنوعة من الطين الأحمر... يغني الباحثون عن النسيان وهم يصفقون بتكاسل، يصعد صوتهم كالحلم في آخر الليل، على ضوء فانوس مربع من الطلق. ثم تنخفض الأصوات تدريجيا وتصبح بطيئة. يسكت مدخنو الكيف أخيرا، نظرتهم ثابتة على أزهارهم في نشوة لا محدودة** " [2]. السؤال الذي يحق للقارئ طرحه: كيف عرفت الرحالة بكل التفاصيل ؟؟ لا شك أنها كانت معهم، وذلك ما أشار إليه بعض دارسي حياتها، من أنها كانت تدخن التبغ والكيف كالرجال .

أخيرا، ما الذي يمكن استصفاؤه خاتمة، والخروج به نهاية، بعد تفاصيل هذه الرحلة ؟ والجواب: أن أول ما يمكن تسجيله، إنما هو تلك الملاحظة نفسها التي كانت إثر الرحلة "الموباسانية " من أن الصور التي وصف بها العربي، ليست سوى أوصاف حسية لا علاقة لها بما هو ذهني، إلا في القليل منها ؛ وهو ما يبين أن صورة الجزائري، والعربي المسلم عموما في كتابات الرحالة الغربيين تظل محصورة في هذا النطاق من الحسية .

صحيح أن الصورة " الإيبرهارتية " لا تنم عن تهكم كما في سابقتها، فهي تبعث في نفس القارئ طمأنينة وأنسا يجعلانه يرغب في العيش وسط تلك القصور، غير أنها رغم ذلك تبقى

([1])إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 123

([2]) إيبرهارت إيزابيل: **الطريق إلى قنادسة** ، ص 125

صورة غارقة في الحلم والصوفية، وكأن المجتمع الموصوف لا يعاني استعمارا، ولا يكابد الفقر والمسغبة، ولا تحز فيه رؤوس الثوار ... ربما يرجع ذلك إلى تعلق الرحالة بروحانيات مجتمعات الزوايا وصوفيتها. هي صورة لا تظهر بؤس " الأهلي " مثلما أظهرته صورة رحلة " غي دي موباسان "، ولا نشعر فيها بوجود استعمار، اللهم إلا ما تظهره صورة " العسكر " .

باختصار، يمكن القول: إن الصورة العامة للجزائر والجزائري، كما تبدو من خلال هذه الرحلة، بعيدة كل البعد عن نمطية الصورة الرحلية الفرنسية، وعن حكمها المسبق، بل وعن غواية الشرق وشهوانيته، وعنصرية بعضها ؛ مما يجعلها صورة أبعد عن التحيز، وأقرب إلى إنصاف الأهلي، هذا إذا وزناها بميزان التحيز والاعتدال، أما إذا وزناها بميزان القرب أو البعد من الواقع، فصورة رحلة " دي موباسان " تبدو أكثر دقة، ونقلا للواقع الذي عاشه الجزائري أواخر القرن العشرين.

خاتمــة

شاءت الصدف أن يتزامن وضع اللمسات الأخيرة لهذا البحث مع الحادثة التي هزت فرنسا، ومعها العالم كله، إثر مقتل صحفيي الجريدة الفرنسية الساخرة (Charlie Hebdo). وما ألقى به الحادث من ظلال كبيرة، سواء على العالم الغربي، أم العالم الإسلامي .

وبعيدا عن كل القراءات التي يمكن لأي متتبع أن يحلل بها الحادثة، فإنها، بقدر ما بينت بعد المسلمين الكبير عن الرد الإيجابي إزاء مثل هذه الأحداث التي لن تتوقف على الأقل في القريب، بقدر ما بينت الحادثة ذلك، فإنها أسفرت عن الوجه الحقيقي للغرب، وموقفه من الإسلام والمسلمين، ذلك الموقف الذي لا يزال أسير الصورة الأولى التي كونها الغرب المسيحي عن الشرق المسلم، بدءا من أول لقاء / تصادم حضاري بين الحضارتين المتجاورتين.

في السياق نفسه، يمكن وضع القراءة التي ساقني إليها هذا البحث الذي حاول أن يوضح صورة الجزائر من خلال نموذج أدبي فرنسي، تمثل في نصين رحليين لأديبين عاشا في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

لقد تبينت لي الحاجة الملحة للقراءة المستمرة لتاريخنا أثناء الفترة الاستعمارية، دون أن نحصر تلك القراءة في النصوص التاريخية، إنما لا بد من فتحها على نصوص أخرى قد تقول ما لا يقوله التاريخ. ومن ذلك النصوص الأدبية، وهي بالقدر الكثير الذي يشكل ظاهرة أدبية رغم ما يشوب مساءلة هذه النصوص من مزالق كثيرة، يبدو أنه من الصعوبة تجنبها ومحاولة الإفلات من تأثيرها، بسبب ما للموضوع من حساسية .

لقد قادني بحثي المتواضع هـذا إلى جملة من الملاحظات التي يمكن الخروج بها كنتيجة، والتي ألخصها في مجموعة نقاط:

- إن نظرة الأديب الرحالة الفرنسي إلى الجزائر كقطعة جغرافية، كانت نظرة إيجابية ؛ فالجزائر بلد جميل، وأجمل ما فيه صحراؤه الشاسعة، وشمسه الدائمة السطوع، إنها عالم جديد مغر بالنسبة لابن البرد والصقيع، إنه العالم المتوحش الطيب.
- أما بالنسبة للجزائري (الإنسان)، فهو لا يزال في بدائيته، وواجب على الفرنسي المتحضر أن يعمل على إخراجه من بدائيته وتوحشه. ذلك مـــا توحي به صور " الأهلي " في رحلة " دي موباسان " التي لا تخلو من التهكم.

- إن الصور التي وصف بها الرحالة الفرنسي المواطن الجزائري، ليست سوى أوصاف حسية لا علاقة لها بما هو ذهني، إلا في القليل منها ؛ وهو ما يبين أن صورة الجزائري، والعربي المسلم عموما في كتابات الرحالة الغربيين تظل محصورة في هذا النطاق من الحسية .

- ولعل من أهم الملاحظات التي يمكن تسجيلها في هذا المقام، أن هذين النصين الرحليين، وغيرهما من النصوص التي صورت الجزائر، تقدم لنا مادة إثنوغرافية، وتضع بين أيدينا ملامح من صورتنا خلال تلك الفترة من تاريخنا، تكون عونا للذين يعملون في مجال الرواية والعمل السينمائي. وذلك راجع إلى براعة الأديبين في الوصف الذي يزري بالمصورين والسينمائيين.

- ملاحظة أخرى لا تخفى على قارئ النصين الرحليين، مفادها طغيان الوصف على السرد، وهي سمة أغلب النصوص الرحلية التي صورت العالم الإسلامي، ومعلوم أن السرد يتطلب حضور الشخوص الفاعلة، وذلك ما لاتقدمه لنا الرحلتان، خاصة رحلة " دي موباسان "، مما يؤكد مرة أخرى هامشية الجزائري الذي ظل طوال الرحلة مفعولا به لا فاعلا.

- هناك ملاحظة أخرى لا يمكن تجاوزها، وهي إحساس قارئ نص " إيبرهارت" بغياب كل ما يوحي بأن البلد والشعب مستعمران، هذا إذا استثنينا بعض الصور التي تستحضر الجنود الفرنسيين الطيبين، ويزداد الأمر غرابة إذا عرفنا أن الرحلة كانت لمنطقة ظلت لمدة تقارب ثمانية وعشرين عاما مسرحا لثورة الشيخ بوعمامة (1881 - 1908)

- ملاحظة أخيرة، يمكن إدراجها في هامش القائمة، رغم أهميتها، وهي تتعلق بترجمة النصين، خاصة نص " دي موباسان "، ترجمة، رغم نصاعة بيانها، وأمانتها، إلا أنها تبقى مشوبة ببعض النقص، خاصة حين يتعلق الأمر بالأعلام سواء في ذلك أسماء الأشخاص أو الأماكن، حيث لاحظت الكثير من عدم الدقة في ترجمتها؛ مما يحرف الكثير منها؛ وهذا ما يستوجب أن يتولى الأمر أهل البلد فهم أدرى بشعابه. سيما إذا علمنا أن صورتنا في أدب مستعمرنا تنوء بحملها مئات النصوص الأدبية .

بيبليوغرافيا البحث

القرآن الكريم، برواية ورش عن نافع.

أولا : *المصادر:*

1. إيبرهارت إيزابيل . **الطريق إلى قنادسة أو في ظلال الإسلام الدافئة**، تر: عبد القادر ميهي، مطبعة مزوار، الواد، الجزائر، ط 1، 2012

2. إيبرهارت إيزابيل . **ياسمينة وقصص أخرى**، تر: حسن دواس، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة إبـداعات عالمية، ع 39 ط 1، الكويت، 2012

3. دي موباسان غي. **رحلة إلى الجزائر إلى بلاد الشمس**، تر: نادية عمر صبري، ورد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2007

4. De Maupassant, Guy: **Au soleil**, Édition reproduite, Albin Michel, 1925, Édition du groupe « Ebooks libres et gratuits » www.ebooksgratuits.com

5. Eberhardt , Isabelle: **DANS L'OMBRE CHAUDE DE L'ISLAM** ,Édité et arrangé par:Victor Barrucand , *www.ebooks-bnr.com*

ثانيا: *المراجع العربية :*

6. بن قينة عمر: **صورة الجزائر أرضا وإنسانا لدى رحالة فرنسي 1899**، منشورات ثالة، الجزائر، دط، 2010

7. وهبة مجدي وكامل المهندس: **معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب** ، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984

8. وهبة مراد: **المعجم الفلسفي**، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة دط،

9. حمود ماجدة: **مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن** ،منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 2000

10. حنون عبد المجيد: صورة الفرنسي في الرواية المغربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1986 .

11. حسني حسين محمود: أدب الرحـــــلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت، ط2، 1983

12. يعقوب إيميل: المصطلحات اللغوية والأدبية، دار العلم للملايين، بيروت ، ط1، 1997

13. كردي إبراهيم علي: الرحـل في بلاد المغرب والأندلس، مـكتبة الأسد، دط، 2013

14. محمد فهيم حسين: أدب الرحلات، عالم المعرفة، الكويت ،دط، 1989

15. منور أحمد: الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر، دار التنوير، الجزائر، ط 1، 2013

16. معلم سبتي: إيزابيل إيبرهارت اللغز الدائم، مطبعة عمـار قرفي وشركائه، باتنة الجزائر، ط1، 2012

17. عبد النور جبور: المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1984

18. علوش سعيد: معجم المصطلحات الأدبية المعـاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 1، 1985

19. عيد ثابت: صورة الإسلام في التراث الغربي، دراسات ألمانية، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، دط، 1999

20. قنديل فؤاد: أدب الرحـلة في التراث العربي، الدار العربية للكتاب، القاهرة ، ط2، 2002

21. ضيف شوقي: الرحلات، دار المعارف، القاهرة، ط 4، دت

ثالثا: المراجع المترجمة :

22. بن نبي مالك: مذكرات شاهد للقرن، تر: عمر مسقاوي، دار الفكر، دمشق، ط2، 1984

23. جوردا بيير: **الرحـــلة إلى الشرق**، تر وتح: مي عبد الكريم وعلي بدر، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2000

24. هنري باجو دانييل: **الأدب العام والمقارن**، تر: غسان السيد، مطبوعات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 1997

25. مساعدي سكينة: **روائيات الاستعمار والمرأة المستعمرة**، تر: نادية الأزرق، الوكالة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر، دط، 2005

26. سعيد إدوارد: **الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق**، تر: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006

27. قباني رنا: **أساطير أوروبا عن الشرق**، لفق تسد، تر: صباح قباني، دار طلاس، دمشق، ط3، 1993

رابعا: المراجع الأجنبية:

28. Charles Tailliart. **L'Algérie dans la littérature française**. Slatkine reprints . Genève 1999.

خامسا: الدوريات، المجلات، والصحف :

29. السايح لحبيب: **الجزائر في الكتابات المتوسطية .. إكزوتيك بطعم عنصري** جريدة " الجزائر نيوز "، ع: 21جوان 2010

30. بوباكير عبد العزيز: **موبـــاسان .. بحثا عن بوعمـــامة**، جريدة "الخبر"، ع 7225، 19 نوفمبر 2010

31. بودربالة الطيب: **صورة الجزائر في الروايـة الفرنسية**، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، جامعة الوادي، الجزائر، ع: 2 . 3، 2010

32. بوداود بلعرج: **إيزابيل إيبرهــارت .. عــاشقة الثورة الجزائرية**، مجلة العربي الكويتية، ع 558، ماي 2005

33. بوزوادة حبيب: الإبداع والحقيقة في الأدب الكولونيالي، مجلة "عود الند "، ع 67، 2012

34. زردومي إسماعيل: تقنيات السرد في رحلة فيض العباب، مجلة العلوم الإنسانية جامعة بسكرة، الجزائر، ع 8، جوان 2005

35. لوكام سليمة: الجزائر في كتابات غي دي موباسان: الأرض والعرق والدين ، مجلة العربي الكويتية، ع 642، ماي 2012

36. Tamou Hocine: **ISABELLE EBERHARDT COMMEMOREE A ALGER ET EL-OUED L'écrivain trait d'union entre l'Algérie et Genève** , Le soir d'Algérie , n 7348, 06/12/2014

سادسا: القواميس، المعاجم، والموسوعات:

37. ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، 2000

38. ابن فارس: مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت ،دط 1987، ج2

39. الفيروز أبادي: القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط8، 2005

40. المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط4، 2004

41. **La rousse**, dictionnaire encyclopédique illustré librairie la Rouse , Paris , 1997

سابعا: الرسائل الجامعية:

42. أعمر لمبروك: الفضاء المديني ودوره في التشكيل السردي، رحلة العبدري نموذجا ،رسالة ماجستير ،جامعة مولود معمري تيزي وزو، الجزائر، 2013

43. زردومي إسماعيل: فن الرحلة في الأدب المغربي القديم، أطروحة دكتوراه دولة. جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2005/2004

44. رايس رشيد: صورة الجزائر في الكتابات النثرية الفرنسية خـــلال القرن التـاسع عشر، أطروحة دكتوراه دولة، جـامعة منتوري، قسنطينة، الجزائـر، 2004/2003

45. سوف خليدة: ترجمة الآخر أو تلقي الهوية المسترجعة، رسـالة مـاجستير في الترجمة، جامعة قسنطينة 1، الجزائر، 2012/2011

46. علاوي الخامسة: العجـائبي في أدب الرحلات، رحلة ابن فضلان نموذجا ، رسالة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2005

47. Benzian, Sabrina: **Orient et Occident dans les nouvelles d'Isabelle Eberhardt: *Le Major*, *Yasmina*, *Pleurs d'amandiers* et *La Rivale***, mémoire de magistère , UNIVERSITE DE BATNA – EL HADJ LAKHDAR,2008/2009

48. HAMDI ABDELAZIM ABDELMAKSOUD ABDELKADER: **L'ÉGYPTE DANS *VOYAGE EN ORIENT* DE GÉRARD DE NERVAL ET LA FRANCE DANS *L'OR DE PARIS* DE RIFÀ'A AL TAHTÂWÎ,** thèses de doctorat, UNIVERSITÉ DU QUÉBEC À MONTRÉAL, avril 2008

ثامنا: المواقع الإلكترونية:

49. الجابري محمد العابد: الأنـا مبدأ للسيطرة، والآخر موضوع له، منبر الدكتور محمد عابد الجابري www.aljabriabed.net

50. الرفاعي عبد الجبار: الإســـلام في الوعي الغربي، صحيفة الوسط البحرينيـة ، ع 2646، 2009/12/04 www.alwasatnews.com

51. جموعي سلوى: إيزابيل إيبرهارت ورحلة الحب والجنون، موقع فارسة الرمـال إيزابيل إيبرهارت www.ghanami.blogspot.com

52. زكي أحمد كمال: جي دي موباسان تاجر النثر العبقري www.ahmedkamalzaki.blogspot.com

53. حاج عيسى محمد: نبذة عن تـاريخ الطرق الصوفية في الجزائر، نبراس الحق www.nebraselhak.com

54. حاتمي محمد: في الخطاب الرحلي www.aljabriabed.net

55. حليفي شعيب: الرحـــــلة في الأدب العربي، منتديات ياهو مكتوب

www.maktoob.forums.com

56. منظمة العفو الدولية: دراسة حول الصور النمطية القائمة على أساس النوع الاجتماعي السائدة بالمغرب، الرباط، ماي 2010

www.amnestymaroc.org

57. **Biographie de Maupassant** ,

www.studyrama.com

58. Naim Rachid: **L’Arabe aux yeux de l’orientalisme littéraire,**

فهرس الموضوعات

الفصل الرابع: " الطريق إلى قنادسة "